

بروفسير عبدالله الطيب

مع أبي الطيب





الخرطوم عاصمة الثقافة العربية ٢٠٠٥ م

مع أبي الطيب



وزارة الثقافة

السودان - الخرطوم (٢) - شارع المفتي - جوار البنك السوداني الفرنسي

تلفون : ٤٩٧٤٠٥ ٨٣ - فاكس : ٤٩٧٤٠٢ ٨٣



الطبعة الثالثة

١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م

رقم الإيداع : ٢٠٠٤/٢٧٣

لوحة الغلاف

الدكتور حسين جمعان



هاتف : ٧٦٣٥٧٩ ٨٣ . ٧٤٩٦٦٠ ٨٣ . فاكس : ٧٦٣٥٨٠ ٨٣ . ٧٤٩٦٥٦٩ ٨٣

رمز بريدي: (١١١١١) . ص.ب: ٢٠٠٤ . الخرطوم . السودان

www.dar-alassalah.com - E mail: dar@dar-alassalah.com

بروفســــــير عبدالله الطيب

مع أبي الطيب



الاهداء

وَقَدْ سَرَّنِي أَنْ كَانَ لِي مِنْ أَرُومَتِي
خَلِيلٌ عَلَيْهِ الْمَجْدُ حُرٌّ حُلَاحِلُ
إذا ما انبَرَى للنَّقْدِ أدْرَكَ لُبُّهُ
خَفِيَّاتِ مَا تَرْمِي إليهِ المَسَائِلُ
وَإِنْ نَظَمَ الشِّعْرَ الحَدِيثَ سَمَا بِهِ
إلى رُتَبٍ لا يَرْتَقِيهِنَّ خَامِلُ
وَإِنْ نَظَمَ الشِّعْرَ الرَّصِينَ فَإِنَّهُ
كَمَا صَالَ فُرْسَانُ البَلَاغَةِ صَائِلُ
وَهَمَّتْ إِلَيْهِ الحَادِثَاتُ فَصَدَّهَا
كَرِيمُ السَّجَايَا وَالتَّلِيدُ المُنَاضِلُ
أَخٌ لَكَ بَرٌّ وَالإِخَاءُ وَسِيلَةٌ
إِذَا طُلِبَتْ عِنْدَ الإِلهِ الوَسَائِلُ

إلى أخي الكريم الشَّاعر الفحل محمد المهدي مجذوب أهدي هذه الأبيات وهذا الكتاب .

عبد الله الطيِّب

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله وبه نستعين وصلّى الله على سيدنا محمـــد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليما وبعد فربّما يصح أن يقال أكثرُ أسماء شعراء العرب دورانا بينهم امرؤ القيس وزهير وأبو الطيّب وعسى أن يكون معهم جرير . ثم في كلِّ عصرٍ يشتهر اسم فيغلب عليهم جميعا ثم يختفي فينسى أو يكاد مثل البهاء زهير والوأواء الدمشقي وحافظ إبراهيم وإيليا أبي ماضي وهلّم جرًّا . وبين طبقات العامّة قد لايعرف هؤلاء ولكن قد يعرف عنترة الفوارس لأنّه في القَصَصِ الشعبيِّ وحسانُ والبوصيريُّ والبرعيُّ لأنهّم من مُدّاح الرسول عليه الصلاة والسلام .

وقد اشتهر امرؤ القيس وجرير لعذوبة اللفظ وصفائه وحرارة النسيب وإبداع الصـــور ثم في شعرهما الحكمة والإنســـانية . وقد اشتهر المتنبي وزهير للحكمة والإنسانية وقـــوّةِ الأداء ثم عندهما من النسيب الصادق والصور المبدعات .

على أنّ العصر الحاضر ربّما خَسَّ بقدر زهير وأبي الطيّب لأنّهما من شعراء المديح ،وخاصّة المتنبي لتكَسّبه بذلك تكسُّبا واختلافه بين الممدوحين وجَوبِه الأرضَ من أجل هذا الغرض . ولعلّه ممّا أفسد على الناس رأيهم في الحكم على شعر المَدْحِ عامّة وشعراء المديح قاطبة حسبانُهم أنّه من التسول وأنّ أصحابه متسولون . وهذا خطأ . إذ الشعر ديوان العرب كما الإذاعة والتلفزيون والصحافة وشتّى طرق الإعلام والدعاية هُنّ ديوان مجتمعنا الحاضر . والمدح والهجاء كانا من أساليب الإعلام والدعاية المشروعة كما هما في هذا العصر .

والملوك ومن أشبههم كانوا يعلمون لهما ذلك فيرومون منهما ويتّقون ، كما يفعل أولو الأمر ومن أشبههم الآن إزاء الاذاعة والتلفزيون والصحافة

وشتّى طرق الإعلام ، كلٌّ منهم بمنهجه وأسلوبه ومايملك من وسائل الترغيب والترهيب . وكان الشاعر القديم ربّما مدح وهجا متكسِّبا كما يفعل أكثر القائمين بالإعلام فى زماننا وربّما فعل ذلك لايريد كَسْبا فاجيز وعوقب ، أو أبه إليه أو تُغُوفل عنه أيًّا من ذلك كان . وكان ربّما سَفَرَ الشاعر بين قبيلة وأخرى بشعره أو وفد على عظيم أو فضّل أو نفّر سيدا وهلّم جرًّا .

وكان لرسول الله صَلّى الله عليه وسلّم شعراء يجاهدون معه ، ولقريش شعراء يقاتلون معهم . وكان لعلىٍّ شعراء ولمعاويةَ شعراء . وكذلك لعبد الملك وابن الزبير ، وبنى هاشم وبنى أميّة ، وآل على وآل العباس . وكان هارون الرشيد يقدِّم منصورا النمرىَّ ومروان بن أبى حفصة لافصاحهما بسياسة دولته فكانا عنده آثر من أبى نواس . وكانت لأبى العتاهية عنده منزلةٌ لأنّه كان ينشده شعر الزهد وكانت له قيمة سياسيّة شعبيّة . وكان زمان المأمون والمعتصم زمانُ الاعتزال . واصطنع رجالاتُه تقديمَ أصحاب التجديد فى فنِّ الشعر . ونفق عندهم أبو تمّام فقدّموه عند المعتصم . وكان المعتصم أميّـًا لعلّه لمّا سمع قصيدته :

« السَّيفُ أَصْدقُ أنباءً من الكُتُبِ »

لم يفهم منها إلاَّ قليلا . وكان عبد الله بن طاهر أميرُ خُرَاسانَ يفهم الشعر ويطرب له ، إلاَّ أنَّ دقته الإدارية ، وتقليده لسَّمْتِ الخلافىِّ استلزما أن يكون له مستشار فنىٌّ فى شخص أبى العميثل يمتحن الشعراء قبل أن يَصِلوا إليه . ولم يُستثن أبو تمّام نَفْسُه من هذا الإجراء حين وفد عليه بِمِدْحَتِه :

« أَهُنَّ عَوَادِى يُوسُفٍ وصَوَاحِبُهْ »

وكان أمراء الطوائف من بعدُ يتنافسون على الشعراء . وربّما اختصّ أحَدُهم شاعرا أو أكثر فأقاموا عنده لايبرحون ، وربّما غاروا على الشعراء . فاحتبسوهم عندهم حتّى لايمدحوا سواهم أو يهجوهم إذا صاروا إلى سواهم وقد كان الأمراء منهم بالشام من أشدِّ الناس فعلا لهذا ولقد لقى أبو الطيِّب

من ذلك عنتاً قبل أن يصير إلى سيف الدولة. وكان سيف الدولة من أكابر أمراء الطوائف فى القرن الرابع، وكانت أسرته بنو حمدان من كبريات الأسر المغامرة الّتى حظيت بالإمارة فى ذلك العصر. وكان أبو الطيِّب بعد إذ صار إليه كالموظف عنده،

« أَسِيرُ إلى إقْطَاعِهِ فى ثِيَابِهِ
عَلَى طِرْفِهِ فى دَارِهِ بِحُسَامِهِ »

كان وزيرَ دولته ووكيلَ وزرائه (وضعه كان شيئا من هذا النوع) للإعلام والدعاية (بلغة العصر) . واستمر فى هذا المنصب تسع سنوات . وكادَ له منافسوه، أبو فراسٍ والناشئ والرَّفاءُ ومن معهم عند فخامة الأمير كما يكيد الموظفون الكبار ومن أشبههم للموظفين الكبار ومن أشبههم فى كلِّ جيل . . « سُنَّةُ الله فى خَلْقِهِ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ الله تَبْدِيلا » . . . وكان وزير الدعاية عند كافور أربع سنوات . . وكان وزير الدعاية والإعلام عند عضد الدولة مدى عام . . كان وزيراً زائراً مفوَّضا من عند نفسه ذلك الحين القصير .

وكان مع الدعاية والإعلام عَلَى أبى الطيِّب واجبٌ آخر لا يُكَلَّفُه أكثر وزراء ووكلاء وزارات الدعاية والإعلام فى عصرنا الحاضر. وذلك أنْ يبرز عمله بصورة فنيَّة شعريَّة تحمل طابَعه الشخصىَّ كما كانت كلُّ دولة خدمها فى ذلك الزمان إمارة من إمارات الطوئف تحمل طابَع أميرها الخاصّ الشخصىّ . . . سَمْتُ دولة آل حمدان بحلبَ غيرُه بالموصل . . . وسَمْتُ دولة آل الإخشيد بالفُسْطاط غيرُ سَمْتِ دولة آل بويه بأرْجان أو بشيراز ... غيرُ سَمْتِ بنى عُبَيد بالمغرب من بعدُ وبالفُسْطاط . قال ابن هانىء الأندلسى يمدح الأمير العُبيدى :

« حلَّ برقَّادة المسيحُ   حلَّ بها آدمٌ ونُوحُ
حلَّ بها الله ذو المعَالى   وكلُّ شىءٍ سِواه رِيحُ »

وكان أبو الطيّب من بين وزراء الإعلام في ذلك الزمان عَجَباً . . . كان وزيراً له سياسته الخاصّة ويخبر الناس أنّه غير قادر على تنفيذها لأنّ الدولة التي تُغدق عليه جوائزها ؛ سيفَ الدولة ، أو كافوراً ، أو بدر بن عمار — تسمع لمن يكيدون له وتعرقل عليه . وكان مع هذا يُمَجِّدُها شكرا لإغداقها عليه وتنبيها على بهائها في ذات نفسها وتنويها به . وقد يجمع جمعا غريبا بين امتعاضه من العرقله وتمجيده وتنويهه بالبهاء ، كقوله في كافور

«يأيهُّا الملكُ الغَاني بتسمية في الشرقِ والغربِ عن نَعْتٍ وتَلْقيبِ
أنتَ الحبيبُ ولكنّي أعوذُ بِهِ من أنْ أكونَ مُحِبّاً محبوب»

وفي البيت الأول تعريض كما ترى .

وكقوله في سيف الدولة :

«أهُمُّ بشيءٍ والليالي كأنّها تُطارِدُني عن كَوْنِه وأُطارِدُ
وحيدٌ من الخُلاّنِ في كلِّ بلدةٍ إذا عَظُمَ المَطْلُوبُ قَلَّ المُسَاعِدُ
خَليليَّ إنّي لا أرَى غيرَ شاعرٍ فَلِمْ مِنْهمُ الدَّعْوَى ومنّي القَصائِدُ
فَلا تَعْجَبَا إنَّ السُّيُوفَ كثيرة ولكنَّ سيفَ الدّولَةِ اليَوْمَ واحِدُ»

وهذا في الدعاية غايةٌ كما ترى

وكان مِمَّا أعانه على هذا المذهب مزاجُه وطموحُه وأحوالُ عصره وما جرَّبه من ذلك وكان قد خرج أولَ شبابه بدعوى ادعاها ولو قد نجح لكان سَبَق الفاطميين إلى إنشاء دولة فاطميّة ولعلّه كان يَدّعي نسبا علَويّاً ، ولعلّه كان علَويّاً يكتُم نسبه . . . ومهما يكُنْ من أمره فقد كان لا يَرى إذ أذعنت نفسه إلى التماس السموِّ من طريقٍ طويل شاقٍ هو خدمة الأمراء بشعره ، أنّه دون أحد منهم . . . إذ كانوا في جملتهم بين مغامر وابن مغامر ولعلَّ أعرقهم لم يكن يزيد على أنْ كان حفيدَ مغامر مثل سيف الدولة أو عبداً لحفيد مغامر مثل كافور . . . أمّا أمثال ابن كَيْغَلَغ فلم يكن يقيم لهم وزنا .

وكان تنافس الأمراء إذ ذاك على الشعراء كتنافس ملوك أُرُبّا

وأمرائها على استقدام المصوِّرين البارعين واستخدامهم وينبغى أن ننظر إلى قصيدة المدح لا على أنَّها تسولٌ ولكنْ على أنَّها واجبٌ أو عمل يطلب من الشاعر فينجزه كما قد كان المصوِّرُون فى أُرُبَّا يؤدِّى أحدهم واجبا أو ينجز عملا حين يُطلب منه أن يرسم هذا الأمير أو تلك الأميرة . وكان من أعظم ماينبغى فى الرسم إبراز الأُبَّهة والجمال ، وما كان كلُّ أمير بذى أبَّهة ولا كلُّ أميرة بحسناء . فتأمل . وكما كان شكسبير وأضرابه الرِّوائيُّون يؤدِّى أحدهم واجبا أو ينجز عملا حين يُطلب من فرقته تمثيلُ قصَّة لتسلية الملكة ورجال القصر واللوردات الكبار . ولأنَّا نعيش الآن فى زمان نهضة أُرُبَّا والتاريخ الكبير لازال من صُنع دولتها فإننا بحكم ذلك نقبل قضيَّة روايات موليير وراسين وبِنْ جونسون وشكسبير ، وصور فان دايك وجويا رنبرانت وروفائيل على أنَّها من صميم الفنِّ . وننسى وجه الشبه بينهما وبين المدح والهجاء وقد فطن إلى نحو من ذلك ابن رشد فى الدهر القديم حين شبَّه المأساة بقصيدة المدح والملهاة بقصيدة الهجاء فما باعد كثيرا . وقد غلا الإنجليز فى أمر شكسبير ويوشك الشعر المسرحى أن يكون من أضعف أنواع الشعر ، إلاَّ ما يذكر من أشعار يُونانَ فى هذا المجرى لأنَّ الشكل والأداء البيانيَّ كان يسيطر عليها أكثر من التشخيص وهو قد يحدُّ جِدّاً من آفاق الخيال كما قد يلتوى بعواطف التعبير عن جادَّتها المباشرة إلى ضروب من مسالك التسلية العابرة والهَزْل .

هذا والناظر فى أصناف المديح فى الشعر العربىِّ يجدهُنَّ فى جملتِهن يَخْتَلِفنَ من عصر إلى عصر كما تختلف أساليبُ التمثيل وأساليبُ التصوير وأساليبُ الرقص وأصنافُ الأوانى . ولقد نستطيع إنْ أقبلنا على ذلك أن ندرس أحوال المجتمعات العربيَّة منذ أوائل عهدها إلى يومنا هذا من طريق دراسة الأصناف من أساليب قصائد المدح فى جملتها من عصر إلى عصر كما يفعل الآن علماء الأحفار حين يستنبطون من أحوال الأمم السالفات بدراسة أصناف أساليب الجِرارِ من عصر إلى عصر .

ثمَّ أساليبُ القصائد المادحة في العصر الواحد تختلف باختلاف الشعراء وباختلاف السياسات الّتي كانت تُهَيْمِنُ على دُوَلِهِم أو ماهو بمنزلتها . ثمَّ الشاعر الواحد قد يَعرِضُ من أصناف الصور في قصائده باختلاف الممدوحين الّذين يتناولهم فيها . . مثلا جرير . . مدح عبد الملك فقال :

سَأَشْكُرُ إنْ رَدَدْتَ عَليَّ رِيشي ... وأَنبَتَّ القَوَادِمَ فى جَنَاحِي
أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ المَطَايا ... وأَنْدَى العَالَمِينَ بُطونَ رَاحِ
دَعَوتَ المُلْحِدِيْنَ أَبَا خُبَيْبٍ ... جِمَاحاً هل شُفِيتَ مِن الجِمَاحِ
فَقَدْ وَجَدُوا الخَلِيفَةَ هِبْرِزِيّاً ... أَلَفَّ العيصِ لَيْسَ من النَّواحِي
وما شَجَرَاتُ عِيصِكَ فى قُرَيْشٍ ... بِعَشَّاتِ الفُرُوعِ وَلا ضَوَاحِي

ومدح الحجاج فقال :

دعا الحجاجُ مثْلَ دعاءِ نُوحٍ ... فأسْمَعَ ذا المَعارِجِ فاستَجَابا
شياطينَ العراق شَفَيْتَ مِنْهُمْ ... فامْسَوا خاضعين لك الرِّقَابَا
إذا أَخَذُوا وكَيْدُهُمُ ضَعِيفٌ ... بباب يَمْكُرُونَ فَتَحْتَ بَابَا
وأشْمَطَ قد تَرَدَّد فى عَمَاهُ ... جَعَلْتَ لشَيْبِ لحيته خِضَابا
جَعَلْتَ لكلِّ مُحْتَرِسٍ مَخُوفٍ ... رِجَالاً دَارِعِينَ بِهِ وَغَابا
كأنَكَ قَدْ رأيت مقدماتٍ ... بصين استان قد رفعوا القبابا

ومدح عمر بن عبد العزيز فقال:

يَعودُ الفَضْلُ منك عَلَى قُرَيْشٍ ... وَتَدفَعُ عَنْهُمُ الكُرَبَ الشِّدَادَا
وتَدْعو اللهَ مُجْتَهِداً لِيَرْضَى ... وَترقُبُ فِي رَعِيَّتِكَ المَعَادا
إلى الفاروقِ ينتسبُ ابن ليلى ... ومروانَ الّذى رَفَعَ العِمادا
تعوَّدْ صالحَ الأعمالِ إنِّى ... رأيتُ المرءَ يفعَلُ ما استعادا
تَزَوَّدْ مثل زادِ أبيك فينا ... فنعمَ الزادُ زادُ أبيكَ زَادا
وما كَعْبُ بن مَامةَ وابنُ سُعْدَى ... بأجودَ مِنْكَ ياعُمَرَ الجَوادا

فهذه صور ثلاث للملوك ثلاثة مختلفاتٌ باختلافهم شديداتُ الشَّبه بشخصياتهم بحَسَبِ مانقرأ فى كتب التاريخ .

ولعلَّه يكون من الدراسة الممتعة أن نَعْرِضَ لشعر المدح فى أمير بعينه فى فترة بعينها لنجعلَ ذلك طريقةً إلى فهم إمارته ومجتمعه . . . مثلا مدائح الشعراء ومابمجراها فى الحجَّاج وفى هارون والمأمون والمتوكِّل :

«بِالبِرِّ صُمْتَ وأنتَ أفضلُ صَائِمٍ   وبِسُنَّةِ اللهِ الرَّضِيَّةِ تُفْطِرُ»

وقد كان متعصبا لمذهب أهلِ السنَّة .

وفى المعتصم :

«بِسُنَّةِ السَّيْفِ والخَطِّىِّ من دَمِهِمْ لاسُنَّةَ الدِّينِ والإسْلامِ مُخْتَضِبِ»

وكان عصره يميل إلى الاعتزال .

وأن نَعرِضَ لمدائح كلِّ شاعر لنعرفَ مدى قدرته على الخلق والإبداع بعرض الصور المختلفات كما هى مختلفات . .

هذا ، وقد كان أبو الطيِّب فنَّانا ملهما خارقَ القدرة البيانيَّةِ . وقد أجمع النقاد أنَّه هو وأبو تمَّام والبحترىُّ أشعرُ المُحْدَثِين . . . وهو أشعر الثلاثة بلا أدنى رَيْبٍ لأنَّ صاحبيه قد لحقهما غبار التاريخ فصارت أشباحهما على عِظمها تهمُّ بالاختفاء وأن يغمرهما النسيان . . . وهو لازال شَبَحُه باهرا مضيئا جِدّاً . وقد نبغ واللغة مرَّت عليها منذُ عهد امرىء القيس قرون ستة وشهدت أمثال جرير والفرزدق والنابغة وأبى نواس . . . وكان فى دهرها الأوَّل قائلها قد قال :

«هَلْ غَادَرَ الشُّعَرَاءُ مِنْ مُتَرَدَّمِ»

ومع هذا قد وجد أبو الطيِّب المُتَرَدَّمَ بعد المُتَرَدَّمِ وفرض عبقريَّته فرضا على اللغة العربية بما أضاف إليها من ثروة طائلة فى محض أساليبِ البيان ممَّا لاتزال حيويَّتهُ تنبض إلى اليوم . . وقد قال :

«مَانَالَ أهلُ الجَاهِلِيَّةِ كلُّهم   شِعْرى وماسَمِعَت بِسِحْرِىَ بَابِلُ»

وإذا أتتْكَ مذمّتي من ناقصٍ فهي الشهادةُ لي بأنّي كاملُ»

ولعلّه صدق في بعض هذا .

وبينه وبين امرىء القيس متشابهُ ، من حيث الشعور بوحشة الانفراد وتجشّم الأسفار وبعد المطلب ، وحسرات الإخفاق ، وشدّة التصميم . . . وكان فؤاده من الملوك كما قال :

«وفُؤادِي مِنَ المُلوكِ وإن كا ن لِساني يُرَى من الشُّعَراءِ»

ثم بينهما فرق عظيم وهو أنّ أبا الطيّب طالب الملك حُبّاً فيه ولم ينشأ — كما نعلم — إلاّ سُوقةً يتيما أو كيتيم ، وامرؤ القيس فُرِضَ عليه الملكُ وطلبُ الثأر بحكم الشرف القبليّ العربيّ ، ومازال دهْرَه يجهدُ لو يجد سبيلا إلى أن يكون سُوقَةً بلا مسئوليات فلا يستطيع :

«بَكَى صاحِبِي لمّا رأى الدّربَ دُونَه وأيقَنَ أنّا لاَحِقَانِ بِقَيْصَرا
فقلتُ له لا تبْكِ عينك إنّما نحاولُ مُلكا أو نموتَ فنُعْذَرا»

وقد رَاضَ امرؤ القيس لُغةً وحشيّة فأسلست وصفت له كلّ صفاء وأصابَ أبو الطيّب غديرا منها راكدا فأثاره وأجْرى فيه التيار . .

وقد حمل امرؤ القيس معه صحراء العرب : — (١)

تَطاوَلَ الليلُ عَلَيْنا دَمُّون
دمُّون إنّا معشر يمانُون
وإنّنا لقومِنا مُحِبُّون —

. . إلى قسطنطينيّة ومات عند عَسِيب وهو ينظر إلى الآل يخفق من دون حَوْرانَ .

وقد حمل أبو الطيّب مُلتقاها بالسواد .. وقيل دون أن يبلغ حَظّه من(٢) الري

وكان زهير شيخا حكيما . . . قد سئم تكاليف الحياة .

لن يفتأ هؤلاء الثلاثة يُذكَرُون مادامت العربيّةُ . وعسى أن يذكر معهم جرير لقوّة انفعاله وحرارة وُجْدانه :

« تَمُرُّون الدِّيَارَ ولم تَعُوجُوا كَلامُكُمُ عَلَيَّ إذَنْ حَرَامُ »
«أتذكرُ إذ تُودِّعُنَا سُلَيْمَى بِفَرْعِ بَشَامَةٍ سُقِيَ البَشَامُ »

وما فتنة العرب بأبى الطيِّب ألف عام إلاّ لما علموا من أمر نبوغه وما أحسُّوا من سحر إبداعه . قال الذهبى « ليس فى العالم أحدٌ أشعرُ منه وأمّا مثله فقليل » وقال ابن رشيق « ملأ الدنيا وشغل الناس » وقال الثعالبى « وسافر كلامه فى البدو والحضر وكادت الليالى تنشده والأيام تردده » . . وهذا من قوله :

«وما الدَّهْرُ إلاَّ من رُوَاةِ قَصَائِدِى إذا قلتُ شعراً أصبحَ الدَّهْرُ مُنْشِدَا»

وقد حام شكسبير حول هذا المعنى فى عدد من كلماته فلم يجىء به محكما كما ههنا والله أعلم .

وقد كان معاصرو أبى الطيِّب أولَ من فُتِنَ به وقد رام مماثلَتَه بمحاكاته أو الأخذِ منه جماعةُ كأبى فراس والسَّرِى فعجزوا ثم انتقلت الفتنة به إلى الجيل الّذى تلاهم فرام مثل ذلك منهم جماعة فعجزوا كالشريف الرضى وأبى العلاء المعرىّ ثم لم يزل يُفْتَتَنُ به ويروم مثل شأنه أو التفوق عليه جماعة فى كل عصر وجيل إلى زماننا هذا ولعلّ أحمدَ شوقىٍ من أظهر مايتمثل به فى هذا الباب . . . وقد عجز رحمه الله على ماأوتيه من قدرة . ولقد أوتى الشريف جزالة ورونقا ونُبْلَ أداء وشَرَفَ معان مع عزّة النفسِ وعِتْقِ الأرُومة . . ومع ذلك لم يصنع رحمه الله من لَحَاقِ غبار أبى الطيِّب كبيرَ شىء . وقد أوتى أبو العلاء فطنة وعلما وملكة وحذقا وكان لنفسه ناقدا وبالشعر خبيرا وبفضيلة أبى الطيِّب وَسَبْقِه عارفا إلاّ أنّه مع ذلك قد ابتلى فجاراه وباراه واستعان بالذكاء فأطال أبواب التأمُّل وشقَّق المعانى وكانت فيه حلاوةٌ فكاهة وبداهةُ سخريةٍ وله مقدرةٌ من جزالة وتصنيعٍ فأحسن وأبدع ماشاء ولكنّه

بعدُ ماعدا أنَّه ألَمَّ به غبار الّذي يريد لَحاقَه فشَمِلَه فَخُيِّل لبعض النقاد ، (٣) ولاسيَّما المستشرقون ؛ أنَّه رصيفه أو يزيد عليه .

واعمرى إنَّ أبا العلاء قد يصفو غاية الصفاء ويجود أحسن الجودة كما فى عدد من قصائد سقط الزند وأبيات من اللزوميَّات ولكنَّه تنقصه حَيَويَّةُ أبى الطيِّب حتى نحو قوله :

«خَفِّفِ الوطءَ ماأظنُّ أديم الأر ضِ إلاَّ مِن هذه الأجْسَاد »

وهو أمير شعره ، فيه أناة وتصنيع إذا قسته إلى قول أبى الطيِّب :

«يُدَفِّنُ بعضُنا بعضاً ويمشى أواخِرُنا عَلَى هَامِ الأوَالى »

والصفاء والموسيقا والتجويد والإحكام، كلٌّ ذلك لايرتفع بقدر الشعر كما ترتفع الحيويَّة ومن أجل الحيويَّة كان لبيدُ دون أمرىء القيس وطَرَفَةَ وزهير بإجماع مع الذى أوتِيَه من إحكام الصِّنعة وشدَّة الأسر .
ولأبى تمَّام حكم رائعات أخَّاذات مثلُ قوله :

«وَكَيْفَ يجَورُ عن قَصْدٍ لِسَانى وقَلْبى رائحٌ بِرِضَاك غادِ
وَمِمَّا كانتِ الحكماءُ قالَتْ لِسانُ الْمَرءِمن خَدَمِ الفؤادِ»

وههنا حيويَّة من فنٍّ . .

ولكن ليست ههنا حيويَّةُ الشاعريَّةِ الدَّفُوقُ الَّتى تخترق حُجُبَ الأجيال مثل قول امرىء القيس .

«ألا أيُّها الليلُ الطويلُ ألا انْجَلِ بصُبْحٍ وما الإصباحُ مِنْكَ بأمثل»

وقول زهير :

«ومهما تَكُنْ عندَ امرىءٍمن خَلِيقَةٍ وإنْ خالهَا تَخْفَى عَلَى الناسِ تُعْلَمِ»

وقول جرير :

«بَنفْسى مَنْ تَجَنُّبُه عَزيزٌ علىَّ ومَنْ زِيَارَتُه لِمَامُ»

وقول أبى الطيب :

«وشبه الشىء منجذب إليه وأشبهنا بدنيانا الطغام»

ومرادنا بالحيوية عنصر الشعر المنبىء فيه عن صدق التجربة وعمق الانفعال معا .

وبين حيوية الشاعرية وحيوية الفن فرق هو أن الأولى متصلة بالكلام اتصالا مباشرا بحيث التجربة والانفعال طرف من مصدرها دال عليه مشعر بوجـود شخصه، كدلالة صوت الطائر الصدوح على الطائر نفسه مثلا . . وهو المثل الذى مثله أبو الطيب (أنا الصائح المحكى)

والثانية فيها نوع من الانفصام بين التجربة والانفعال والفنان الذى هو مصدرهما . . . كأن الفنان صانع يعالج عمل شىء مصنوع فمهما يأت به ذا حيوية أو حيا فإنه لابد بعد أن يكون منفصلا عنه بائنا لامحالة، على ما بينهما من صلة الصانع والمصنوع .

هذا ومن براعة أبى الطيب أنه قد استطاع أن يعالج فى حيز قصيدة المدح — ثم فى غيرها من أصناف شعره — شتى المشاكل الإنسانية ويعرض لتحليل دقيقات العواطف مثلا . .

«أقل سلامى حب ماخف عنكم وأسكت كيما لا يكون جواب»

وقوله :

«واحتمال الأذى ورؤية جانيـ ـه غذاء تضوى به الأجسام»

ويصور ألوان العباد والبلاد ولايغفل فى جميع ذلك عن نعت الطبيعة —

« لولاك لم أترك البحيرة وال‍ غور دفىء وماؤها شبم »

ولفتات المرح . . كقوله فى لحى معزى الجبال :

لو سرحت فى عارضى محتال لعدهـا مـن شبكات المـال

بين قضاة السوء والأطفـال

وتجويد الغرام . . . كقوله :

« وما كنتُ ممّن يدخلُ العشقُ قلبَه
ولكنّ مَنْ يبصرْ جفونكِ يعشقِ »

وكقوله . . . وفيه لهو :

مرّت بنا بين سربيها فقلتُ لها من أين جانسَ هذا الشادنُ العربا

وقد أخذ شعره من التجربة أخذا قويّاً مباشرا .... كأخذ امرىء(٤) القيس حين يقول « كحقفِ النقا يمشي الوليدانِ فوقَه » « دريرٍ كخذروفِ الوليدِ » « كلمعِ اليدينِ » «مشى الهيدبى في دفّه» «تذكّرتُ أهلي الصالحين» «نظرتَ فلم تنظرْ بعينيكَ منظرا»....وكما أخذ زهير « وكائنْ ترى منْ صامتٍ لكَ معْجبٍ» . . وأمثال هـذا في المجالس كثير . وكأنّ زهيرا يُعرّضُ بقوم حضروا مجالس الصلح بين عبس وذبيان صامتين صورا ثم إذا نطق منهم ناطق لم يكن إلاّ فدما .. «صورة اللحم والدم» التي هي مثلا خروف .

تأمّل قوله في عضُدِ الدولة :

أبا شُجاعٍ بفارسٍ عضُدَ الـدّولة فناخسرو وشهنشاها
أساميا لم تزِدْه معرفةً وإنّما لذّةً ذكرناها
تقودُ مستحسنَ الكلامِ لنا كما تقودُ السحابَ عُظماها

ههنا نظرة وتأمّلة للسحاب . .

وقال في الحسين التنوخي :

بيني وبينَ أبي عليٍّ مثْلُه شُمُّ الجبالِ ومثلُهنّ رجاءُ
وعقابُ لبنان وكيفَ بقطعها وهوَ الشّتاء وصيفُهنّ شتاءُ
لبسَ الثّلوجَ بها عليّ مسالكي فكأنّها ببياضها سوداءُ

ولشوقي في لبنان قصائد وليس في واحدة منها صفة لبنان كما ههنا .
وقد قال البحتري :

تلفّتَ من عُلْيا دمشقَ ودونَنا للُبْنانَ هُضْبٌ كالغمامِ المُعلّقِ

وهذا جيِّد . . ولكنَّه صفة تَعُمُّ وليس فيها من ذاتيَّةٍ لبنان كما في كلام أبي الطيِّب —

لاحظ صورة شُمِّ الجبال مشرفات ، كأبي عليٍّ ، كالأشخاص . . عليهِنَّ العمائم . . تشبيه سُمُوِّهِنَّ وانبثاقهِنَّ إلى السماء بالرجاء . . عِقَاب لبنان . . . بردها في الصيف حيث ينهمر البرد في أيار —

وقال في سيف الدولة :

وتُضْحي الحُصُونُ المُشْمَخِرَّاتُ في الذُّرَى
وخَيْلُكَ في أعْنَاقِهِنَّ قَلائِدُ

وهذه صورة حَيَّة للقلاع على الروابي ، وحركةِ الخيل بين الصخور ، وامرئٍ ينظر إلى كلِّ ذلك بعين وفؤاد .

وقد كان أبو الطيِّب عالما . . أجمعوا على أنَّه كان من نَقَلَةَ اللغة وفي شعره شواهد ذلك . . وكان كثير القراءة ولكنَّ قراءته كلَّها تضمَّنها فؤاده ثم خلصت إلى نظمه وهي تأمُّلات عميقات نافذات موجزات باقيات . . هذا هو الذي حيَّر أبا العلاء فأعجزه فقال « معجز أحمد » وقال « الشاعر » يعني بذلك المتنبي لاسواه .

وقد تَعَلَّمَ أبو الطيِّب دبلوماسيَّة المعاملات وسياسة الناس بعد أن اكتملت كهولته وتمَّ نضجه ، من ذلك ريثه في جواب سيف الدولة لمَّا استدعاه ، وحسن صحبته لعَضُدِ الدولة وتلطُّفه في الاستئذان للخروج من عند حضرته .

ولكنَّ أعداءه ما تعلَّموا أن يكبروا قدره ويغفروا له عبقريَّته فقتلوه وهو في طريق مآبه إلى الكوفة بعد رحلته المُنْجِحَةِ إلى شيراز .

فلم يستفدِ ممَّا تعلَّم — رحمه الله — على الكهولة من دبلوماسيَّة المعاملات وسياسة الناس كبير فائدة كما ترى .

ولعلّه كان ينوى العودة إلى حلب ، ولعلّه إن وصل حلب ربّما أنْجَحَ في هذا العود كما لم يُنْجِح فى البدء. أم لعلّه كان يملُّها ثمّ يركب البحر إلى الأندلس . وكان شعره قد انعرج انعراجة عجبا فى اتجاه جديد إذ كان بفارس ... كان منطلقايعود إلى الذكريات كعودات امرىء القيس إلى(٥) عهد طفولته فى أمثال قوله :

« يزِلُّ الغلامُ الخِفُّ عن صهواته ويَلْوِى بِأثْوابِ العَنِيفِ المثقَّلِ »

وقولـــه :

لمن زُحْلُوفَةٌ زُلُّ   لها العينان تَنْهَــلُّ
ينادى الآخر الأُلُّ   ألا حُلّوا ألا حُلّوا

هذا والحديث عن أبى الطيِّب ذو شجون .

وإلى القارىء الكريم بعدُ خواطر وإنّما هى من باب التأويل والاقتراح فآمل أن يجد ذلك لديه بعض القبول — والله المستعان وبه التوفيق وله الحمد أوّلا وأخيرا وصلّى الله على سيّدنا محمّد وآله وصحبه وسلّم تسليما .

المؤلــف
عبد الله الطيِّـب

(١)

في شعر أبي الطيّب شواهد تدلّ على أنه هُمّ باغتياله أو أخذ عليه الطريق أو أُريدت إليه الغوائل وما بمجراها غير مرّة كقوله : (١)

« يَحْمى ابنُ كيغلغ . . . البيت »

فقد ذكروا أنّه اعتل عن مدح ابن كيغلغ لمّا سأله المديح وذلك قول أبي الطيّب «أرسلْتَ تَسْألُني المَديحَ سَفاهةً». بحلف ألا يمدح أحداً إلى مدّة عيّنها٢ فأخذ هذا عليه الطريق حتّى تنتهي تلك المدة فاحتال أبو الطيّب وهرب من وجهه.

وكقوله يذكر أسْدَ الفراديس :

« أَجارُكِ يا أُسْدَ الفَرَادِيسِ مُكْرَمُ
فَيَسْكُنَ قَلْبِي أَمْ مُهَانٌ فمُسْلَمُ .
ورائي وقُدّامي عُداةٌ كثيرةٌ
أُحَاذِرُ من لصٍّ ومِنْكِ وَمِنْهُمُ
فَهَلْ لكِ في حِلْفِي عَلَى ما أُريده
فإنّي بأسْبابِ المَعِيشَةِ أَعْلَمُ
إذاً لأتاكِ الخيرُ من كلِّ وُجْهَةٍ
وأَثْرَيْتِ مِمّا تَغْنَمِينَ وأَغْنَمُ »

ولا يخفى ما في هذه الأبيات من الشعور العميق بالوحشة مع الطموح المفرط .

وكقوله :

« أَتانِي وَعِيدُ الأدْعِياءِ وأنّهم
أعدّوا ليَ السُّودانَ في كَفْرِ عاقِبِ
ولو صَدَقُوا في جَدِّهم لحَذِرْتُهم
فَهَلْ فيّ وَحْدِي قَوْلُهم غَيْرُ كاذِبِ»

وأحسبه مع هذا قد حذرهم إذ قد كان مجبولا على ذلك . وكقوله :

« وَمُنْتَسِبٍ عِنْدِي إلى من أحبّه
وللنَّبْلِ حَوْلِي من يَدَيْهِ حَفِيفُ

فهيّجَ من شَوْقِي وَمَا مِنْ مَذَلَّةٍ حَنَنْتُ وَلكِنّ الكَرِيمَ أَلُـوفُ
وَكُلُّ وِدَادٍ لايدومُ عَلى الأذَى دَوَامَ وَدادِى للحُسَيْنِ ضَعِيفُ
فإن يَكُنِ الفِعْلُ الّذى ساءَ واحداً فأفعالُه اللّائِــى سَرَرْنَ أُلـوفُ
وَنَفسِي لهُ نَفْسِي الفِدَاءُ لِنَفْسِهِ وَلَكِنّ بَعْضَ المالِكِينَ عَنِيفُ
فإنْ كانَ يَبْغِى قَتْلَها يكُ قَاتِلاً بِكَفَّيهِ فالقَتلُ الشَّرِيفُ شَرِيفُ»

وقيل إنّ أبا العشائر غضب عليه لأمر فأرسل غلمانا له ليقتلوه بظاهر حلب فرماه أحدهم وقال : خذها وأنا غلام أبى العشائر .

وقيل إنّما حدث هذا أمام باب دار سيف الدولة عشيّة يوم إنشاده :

«وَاحرَّ قَلْبَاهُ مِمَّنْ قَلْبُه شَبِمُ وَمَنْ بِجِسْمِي وَحَالى عِنْدَه سَقَمُ»

وخبر هذه الأبيات يُوقَف عنده .

فربّما كانا خبرين رُويا كأنّهما خبر واحد بروايتين، أحدهما أنّ أبا العشائر هم بأبى الطيّب لأسباب خاصّة بينهما والآخر أنّ سيف الدولة أو غيره همّ بأبى الطيّب عشيّة يوم إنشاده الميميّة .

ولاريب أنّ أبا الطيّب شمّ ريح الموت من تلقاء سيف الدولة ومجلسه(٣) يوم أن أنشدها — قالوا رماه سيف الدولة بدواة ولو قد تخطفته السيوف حينئذ لجاز عنده . قالوا ورقّ له لمّا أنشد :

«إنْ كانَ سرّكُمُ ماقَالَ حَاسِدُنا فَمَا لِجُرْحٍ إذا أرضاكمو ألمُ»

وكُشِفت الصحيفةُ ولم يوجد بها هذا البيت .

ومما يقوّى حَدْسَنَا أنّ أبا الطيّب قارب الموت فى ذلك المجلس، (٤) ما رَوَوه من سعاية أبى الفرج السامرى فى دمه وترخيص سيف الدولة له فى ذلك ثمّ ما اضطر إليه أبو الطيّب آخر الأمر من الاعتذار بالبائيّة :

«ألاَ مالِسَيف الدولة اليومَ عَاتِبا فَدَاه الوَرَى أمْضَى السُّيوف مَضَارِبا
أَهذاجَزَاءُ الصِّدْقِ إنْ كُنتُ صَادِقاً أَهذاجزاءُ الكَذْبِ إنْ كُنتُ كَاذِبا
وإنْ كان ذَنْبِي كلّ ذَنْبٍ فإنّه مَحَا الذّنْبَ كُلَّ المَحْوِ مَنْ جاءَ تَائِبا»

والأبيات الفائيّة أرجّح أن يقال إنّها متعلقة بخبر الميميّة إذ كأنّ أبا الطيّب ينفي فيها أن يكون أبو العشائر هو الّذى رام قتله وذلك قوله :

«وَمُنْتَسِبٍ عِنْدِى إلى من أُحِبُّه   وللنَّبْلِ حَوْلى من يَدَيْه حَفِيفُ»

والله تعالى أعلم .

وفي البائيّة الّتي أنشدها أبو الطيّب كافورا قوله : (٥)

« وَكَمْ لِظَلامِ الليلِ عندك من يدٍ   تخبر أنّ المَانَوِيّة تَكْذِبُ
وَقَاكَ رَدَى الأعداءِ تَسْرِى إليهِمُ   وزارك فيه ذو الدّلالِ المُحَجَّبُ »

والأعداء هنا سيف الدولة وبطانته بلاريب . بدليل قوله في الكلمة نفسها :

«ويومٍ كَلَيْلِ العاشقينَ كَمَنْتُه   أُرَاقِبُ فيه الشَّمْسَ أيَّانَ تَغْرُبُ».

وبعد هذا، الأبيات الرائعة في وصف الخيل، الشديدة النظر الى امرىء القيس في رائيّته : (٦)

«إذا زُعْتُه من جانبيه كِلَيْهِما   مَشَى الهَيْدَبَى في دَفِّه ثمّ فَرْفَرَا»

وامرؤ القيس ههنا يمدح حصانا غير عربيٍّ، ونظر إلى ذلك أبو الطيّب من طرف خفيٍّ حيث قال :

«وَمَا الخَيْلُ إلاّ كالصَّدِيقِ قَلِيلَةٌ   وإنْ كَثُرَتَ في عَيْنِ مَنْ لايُجَرِّبُ
إذا لم تُشَاهد غَيرَ حُسْنِ شِيَاتِها   وأعْضائها فالحُسْنُ عَنْكَ مُغَيَّبُ»

ونسأل بعدُ من ذو الدلال المحجب ــ وإنْ يك يجوز حمل الكلام على العموم؛ أى الليل يقيك الأعداء ويزورك فيه الأحبّاء . ويجوز أنّه الحبيب الّذى زار بمصر وهو غير الّتى قال فيها : (٧)

«وزائِرتى كأنّ بِهَا حَيَاءً   فليس تَزورُ إلاّ فى الظلامِ»

إلاّ أن نَتنَسّم أبى الطيّب عنصر الصدق أبداً أغلب عليه والسياق يدلّ على أنّ الزيارة كانت بعد غروب شمس اليوم الّذى كمن فيه، وقوله في الميميّة :

«وَلَو كَانَ مابِي مِنْ حَبِيبٍ مُقَنَّعٍ عَذَرْتُ وَلَكِنْ مِنْ حَبِيبٍ مُعَمَّمِ
رَمَى وَاتَّقَى رَمْيِي وَمِنْ دُونِ مَا رَمَى
هَوَىً كَاسِرٌ قَوْسِي وَكَفِّيْ وأسْهُمي»
يقوّى هذا ويكون المعمّم سيف الدولة أو أبا العشائر والمقنّع مجهولا كما ينبغى.
وزَعْمُ زاعمٍ أنّه خولة أخت سيف الدولة باطل إذ مدح المتنبى لها بأنها بررة ماجدة من ذوات البأس والإنعام لايحتمل كبير تأويل .
«كَأَنَّ فَعْلَةَ لَمْ تَمْلأْ مَوَاكِبُها دِيَارَ بَكْرٍ وَلَمْ تَخْلَعْ وَلَمْ تَهِبِ»
وهذا ليس فيه نَفَسٌ من غرام ولاينبغى له . (٨)
والانصراف بالكليّة عنها فى أخريات القصيدة إلى خالص الحكمة والتأمّل يقوّى هذا ، وذلك قوله :
«تَخَالَفَ النَّاسُ حَتَّى لا اتِّفَاقَ لَهُمْ
إلاَّ عَلَى شَجَبٍ والخُلْفُ في الشَّجَبِ»
ولعلّ الحبيب المقنّع هو المذكور فى اللاميّة حيث قال أبو الطيّب :
«لِقيتُ بِدَرْبِ القُلَّةِ الفَجْرَ لَقْيةً شَفَتْ كَمَدى والليلُ فيه قَتيلُ»(٩)
وأجمع النقاد على أنّ هذا من محاسن أبى الطيّب وآخر القصيدة بلاريب قوله
«يَهُونُ عَلَيْنا أنْ تُصَابَ جُسُومُنا وَتَسْلَمَ أعْرَاضٌ لَنَا وَعُقُولُ»(١٠)
وما بعد ذلك إضافات أُرِيدَ بها إعجاب سيف الدولة أو ترضيته أو شىء من هذا الضرب. وقد فطن إلى فساد آخر هذه القصيدة الصاحب كما ذكر صاحب اليتيمة . وسائر القصيدة يغمره المرح والنشوة التى أصابَ الشاعرُ عند درب القُلَّة والله تعالى أعلم .
وفى النونيّة «بِمَ التَّعَلُّلُ» التى نظمها أبو الطيّب عند كافور ولعلّه(١١) لم ينشدها إيّاه مرارةٌ ولوم لاذع لسيف الدولة وذلك قوله :
«رَأَيتُكُمْ لايَصُونُ العِرْضَ جارُكُمُ وَلايَدِرُّ عَلى مَرْعَاكُمُ اللَّبَنُ
جَزَاءُ كلِّ قريبٍ مِنْكُمُ مَلَلٌ وَحَظُّ كلِّ مُحِبٍّ مِنْكُمُ ضِغِنُ»
وإنْ صحّ ماذكروه من أنّ ابن خالوية شجّه بمفتاح فى مجلس سيف الدولة فهو ونحوه مما يبرر هذه المرارة .

وإنْ صحَّ قول ابن رشيق أنَّ الهجاء بالتلميح أوجع من الهجاء بالتصريح فلاريب أنَّ هذا أوجع من كلِّ ماهجا به أبو الطيِّب كافورا . وشعر أبى الطيِّب فى كافور سمح جزل منطلق يدلُّ على حبٍّ كان له منه وإعجاب به — ويدلُّك على إعجاب أبى الطيِّب بكافور قوله :

« فَوَافَتْ بِنَا إنسانَ عَيْنِ زَمَانِهِ وَخَلَّتْ بَيَاضًا خَلْفَهَا وَمَآقِيَا »

وقوله :

« يُدَبِّرُ الأمْرَ مِنْ مِصْرٍ إلى عَدَنٍ إلى العِرَاقِ فأرْضِ الرُّومِ فالنُّوبِ
إذا أتَتْها الرِّيَاحُ النُّكْبُ مِنْ بَلَدٍ فَمَا تَهُبُّ بِهَا إلاَّ بِتَرْتِيبِ »(١٢)

وقوله :

« وَيُغْنِيكَ عَمَّا يَنْسِبُ النَّاسُ أنَّه إلَيْكَ تَنَاهَى المَكْرُمَاتُ وَتُنْسَبُ »

والعقدة النَّسَبِيَّة كانت عند المتنبى لبداوته لا عند كافور . ولاشىء أكثر (١٣) انطلاقا وإسماحا من قول أبى الطيِّب :

« إذَا سَارَتِ الأَحْدَاجُ فَوق نَبَاتِهِ تَفَاوَحَ مِسْكُ الغَانِيَاتِ وَرَنْدُهُ »

وقوله :

« وكُلُّ امرِىءٍ يُولِى الجَمِيلَ مُحَبَّبُ وكلُّ مَكَانٍ يُنْبِتُ العِزَّ طَيِّبُ
أبا المِسْكِ هَلْ فى الكَأسِ فضلٌ أنَالُه فإنِّى أغَنِّى مُنْذُ حِينٍ وَتَشْرَبُ »

وفى هذا العتاب نَفَسُ النكتة المصريَّة وأريحيَّتها كما لايخفى . ولا أكاد أشكُّ أنَّ أبا الطيِّب رضى مصر وأحبَّها وما كان يسعه غير هذا ثمَّ إنَّ نفسه البدويَّة نفرت عمَّا لذَّها بمصر من النعمة وهذا قوله :

« ذَرِيْنِى وَالفَلاَةَ بِلا دَلِيلٍ وَوَجْهِى والهَجِيرَ بِلا لِثَامِ
فإنِّى أسْتَرِيحُ بِذِى وَهَذا وأتْعَبُ بالإنَاخَةِ والمُقَامِ »

ثم يقول :

« يَقُولُ لِىَ الطبيبُ أكلتَ شيئاً وَدَاؤُكَ فى شَرابِكَ والطَّعَامِ
وما فى طِبِّه أنِّى جَوَادٌ أَضَرَّ بِجِسْمِه طُولُ الجِمَامِ »

فعلى طول الجمام والخفض والنعمة ثار. ومن أولئك نفر.. وقد زعم أبو العلاء عن نفسه إنّه كان « إنسيّ المولد وَحشيّ الغريزة » وقد كان رحمه الله إنسيّ المولد إنسيّ الغريزة وكان صاحبه أبو الطيّب وحشيّها وَحشيّ المولد.

ومما يدلّك على إخلاص أبي الطيّب مديحَ كافور ضعف اللاميّة الّتى مدح بها فاتكا :

« لاَخَيْل عِنْدَكَ تُهْدِيهَا وَلاَمَالُ »

إذ ليس فيها نَفَسُ أبي الطيّب وروحه الّذى نعلم وانّما هى صوغ محكم. وكأن أبا الطيّب رأى قبيحا به ألاّ يجزىَ فاتكا على إحسانه إليه فاستأذن فى ذلك كافورا كما ذكروا، فأذن له:

«فربّما جَزَتِ الإحسانَ مُوليَــه خَرَيدةٌ مِنْ عَذَارَى الحيّ مكسالُ»

وترك الجزاء قبيح، وترك القبيح مجاملة. أو كما قال رحمه الله:

«إنّا لَفِي زَمِنٍ تَرْكُ القَبيحِ بِه مِن أكثرِ النّاسِ إحسانٌ وإجمالُ»

وكذلك المرثيّة الّتى رثاه بها، وأبلغُ مافيها صفة الهرمين، والميميّة الّتى أوّلها :

« حَتّامَ نحَنُ نُسَارِى النّجْمَ فِى الظلَمِ » (١٤)

إنّما جاء فيها اسم فاتك اتفاقا أو قل كأنْ رَمَزَ به المتنبى لنفسه، وهى من قرِيّ : (١٥)

« مَلُومكُمَا يَجِلُّ عَنِ المَلاَمِ »

تبرير للبداوة والانطلاق

وإنّما كان هجاء أبى الطيّب كافورا ضربا من الغضب على نفســه والتبرير لطبعه. ولايخفى أنّ أجود مافى الداليّة :

« عيدٌ بِأيّةِ حَالٍ عُدْتَ ياعِيدُ »

الغناء الّذى فى أوّلهــا. وقد كان كافور قديرا على ردّه من أقصى حدود مصر لو قد أراد.

وأجود ما فى المقصورة « ألاَ كُل مَاشِيَةِ الخَيْزَلَى » نعتُ الطريق

والسّباب الّذي سبّه كافورا ليس ببالغ جودة جيّده بحال، وذلك منبيءٌ بأنْ لم يندفع عن سِنْخٍ شاعري حقّاً كالشكوى الّتي في البائيّة مثلا .

وقد وجد أبو الطيّب عند عَضُد الدولة من النعمة قريبا ممّا وجد عند كافور، وأعفى طبعه كما قال، فنظم بلاتكلّف ولم يتشكّ ولم يتعتّبْ عند عضد الدولة لالّذي صَحّ عنده أنّه بعد أنْ طبّق صيته الآفاق قد جاوز مرتبة أن يطلب ولاية أو ضيعة .

وقد نبّه الدكتور طه في كتابه مع المتنبي إلى صفة نادرة من الانطلاق المحض واليسر المنفسح والخيال الجموح أفادها شعر أبي الطيّب بفارس، ومثّل لها بكلمته في مشطور الرجز « مَاأجْدَرَ الأيّامَ والليالي » وقد يضاف ههنا أنّ ماكان في شعر أبي الطيّب من عنصر الشّكْوِ المرّ قد آض بعد أن دخلته هذه الصفة روحا من الحزن خفيّ المدخل كالّذي في كلمته :

« يَقُولُ بِشِعْبِ بوّانٍ حِصَاني أعَنْ هذا يُسَارُ إلى الطِّعَانِ
أبوكُمْ آدمُ سَنَّ المَعَاصِي وعَلّمَكمْ مُفَارَقةَ الجِنَانِ »

فهذا فيه من التعلّق بالحياة والأسى على فواتها شبيه بما في قوله :

«حتّامَ نحنُ نُسَارِي النّجْمَ في الظُلَمِ »

وقوله :

«وَمُرَادُ النُّفُوسِ أَصْغَرُ مِنْ أنْ نَتَعادَى فيه وَأنْ نَتَفانَى»

وقوله :

« لَيْتَ الحَوَادِثَ باعَتْنِي الّذي أخَذَتْ
مِنّي بِحِلْمِي الّذي أعْطَتْ وَتَجْرِيبِي »

وفيه أيضا استسلام للمأساة إذ مفارقة الجنان كتاب كان على ابن آدمَ لايستطيع عنه مصرفا . والحقّ صفة الانطلاق المحض هذه مع اليسر وفيض خيال أفادها المتنبي قبل فارس بمصر ، وشعب بوّان على روعته لايخلو من أن يكون كنّى به عنها وقد لاحقه منها خيال إلى النوبندجان ، إلى دمشق(١٦)

.. لَيبيق الثر د صيني الجفان

بِالمنجوجي مارفعت لضيف

به النيران ندى الدخان »

«قلائد كافور وعقيانه الذى	بصم القنا لا بالأصابع نقده (١٧)
نجر القنا الخطى حول قبابه	وتردى بنا قب الرباط وجرده
وتمتحن النشاب فى كل وابل	دوى القسى الفارسية رعده
وأتعب خلق الله من زاد همه	وقصر عما تشتهى النفس وجده
يرى جسمه يكسى شفوفا تربه	فيختار أن يكسى دروعاً تهده»

وهذا كقوله :

« وعلمكم مفارقة الجنان » (١٨)

وليس كقوله آنفا عند سيف الدولة :

« ومن وجد الإحسان قيداً تقيدا »

لأنه كما ترى يروم ههنا قيد الإحسان فلايستطيع إليه سبيلا

قال الثعالبى فى اليتيمة « لما أنجحت سفرته وربحت تجارته بحضرة عضد الدولة ووصل إليه أكثر من مائتى ألف درهم استأذنه فى المسير منها ليقضى حوائج فى نفسه ثم يعود إليها ، فأذن له ، وأمر بأن تخلع عليه الخلع الخاصة » إلى أن قال : « فلما فارق أعمال فارس حسب أن السلامة تستمر به كاستمرارها فى مملكة عضد الدولة ولم يقبل ماأشير به عليه من الاحتياط باستصحاب الخفراء فجرى ماهو مشهور من خروج سرية من الأعراب عليه ومحاربتهم إياه وتكشف الواقعة عن قتله وابنه محسد ونفر من غلمانه وفاز الأعراب بأمواله وذلك فى سنة أربع وخمسين وثلاثمائة . »

ونقف عند قول الثعالبى « فجرى ماهو مشهور . . . الخ » ومع شهرته لاندرى عمن تلقاه راووه . فمنهم قائل إن فاتكا الذى عرض لأبى الطيب فى جماعة من الأعراب، فعل ذلك غضبا من بائيته التى هجا بها ضبة ــ قال العكبرى « وقال يهجو ضبة بن يزيد العينى وصرح بتسميته فيها لأنه كان

لايفهم التعريض ، كان جاهلا . وهذه القصيدة من أردأ شعر المتنبى » ؛ وكأنّ العكبرى قد غفل أنّ من مذهب البـــداوة فى الإ فحـــاش بعض هذا ومايقاربه كالّذى كان يقع عند الفرزدق وجرير مثلا .

ومن قائل أنّ أبا الطيّب فرَّ وذكَّره غلامه قوله :

« الخيل والليل والبيداء تعرفني ... » (١٩)

فثبت وقُتِــــل أو قال للغلام قتلتنى أو شيئا من هذا المعنى . وإنْ صحَّ هذا الخبر فهو أشبه بما اعتاده أبو الطيّب من الاستعداد للخاربين والإفلات منهم ولعلّه نجا من هذا الّذى ذكروا أن اسمه فاتك ثم أصيب من بعد . فكلهم مجمعون أنّه قد قتل بَديْر العاقول . وهو بسواد بغداد ، ولايُعقل أنْ يكون اعتراض الأعراب لأبى الطيّب قريبا من بغداد . وأرجح من ذلك أن يكون الأعراب قد لَقَوْه بعيدا عنها . ولمّا أفلت بعد قتال ما ، أمن إلى النجاة وحَسِبَ أنّ السلامة تستمرُّ به من بعد على حدّ تعبير الثعالبى . ولكنّ الّذين أغرَوا به الأعراب ليقتلوه يبدو أنهم أيضا قد أوكلوا به آخرين يراقبون مقدمه عند دَيْرِ العاقول أو قل خارج بغداد غير جـــدّ بعيد منها . فلمّا رأوه قادما مطمئنا قد نجا رَمَوْه بسهم وانتهبوا ماله .

ولايستبعد أن يكون سيف الدولة قد كان وراء جميع ذلك التدبير . فقد ذكروا أنّه كان يغضبه أن يطول سكوت المتنبى عن مدحه. قال العكبرى فى تقديم الميميّة :

« وَاحَرَّ قَلْبَاهُ مِمَّنْ قَلْبُه شَبِمُ »

« وأنشدها فى محفــــل من العرب وكان سيف الـــدولة إذا تأخر مدحه شقّ عليه وأحضر من لاخير منه وتَقَدَّم إليه بالتعرّض له فى مجلسه بما لايحب وأكثر عليه مرّة بعد مرّة » أ . هـ . كلام العكبرى. فكيف إذا انصرف عنه بالكليّة ومدح سواه ـــ وقد رأينا كيف حَذِرَه أبو الطيّب وفرَّ منه فرارا لاهوادة فيه ، وذلك قوله :

« فلله سَيْرِى ما أقلَّ تئيَّـــة   عشيَّة شَرْقىَّ الحَدَالَى وغُرَّبُ (١)

---

(١) الحَدَالَى موضع بالشام وغُرَّبُ اسم جبل فيه .

«عَشِيَّةَ أَحْفَى النَّاسِ بِي مَنْ جَفَوْتُه وأَهْدَى الطَّرِيقَيْنِ الَّتِي أَتَجَنَّبُ»

وقد أهدى إليه وهو بالكوفة وشكره أبو الطيّب بلاميّته الّتي مطلعها :

« مَا لَنَا كُلُّنَا جَوٍ يارَسُولُ » (٢٠)

وهي على جودتها لايخفى مافي جملتها من تكرار المعاني والنغمات اللاء في السيفيّات من غير التوتّر والانفعال الّذي في السيفيّات — البعد الزماني والمكاني والنفسي عن سيف الدولة كلٌّ ذلك واضح الطابع فيها :

« وَمَعِي أَيْنَمَا سَلَكْتُ كَأَنِّي كُلُّ وَجْهٍ له بِوَجْهِي كَفِيلُ
فَرَسٌ سَابِقٌ ورُمْحٌ طَوِيلٌ ودِلاصٌ زَغْفٌ وَسيفٌ صَقِيلُ
وَسِوَى الرُّومِ خَلْفَ ظَهْرِكَ رُومٌ فعَلَى أيِّ جَانِبَيْكَ تَمِيلُ
مِنْ عَبِيدِي إنْ عِشْتُ لِي ألف كافو رٍ ولى مِنْ نَدَاكَ رِيفٌ وَنِيلُ »

وهيهات وإنّما هذا اعتذار وتنصُّلٌ وهو بعد القائل :

«قَوَاصِدُ كافورٍ تَوارِكُ غَيْرِه وَمَنْ قَصَدَ البَحْرَ اسْتَقَلَّ السَّوَاقِيا
فَجَاءَتْ بِنَا إنسانَ عينِ زَمَانِه وخلَّت بَيَاضاً خَلْفَهَا وَمَآقِيا»

والابيات الّتي في أوائل نسيب هذه اللاميّة ، وذلك قوله :

« مَا لَنَا كُلُّنَا جَوٍ يارَسُولُ أَنَا أَهْوَى وَقَلْبُكَ المَتْبُولُ
كُلَّمَا عَادَ من بَعَثْتُ إليْها غَارَ مِنِّي وَخَانَ فِيما يَقُولُ
أَفْسَدَتْ بَيْنَنَا المَوَدَّاتِ عَيْنَاهَا وَخَانَتْ قُلُوبَهُنَّ العُقُولُ
صَحِبَتْنِي عَلَى الفَلاةِ فَتَاةٌ عَادَةُ اللون عِنْدَهَا التَّبْدِيلُ (٢١)
مِثْلُها أنت لَوَّحَتْنِي وأَضْنَيْتَ وَزَادَتْ أَبْهَاكُمَا العُطْبُولُ »

تنظر إلى «لَيَالِيَّ بَعْدَ الظَّاعِنينَ شُكُولُ» وكأنّ المعاني الّتي يتغنى بها ههنا أصداء من المعاني الّتي تغنى بها هناك ولعلّ رسولها ههنا الشمس كما قال ثم :

« وَيَوْمٍ كَأَنَّ الحسنَ فيه عَلامَةٌ بَعَثْتُ بها والشَّمْسُ مِنْكِ رَسُولُ »٢٢

والشمس ههنا غَيْرَى لأنّ المحبوبة أبهى منها . وغير خاف أنّ روح المرح ههنا كأنّما هو أيضا صدى من روح المرح الّذي أشاعه لقاؤه المحبوبةَ

إذ لقيها بدرب القُلَّة . وهناك ومن بعض شواهده لمَّا أخذ في صفة الغزاة :

« رَمَى الدَّرْبَ بالجُرْدِ الجِيادِ إلى العدا
وَمَا عَلِمُوا أنَّ السِّهامَ خُيُولُ
شَوَائِلَ تَشْوَالَ العقاربِ بالقَنَا
لها مَرَحٌ مِنْ تحتِه وصَهِيلُ »

وقد نبَّه الدكتور طه إلى بعض هذا في حديثه عن هذه القصيدة الرائعة في كتابه مع المتنبي .

هذا ، قالوا وكتب إليه سيف الدولة من بعدُ يستدعيه فكان جواب أبي الطيِّب أن قال :

« فَهِمْتُ الكِتابَ أبرَّ الكتبْ
فَسَمْعاً لأمرِ أميرِ العربْ »

ولم يسمع شيئا .

« وَمَالاقَنِي بَلَدٌ بَعْدَكُمْ وَلا اعتضْتُ مِنْ رَبِّ نُعْمَايَ رَبْ
وَمَنْ رَكِبَ الثَّورَ بَعْدَ الجوا دِ أنكرَ أظلافَهُ والغَبَبْ
وما قِسْتُ كلَّ ملوكِ البلادِ فَدَعْ ذكرَ بعضٍ بِمَنْ في حلبْ »

ولكنَّه ذهب بَعدُ يقيس ولقِيَ عَضُدَ الدولة وقال فيه :

« وَقَدْ لقيتُ الملوكَ قاطِبَةً وَسِرْتُ حَتَّى لَقِيتُ مَوْلاَها
أبا شُجَاعٍ بِفَارِسٍ عَضُدَ الدولة فَنَّاخُسْرُ وَشَهَنْشَاها
أسَامِياً لم تَزِدْهُ مَعْرِفَةً وإنَّما لَذَّةً ذَكَرْنَاها »

وقد ذكروا أنَّ سيف الدولة تعجَّب أن كان أبو الطيِّب قد جعله في جملة رعايا عضد الدولة .

وفي هذه القصيدة ذكر أبو الطيِّب الشام . وحنَّ إليه وذكر شاميَّة لعلَّها هي أيضا صدىً من صاحبة درب القلَّة ، وذلك قوله :

«شَامِيَّةٌ طَالمَا خَلَوْتُ بِهَا تُبْصِرُ في نَاظِرِي مُحَيَّاها»

فقبَّلتْ ناظرى تُغالِطُنى وإنَّمـا قبَّلتْ به فاهـا(٢٣)
مانَفَضَتْ فى يدى غَدائرُها جَعَلْتُه فى المُدامِ أفْوَاهَا
فى بَلَدٍ تُضربُ الحجالُ به عَلى حِسانٍ ولسْنَ أشْبَاهَا
لقينَنَا والحُمُولُ سائرةٌ فَهُنَّ دُرٌّ فَذُبْنَ أمْواهَا»(٢٤)

وهذا قريب من قوله « لما بَشَرْ الدُّرُّ الَّذى قُلِّدتْ به »

كلُّ مَهَاة كأنَّ مُقْلَتَها تَقُولُ إيَّاكُمْ وإيَّاها
فيهِنَّ مَنْ تَقْطرُ السَّيوفُ دَماً إذا لِسانُ المُحب سَمَّاها
أُحبُ حِمْصاً إلى خُنَاصرَةٍ وكلُّ نَفْسٍ تُحبُ مَحْيَاها
حَيْثُ التَقَى خدُّها وتُفَّاحُ لُبـ نانَ وَثَغْرِى عَلى حُمَيَّاها
وصفتُ فيها مَصيفَ بَادِيةٍ شَتَوتُ بالصَحْصَحَانِ مَشْتَاها
إنْ أعْشَبتْ رَوضَةٌ رَعَيْنَاها أو ذُكِرَتْ حِلَّةٌ غَزَوْنَاها
أو عَرَضَتْ عانَةٌ مقزَّعةٌ صِدْنا بأخْرَى الجِيادِ أُولاها(٢٥)
أو عبرَتْ هَجْمَةٌ بِنَا تُرِكَتْ تكُوسُ وسطَ الشُّرُوبِ عَقْراها
والخيلُ مَطْرُودَةٌ وطاردةٌ تَجُرُّ طُولَى القَنَا وَقُصْرَاها

ومع هذا فضَّل عَضُدَ الدولة ، وذلك قوله :

«وَقَدْ رأيْتُ المُلوكَ قاطِبَةً وَسِرْتُ حتَّى رأيتُ مَوْلاها
أبَا شُجَاعٍ بفارسٍ عضد الدولـة فَنَّاخُسْرُوَشَهَنْشَاها
أَسَامِياً لم تَزِدْهُ مَعْرِفَـةً وإنَّما لـذَّةً ذَكَرْنَاهَا»

وما أحْسبُ أنَّ سيف الدولة وقد بلغه هذا وعَلَّق عليه إنْ صحَّ مارَوَوْه من قوله « تُرَى هل نحن فى الجملة ؟ » قد غفر لأبى الطيِّب ، فقد كان ربَّ نُعماه .

ولاشكَّ قياسا على الَّذى ذكروا من غضبه عليه حين تأخر مدحُه عنه ، أن يكون رأى أنَّه قد خانه بالصيرورة إلى كافورٍ فعَضُدِ الدولة .

وقد كان رفض أبى الطيِّب الاستجابةَ إلى دعوته آخر الأمر هـو القاضيةُ ، وما كان ليعسرَ من بَعدُ على أعداء أبى الطيِّب بحلب أنْ يتصلوا بأعدائه فى بغداد وتمّ المؤامرة وقديما قد قال :

«إذا ترَحَّلتَ عَنْ قومٍ وقَدْ قَدروا ألاَّ تُفارِقَهُمْ فالرَّاحلون هُمُ
لئن تركنَ ضُميراً عن ميامِننا ليَحْدُثَنَّ لِمَنْ ودَّعتُهم ندمُ»

أو «لسيفِ الدولةِ الندمُ» كما روى بعضهم — فهل كان ذلك الندم قبل دَيْرِ العاقول أو بَعْدَه — الله أعلم أىُّ ذلك كان .

(٢)

قال أبو منصور الثعالبيُّ «كان الصّاحب يقول بُدِئ الشعر بملك وخُتِم بملك ؛ يعنى امرأ القيس وأبافراس . »

وأحْسِبُ أنَّ الصاحب قال ذلك يعنى امرأ القيس وأبا الطيِّب إذ كلاهما من كندة وكلاهما طلب الملك وأخفق .

وقال الثعالبيُّ يذكر أبا فراس : « وكان المتنبى يشهد له بالتقدُّم والتبريز ويتحامى جانبه ولاينبرى لمباراته ولايجترئ على مجاراته . وإنَّما لم يمدحه ، ومدح من دونه من آل حمدان ، تهيُّباً له وإجلالا ، لا إغفالاً وإخلالا . وكان سيف الدولة يُعجب جدًّا بمحاسن أبى فراس ويميِّزه بالإكرام عن سائر قومه ويصطنعه لنفسه ويصطحبه فى غزواته ويستخلفه على أعماله وأبو فراس ينثر الدرَّ الثمين فى مكاتباته إيَّاه ويُوفيه حق سُؤْدُدِه ويجمع بين أدبَيِ السيف والقلم فى خدمته » ا . هـ .

وجلىٌّ أنَّ هذا لايستقيم مع زعم من زعم أنَّ أبا الطيِّب إنَّما إيَّاه أراد بقوله فى الميميَّة :

« أعِيذُهَا نَظَرَاتٍ مِنْكَ صَادِقَةً
أَنْ تحسِبَ الشَّحْمَ فِيمَنْ شَحْمُهُ وَرَمُ »

وقد يذكر أنَّه كان فى الَّذين أغْرَوا به سيف الدولة حين أنشده القصيدة الَّتى منها هذا البيت وأوَّلها :

«وَاحَرَّ قَلْبَاهُ ممَّن قَلْبُهُ شَبِمُ   وَمَنْ بِجِسْمِى وَحَالى عِنْدَهُ سَقَمُ »

وفى النفس بَعْدُ من تراجم أبى منصور لأبى الطيِّب وسيف (١) الدولة وأبى فراس خاصَّة شيء كثير ولعلَّه رحمه الله راقب بعض رجالات

عصره فى الّذى كتب ، من أمثال الصاحب والشريفين الرضى والمرتضى . .
وروايته أخبار سيف الدولة ، عن طريق ابن خـالـوَيْهِ ، وكان من خصوم المتنبى كما تعلم ، مِـمّـا قد يرجّـح هذا الحدس .

وقال أبو الطيِّب :

«أفِي كُلِّ يَوْمٍ تَحْتَ ضِبْنِي شُوَيْعِرٌ ضَعِيفٌ يُقَاوِينِي قَصِيرٌ يُطَاوِلُ
لِسَانِي بِنُطْقِي صَامِتٌ عَنْهُ عَادِلٌ
وَقَلْبِي بِصَمْتِي ضَاحِكٌ مِنْهُ هَازِلُ
وَأَتْعَبُ مَنْ نَادَاكَ مَنْ لاتُجِيبُهُ
وَأَغْيَظُ مَنْ عَادَاكَ مَنْ لاتُشَاكِلُ »

وهذا إغفال كما ترى .

فليت شعرى هل أراد أبو منصور أن ينفى عن أبى فراس أنّه بعض من كان عنه هذا الإغفال .. أنّه مثلا هو الشويعر الّذى كان تحت ضِبْنِ أبى الطيّب ؟

تأمّل مقال أبى منصور : «تهيُّباً وإجلالاً لا إغفالاً وإخلالاً» ولم يكن رحمهالله يجهل أنّ التهيُّب والإجلال ليسا من خُلُقِ أبى الطيّب وأن الإغفال والإهمال ربّما كانا من خلقه ، يدلُّك على هذا أنّه عقد فصلا فى ترجمته له أسماه « إساءة الأدب بالأدب » واستشهد على بعضه بقوله فى مرثيّته لأخت سيف الدولة :

«وَهَلْ سَمِعتَ سَلاَماً لى ألَمَّ بِهَا فَقَدْ أَطَلْتُ وَمَاسَلّمْتُ مِنْ كَثَبِ»

ثم علق قائلا : « وما باله يسلّم علـى حُرَمِ الملوك ويذكر منهنّ مايذكر المتغزل . . . الخ » .

ثم لمّا عرض لمحاسن أبى الطيّب ذكر منها «مخاطبة الممدوح من الملوك بمثل مخاطبة المحبوب والصديق مع الإحسان والإبداع وهو مذهب تفرد به واستكثر من سلوكه اقتدارا منه وتبحّراً فى الألفاظ والمعانى ورفعا لنفسه عن درجة الشعراء وتدريجا لها إلى مماثلة الملوك . . . الخ » .

وقال بعد استشهاده فى آخر هذا الفصل بثمانيةعشر بيتا من الميميّة :

يعلّق عليها فى جملتها : «وهى على براعتها واستقلال أكثر أبياتها بأنفسها (٢) تكاد تدخل فى باب إساءة الأدب بالأدب ، وقد تقدّم ذكره » ا . هـ .

هذا وفى قوله أبى الطيّب :

« وَأَتْعَبُ مَنْ نَادَاكَ مَنْ لاتُجِيبُهُ
وَأَغْيَظُ مَنْ عَادَاكَ مَنْ لاتُشَاكِلُ »

كالإشـــارة الخفيّة أو التعريض إنْ صحَّ هذا والّذى يذكرونه من أنّ أبا فراس كان من المحرِّضين عليه المتحرِّشين به فى مجلس سيف الدولة يوم أنشد الميميّة . وكأنّه الحاسد المراد بقوله :

«إنْ كانَ سَرَّكُمُ مَاقَالَ حَاسِدُنا فَمَا لِجُرْحٍ إذا أرْضَاكُمُ أَلَمُ»

ولعلّ أبا فراس كان يُدِلُ على أبى الطيِّب بقرابته من سيف الدولة ويتيه فما يزيد هذا إلاّ إعراضا عنه وإهمالا له وعلى هذا المعنى يستقيم تأويل قوله :

« وَمَا التِّيهُ طِبِّى فِيهِمُ غَيْرَ أَنَّنِى بَغِيضٌ إلىّ الجاهِلُ المتَعَاقِلُ »

ثم يقول يخاطب سيف الدولة :

«وَأَكْبَرُ تِيهِى أنَّنِى بِكَ وَاثِقٌ وَأَكْبَرُ مَالى أنَّنِى لَكَ آمِلُ
لعلّ لِسَيْفِ الدَّوْلَةِ القَرْمِ هَبَّةً يَعِيشُ بِهَا حَقٌ وَيَهْلِكُ بَاطِلُ »

ولكنّ سيف الدولة القَرْمَ ، كان ينصر قراباته على شاعره ، وقد تَعْلَمُ كيف أوشك أن يبطش به يوم الميميّه والّذى رُوِىَ من ترخيصه للسامرىِّ أن يسعى فى دمه وقد شَجَّه ابن خالويه بمرأى منه وفى حضرته حتّى قال لمّا رأى جفاء الأمير وخاف سوء المصير :

«إنْ كَانَ سرَّكمُ مَا قالَ حَاسِدُنا فَمَا لِجُرْحٍ إذا أرْضَاكُمُ ألمُ »

وكان قد قال من قبل :

« أُعيذُها نظراتٍ منك صادقةً أن تَحْسِبَ الشَّحْمَ فيمن شَحْمُه وَرَمُ »

ثم قال بعد أن نجا من حلب وغادر مصر وصار إلى الكوفة وأتته رسائل سيف الدولة ورسله ليعود :

«وَمَاعَاقَنِى غَيْرُ قَوْلِ الوُشَاةِ   وإنّ الوِشَايَاتِ طُرْقُ الكَذِب
وَتَكْثِيرُ قَوْمٍ وَتَقْلِيلُهُمْ   وَتَقْرِيبُهُمْ بَيْنَنَا وَالخبَبْ
وَقَدْ كَانَ يَنْصُرُهُم سَمْعُهُ   وَيَنْصُرُنِى قَلْبُهُ وَالحَسَبْ»

أى كان يسمع شعرى فيطرب ويَنْصُرنى بهواه وقلبه أريحيةُ حسبه البدوىِّ ثم يسمع منهم ويفكِّر ويُقدرِّ فينصرهم من بعد، يرى أن ذلك هو الرأى والحزم والسياسة والعصبيّة وهلمّ جرًّا .

وكان أبو الطيِّب يُنشد فى حضرة سيف الدولة جالسا وكأن ذلك منه قد كان طرحا للكُلْفة وإظهاراً للأُلْفة وأنسا بالقرب، غير أن الجلوس قد كان ولازال عند أهل المشرق من سمت المغنين . ولعلّ أبا الطيّب رحمه الله كان يترنم ويتغنى إذا أنشد فقد رُوِىَ أنه كذلك كان يصنع شعره .

وما كان المغنى مهما يُكرمْ عند سيف الدولة ويكُ من مراتب أهل الفضل ببالغ قَدْرَ من يكون ابن عم له من بنى حمدان أنفسِهم صَلِيبةً .

ولعلّ أبا الطيِّب كان يشير إلى بعض هذا المعنى فى قوله :

«مَا كانَ أَخْلَقَنَا مِنْكُم بِتَكْرِمةٍ   لو أنّ أمرَكُمُ مِن أمرِنا أَمَمُ»(٣)

وهيهات ليس بأَمَمٍ أمرُ الجهلاء من أمر العلماء وتلك هى المأساة ولا ينبئك مثل خبير .

ولما صار رحمه الله إلى الأمير الفطن كافور لم يكن ينشد إلاّ واقفا وقيل اشترط عليه ذلك والله أعلم . والوقوف من سمت الخطيب . وفى فطنة كافور يقول أبو الطيِّب وهو صادق :

«أُقِلُّ سَلامِى حُبَّ ما خَفَّ عَنْكُمُ
وأَسْكُتُ كَيْمَا لايكونَ جَوابُ (٤)
وَفِى النَّفْسِ حَاجَاتٌ وفيكَ فَطَانَةٌ   سُكُوتِى بَيَانٌ عِنْدهَا وَخِطَابُ»

ومازعمه الثعالبىُّ من أنّ أبا الطيّب لم يكن ينبرى لمباراة أبى فراس صحيح إذ لم تكن به إلى ذلك حاجة . ولكنّ أبا فراس كان يبارى أبا الطيِّب

ويجترىء على مجاراته ، قال أبو منصور الثعالبيُّ فى اليتيمة فى معرض ترجمته لسيف الدولة : « وكان سيف الدولة اصطنع بنى كلاب وأدناهم وأمن سربهم فقهروا العرب إلى أن بدت منهم جفوة أحفظته فأسرى إليهم وأوقع بهم وملك حرمهم وأموالهم ثم صفح عنهم » إلى أن قال : فقال أبو الطيِّب — واستشهد بابيات من بائيَّته فى ذلك ثم قال : « وكتب إليه أبو فراس فى تلك الحال يداعبه » . وذكر أبياتا فى نفس المعنى . وهذا فى المحاكاة والمجاراة نصٌّ كما ترى .

قال أبو الطيب يذكر نساء بنى كلاب :

« فَعُدْنَ كما أُخِذْنَ مُكرَّماتٍ عليهِنَّ القَلائدُ والمَلابُ » (٥)

الملاب ضرب من الطيب .

«يُثبِنْكَ بالّذى أَوليتَ شُكْراً وأينَ مِنَ الّذى تُولى الثَّوابُ
وليس مَصيرُهُنَّ إليك شيْناً ولافى صَوْنِهِنَّ لَديْكَ عابُ
ولا فى فقدِهنَّ بنى كلاب إذا أَبْصَرْنَ غُرَّتكَ اغْتِرابُ»

وقال أبو فراس أو كتب كما قال الثعالبيُّ :

«وَمازِلتَ مُذْ كنتَ تأتى الجَميلَ وَتَحْمى الحَرِيمَ وتَرعَى الحَسَبْ
وَتَغْضَبُ حتّى إذا ما مَلَكْتَ أطَعتَ الرِّضا وعَصيتَ الغَضَبْ
فكُنْتَ حِماهُنَّ إذ لاحمىً وكُنْتَ أَباهُنَّ إذ ليس أَبْ
فولّيْنَ عَنْكَ يُفدّينها وَيَرْفَعْنَ مِنْ ذَيْلِها ماانْسَحَبْ»

وهذا يشير به إلى إحداهنَّ وقد كان بنى هذه الأبيات عليها من أولها حيث قال :

«وَماأنْسَ لاأنْسَ يَوْمَ المغارِ مُحجَّبَةً لَفَظْتها الحُجُبْ »

وهذه هى المداعبة الّتى عنى الثعالبيُّ وقوله « لفظتها الحجب » قبيح (٦) جاسٍ . ثم ماأخذ فيه من بعدُ غير خارج عن معنى أبى الطيِّب « فعدن كما أخذن » وقوله « يثبنك بالذى أوليت » يتضمَّن روح الحوار كما ترى . والمقام

لايقتضى التفصيل . ولايخلو قول أبى منصور « يداعبه » من نوع مأخذ على أبى فراس .

وقال أبو فراس وهو أسير بأرض الروم :

« مُصَابِى جَلِيلٌ والعَزَاء جَلِيْلُ وَظَنِّى بأنَّ الله سَوْفَ يُدِيلُ »

وذلك كان بعد ارتحال أبى الطيِّب وجلىٌ أنَّه هنا يجارى قصيدة أبى الطيِّب :

« لَيَالِىَّ بَعْدَ الظَّاعِنِينَ شُكُولُ طِوَال وَلَيْلُ العَاشِقِينَ طَوِيْلُ »

وفى شعره مايدلُّ على أنَّه قد نظر إليها مرارا من قبل .

وقد اختصر الثعالبىُّ معانى «لَيَالىَّ بعد الظاعنين شكول» حيث عرض لذكر غزوات سيف الدولة ، قال « ويقال إنَّ سيف الدولة غزا الروم أربعين غزوة له وعليه إلى آخر ماقاله » ثم أشار إلى ماكان من فرار الدمستق وأسر ابنه قسطنطين ، « وعبر سيف الدولة الفرات إلى بلد الروم ولم يفعله أحد قبله حتَّى أغار على بطن هنزيط » ثم استشهد بأبيات من الدالية «لِكُلِّ امْرِىءٍ مِنْ دهْرِهِ مَاتَعَوَّدَا » من ذلك قوله :

« فَوَلَّى وَأَعْطَاكَ ابنه وجُيُوشَهُ جَمِيْعاً ولم يُعطِ الجَمِيعَ لِيُحْمَدَا

وَمَا طَلَبَتْ زُرْقُ الأسِنَّةِ غَيْرَهُ وَلَكِنَّ قُسْطَنْطِينَ كانَ لَهُ الْفِدَا » .

والحديث عن الدُّمُسْتُقِ . وأتبعَ ذلك أبياتا رائيَّة من شعر أبى فراس :

« وَآبَ بِقُسْطَنْطِينَ وَهْوَ مُكَبَّلُ تَحُفُّ بَطَارِيقٌ بِهِ وَزَرَازِرُ »

وَوَلَّى عَلَىَ الرَّسْمِ الدُّمُسْتُقُ هَارِباً
وَفِى وَجْهِهِ عُذْرٌ مِنَ السَّيْفِ عَاذِرُ

فَدَى نَفْسَهُ بِابنٍ عَلَيْهِ كَنَفْسِهِ
وللشِّدَّةِ الصَّمَّاء تُقْتَنَى الذَّخائرُ

وَقَدْ يُقْطَعُ العُضْوُ النَّفِيسُ لغَيْرِه
وتُدْفعُ بالأمرِ الكَبِيرِ الصَّغَائِرُ

ولم يستشهد أبومنصور بشيء من لاميّة أبي الطيّب . وعلى نحو قوله : (٧)

ورُعْنَ بِنَا قَلْبَ الْفُرَاتِ كأنَّما تَخِرُّ عَلَيْهِ بالرِّجَالِ سُيُولُ

يُطَارِدُ فيه مَوْجَه كُلُّ سَابِحٍ سَوَاءٌ عَلَيهِ غَمْرَةٌ وَمَسِيلُ

تَرَاهُ كأنَّ الماءَ مَرَّ بِجِسْمِــه وَأَقْبَلَ رَأْسٌ وَحْدَهُ وَتَلِيلُ

وَفِي بَطْنِ هنزيط وسمنين للظُّبَا وسُمْرِ القنا مِمَّن أبَدْنَ بَدِيلُ »

وغيره مما يُشْبِهُه فى تلك القصيدة الرائعة اعتمد ولأمر مافعل ذلك .

وأبيات أبى فراس الرائيّة كما ينظرن إلى قول أبى الطيّب :

« وَلَكِنَّ قُسْطَنْطِينَ كانَ لَهُ الْفِدا »

ينظرن أيضا إلى قوله فى اللاميّة يخاطب الدمستق :

« نَجَوْتَ بِإحْدَى مُهْجَتَيْكَ جَرِيحَةً وَخَلَّفْتَ إحْدَى مُهْجَتَيْكَ تَسِيلُ

أتَتْرُكُ لِلْخَطِّيَّةِ ابنَكَ هَارِبًا وَيَسْكُنُ فى الدُّنْيَا إليكَ خَلِيلُ

بوجهك ما أنساكه من مرشة نَصِيرُكَ مِنْهَا رَنَّةٌ وَعَوِيلُ »

وقد كرّر هذا المعنى أبو الطيّب مرّات فى شعره بصور مختلفات ليؤكّد أنّه هو صاحبه وأبو عذره . كقوله فى « فَدَيْنَاكَ مِنْ رَبْعٍ » : (٨)

« سَرَايَاكَ تَتْرَى وَالدُّمُسْتُقُ هَارِبُ »

وَقَولِهِ فى « عَلَى قَدْرِ أَهْلِ الْعَزْمِ » :

وَقَدْ فَجَعَتْه بابْنِهِ وابنِ صِهْرِهِ

وبالصِّهْرِ حَمْلاتُ الأميرِ الغَوَاشِمُ »

وهلمَّ جرًّا .

وَعَلَى هذا يَضِحُ معنى قول أبى الطيّب : (٩)

«أَجِزْنِي إذا أُنْشِدْتَ شِعْراً فإنّما بِشِعْرِي أَتَاكَ المادِحُونَ مُرَدَّدَا

وَدَعْ كُلَّ صَوْتٍ غَيْرَ صَوْتِي فإنَّنِي أنا الصَّائِحُ الْمَحْكِيُّ والآخَرُ الصَّدَى»

أيّما وضوح .

والثّعالبيُّ رحمه الله لم يكن سطحيا كما ظنَّ مُقَدِّمو الذخيرة لابن بسام

(طبعة دار الكتب) . ولكنّه كان امرأً عميقا يخشى الحكّام . وكان للشعر نقّاداً . و لمّا ذكر لاميّة أبى فراس :

«مُصَابِى جَلِيلٌ والْعَزَاءُ جَمِيلُ وَظَنِّى بأنَّ اللهَ سَوْفَ يُدِيلُ

(وفتور هذا المطلع لايخفى) لم يشأ أن يدع ما اختار منها دون إشارة إلى ما كان من أثر أبى الطيِّب عليه فقال عند قول أبى فراس :

«وَصِرْنَا نَرَى أنَّ المتارِكَ مُحْسِنٌ وأنَّ خَلِيلاً لايَضُرُّ وَصُولُ»

«كأنّه مأخوذ من قول أبى الطيِّب :

«إنَّا لَفِى زَمَنٍ تَرْكُ الْقَبِيْحِ بِهِ مِن أكْثَرِ النَّاسِ إحْسَانٌ وإجْمالُ»

هــذا ،

وقال أبوفراس فى روميّاته :

«أَمَا لِجَمِيلٍ عِنْدَكُنَّ ثَوَابُ وَمَالِمُسِىءٍ عِنْدَكُنَّ مَتَابُ؟!»

فسلخ من بائيَّة أبى الطيِّب فى كافور :

«مُنًى كُنَّ لى أنَّ الْبَيَاضَ خِضَابُ فَيَخْفَى بِتَبْيِيضِ القُرُونِ شَبَابُ»

ماشــاء . ونبَّه إلى بعض ذلك أبو منصور حيث قال يعلِّق على قــول أبى فراس :

«كَذَاكَ الوِدَادُ المَحْضُ لايُرْتَجَى لَهُ ثَوابٌ ولا يُخْشَى عَلَيْهِ عِقَابُ»

ومثله للمتنبى :

«وَمَاأنا بِالبَاغِى عَلَى الحُبِّ رِشْوَةً ضَعِيفُ هَوىً يَبْغِى عَلَيْهِ ثَوَابُ

وسكت الثعالبى عن قول أبى فراس :

«وَلَيْتَ الَّذى بَيْنِى وَبَيْنَكَ عَامِرٌ وَبَيْنِى وَبَيْنَ الْعَالَمِينَ خَرَابُ

إذا صَحَّ مِنْكَ الوُدُّ فالكُلُّ هَيِّنٌ وَكُلُّ الّذى فَوقَ التراب تُرابُ»

فلم يعلِّق عليــه ، كعادته فى الاكتفاء بالتعــريض اليسير على النحو الّذى رأينا . وقد سطا أبو فراس كما لايخفى على قول أبى الطيِّب :

«إذا نِلْتُ مِنْكَ الوُدَّ فالمالُ هَيِّنٌ وَكُلُّ الّذى فَوقَ التُّرابِ تُرابُ»

وتوكّأ عليه. ولعلّه ظنّ أنّ «الكلّ» أجودُ من «المال» وهي ضعيفة من جهتي اللفظ والمعنى؛ أمّا من جهة اللفظ فمن أجل دخول «ال» عليها وهو مدفوع في العربيّة وأمّا من جهة المعنى فلأنّه لم يحترس لنفسه ولا لممدوحه إذ كلاهما يدخلان في حيّز «الكلّ» الهيّن. ولا كذلك قول أبي الطيّب؛:

وكل الذي فوق التراب تراب

إذ هو صحيح في ذاته لايضير الشاعر وممدوحه أن يدخلا في حيّزه، أي الودّ هو الأمر النفيس والمال هيّن وكلّنا بعدُ من التراب وإليه.

هذا ولعلّ أبا فراس قد كان في أخذه من أبي الطيّب حيث أخذ في روميّاته أسمحُ منه نفسا في الّذي جاراه أيّام كان بحلب كالّذي قدّمناه لك من من أبيات الدمستق وبني كلاب وكقوله مثلا:

«غَيْرِي يُغَيِّرُهُ الفَعَالُ الجَافِي وَيَحُولُ عَنْ شِيَمِ الْكَرِيمِ الْوَافِي»

في أبيات فخرية جافية نظر في مطلعها إلى قول المتنبي:

« غَيْرِي بِأَكْثَرِ هَذَا النَّاسِ يَنْخَدِعُ » (١٠)

ثم تجشم من بعدُ أصنافا من الحِكَمِ مباراة له كقوله:

« إنَّ الغَنِيَّ هُوَ الغَنِيُّ بِنَفْسِه وَلَو انّه عَارِي المناكِبِ حَافِي
مَا كُلُّ مَافَوْقَ الْبَسِيطَةِ كَافِياً وإذا قَنِعْتَ فَكُلُّ شَيءٍ كافِي »

وكقوله في أخرى يفخر أيضا:

« إذَا صُلْتُ صَوْلاً لم أَجِدْ لِي مُصَاوِلاً
وإنْ قُلْتُ قَوْلاً لم أَجِدْ مَنْ يُقَاوِلُ »

وهذا كقول المتنبي:

«إذا صُلْتُ لَمْ أَتْرُكْ مَصَالاً لِصَائِل
وإنْ قُلْتُ لَمْ أَتْرُكُ مَقَالا لِعَالِمِ »

أي لعالم بالقول، ولو كان قال: « لم أترك مقالا لقائل » لم يكن شيئا

وما كان إلاّ جعجعة . وقد غاب هذا عن أبى فراس حيث رام أن يشابه آخر لفظه أوّله وغفل أن يستوثق للمعنى .

ولعلّه حَسب أنّه بالّذى صنع قد أربى على أبى الطيِّب . وميميّة أبى الطيِّب الّتى منها «أذا صُلْتُ لَمْ أتْرُكُ ... البيت» نظمها قبل اتصاله بسيف الدولة، عهد كان يصطاد ما «بين الكركىّ والعندليب» على حدّ تعبير الثعالبىّ .

ونتسائل بَعُدُ لماذا كان يعمد أبو فراس إلى مجاراة أبى الطيِّب ومباراته؟ وعن ذلك إجابات كثيرة . منها مثلا أنّه كان فتى مغرورا يرى أن تُسلَّم له إمارة القلم كما اتيحت له إمارة السيف وراثة لا كسبا .

وهذا الداء فى بنى آدم كثير عسى أن يكون مصدره حبُّ الكمال ، وكأنّ من يحسن شيئا واحدا يرى ذلك نقصا حتى يحسن كلّ شيء سواه ولعلّ الأمراء الذين يتعاطَوْن الأدب والفلسفة من أفعل الناس لهذا وقد يجيئون فى هذا الباب بالأوابد كالّذى فعل المأمون على فضله من فتنة خلق القرآن حين حَسب جهلا أنّ رجال الفكر من أمثال أحمد بن حنبل ينبغى أن يطيعوه فى الّذى صار إليه من الآراء فى ميدان الفكر لأنّه كان يعتقد أنّه بحكم منصبه (كما نقول الآن) رجل الفكر الأول .

وعمر الإنسان أقصر من أن يتيح له الكمال، والمرء بَعدُ مَظِنّةُ النقص فإن بدا فيه من الكمال شيء فذلك هو الشاذ النادر الّذى يوصف بالعبقريّة والنبوغ وماأشبه ذلك اللّهم إلاّ ماكان من أمر الأنبياء والمرسلين، فهذا قد(١١) كان من محض فضل الله تعالى على الناس وهو أعلم حيث يجعل رسالاته .

وظهور العباقرة حين يظهـــرون يوهم بعض الطامحين أنّ منال مثل مقدرتهم وإبداعٍ مثل إبداعهم سهل . فينبرون لمضاهاتهم بعمىً كاملٍ وبلا خجل وتكون من ذلك المآسى .

ولعلّ تقليد أبى فراس لأبى الطيِّب كان من هذا الباب. ولعلّه كان(١٢) حسدا له على مانال من إعجاب سيف الدولة والحسد كما تبعثه المنافسة يكون هو أيضا من بواعثها وهذا أمر معروف .

وقد كان سيف الدولة لايعجبه سوى أبي الطيِّب يَدُلُّك على ذلك قوله :

« وَقَدْ كَانَ يَنْصُرُهُم سَمْعُه   وَيَنْصُرُنِي قَلْبُه وَالْحَسَبْ »

وقد كان يعلم علم اليقين أنَّه سيِّدُ الشعراء ويَطْرَب له وَيَغَار عليه أنْ يشاركه فيه أحد غيره أو يعامله ويَهِمُّ أن يعامله مُعاملتَه التحفةَ النفيسة الَّتى صارت ملكا له . كأنَّه مثلا طائر نادر في قفص من ذهب هو مدينة حلب .

وغاب عن سيف الدولة أنَّ أبا الطيِّب ما كان الاَّ صقرا وذلك قوله :

« وشرُّ ما قَنَصَتْه رَاحَتِي قَنَصٌ شُهْبُ البُزَاةِ سَوَاءٌ فيه والرَّخَمُ »

وهو البـــازى كما لايخفى وغيره من أمثال أبى فراس والخـــالديَّين والناشئ والنامى والسامريِّ ومن إليهم هم : الخاز . . . . . ى . . . . . باز . . . . . ى .

وقولـــه :

« وَجَاهِلٍ مَدَّه في جَهْلِهِ ضَحِكي   حتَّى أَتَتْهُ يَدٌ فَرَّاسَةٌ وَفَمُ »

هذا ، ويجوز أنَّ تقليد أبى فراس لأبى الطيِّب قد كان غيْرَةً منه على ماكان بينه وبين أبى العشائر من الوُدِّ . وقد كان هو صديقا (لارَيْبَ بحكم القرابة) لأبى العشائر وحرص الثعالبيُّ على أن يذكر له أشعاراً أرسل بها إلى أبى العشائر إذ كان هذا في الأسر ، كقوله مثلا :

«أ أبا العشائر إنْ أُسِرْتُ فَطَالَمَا
أُسِرَتْ لَكَ الْبِيْضُ الخِفَافُ رِجَالا »

وهذا كان قبل وقوعه في الأسر .

وشعر أبى الطيِّب في أبى العشائر كان للشكر والوفاء أو كما قال :

« مَالِيَ لا أَمْدَحُ الْحُسَيْنَ وَلا
أَبْذُلُ مِثْلَ الْوُدِّ مِثْلَ مَا بَذَلَه »

كشعره في فاتك بمصر . ومِمَّا قال فيه :

«لَيْسَ إلاَّ أبا العَشَائر خَلْقٌ   سَادَ هَذَا الأَنَامَ بِاسْتِحْقَاقِ
ضَارِبُ الهَامِ فِي الغُبَارِ ومايَرْ   هَبُ أنْ يَشْرَبَ الَّذى هُوَ سَاقِي

ثَاقِبُ الرَّأيِ ثَابِتُ الحُكْمِ لاَيَقْـ   ـدِرُ مَرْءٌ لَهُ عَلَى إقْــلاَقِ »
مسكين أبو فراس . ومثل هذا ينبغي أن يُحفظَ ويُغار منه .

وروى العكبرى فى آخر شرح الميميَّة (وَاحَرَّ قَلْبَاهُ مِمَّنْ) «ولما أنشد هذه القصيدة وانصرف كان فى المجلس رجل يعاديه ، فكتب إلى أبى العشائر كتابا بأنطاكية يشرح فيه له ذكر القصيدة وأغراه به ، فوجَّه أبو العشائر عشرة من غلمانه ، فوقفوا قريبا من باب سيف الدولة ، فلمَّا قرب منهم ضرب رجل منهم بيده إلى عنان فرسه ، فسلَّ أبو الطيِّب السيف فوثب عليه الرجل ، وتقدمت فرسه به فعبر قنطرة كانت بين يديه ، وأصاب أحدهم فرسه بسهم فانتزعه ، واستقلت الفرس به ، وتباعد بهم ليقطعهم من مدد إن كان لهم ، ورجع إليهم بعد أن فنِيَ نشابهم ، فضرب أحدهم بالسيف فقطع الوتر وبعض القوس ، وأسرع السيف فى ذراعه ، فوقفوا على صاحبهم المجروح وسار وتركهم ، فلمَّا يئسوا منه قال أحدهم : نحن غلمان أبى العشائر » : (١٣)

« ومنتسب عندى الى من أحبه ... الخ . »

وكاتب هذا الخبر ظنَّ أنهَّ يروى قصة عنترة كما ترى . ولُبُّ الخبر أمور خمسة : كتابةُ عدو أبى الطيِّب إلى أبى العشائر ، إرسالُ بعضهم غلمانا عشرة أو دون ذلك أو أكثر ليقتلوا أبا الطيِّب أمام دار سيف الدولة ، هَرَبُ أبى الطيِّب أو إفلاته بعد أن كاد يصاب ، دعوى بعض الغلمان أنَّهم لأبى العشائر وقول أحدهم «خذها وأنا غلام أبى العشائر » ثمَّ الأبيات الّتى مطلعها «وَمُنْتَسِبٍ عِنْدِي إلى مَنْ أُحِبُّه وللنَبْلِ حَوْلِى مِنْ يَدَيْهِ حَفِيفُ»

ولا يعقل أن يكون رجل من غير آل حمدان يَجْسُرُ أن يكتب إلى أبى العشائر باسم سيف الدولة يلتمس إليه قتلَ أحد؛ أبى الطيِّب أو سواه ، فهل عسى ذلك ، ونحن نعلم الملابسات ، أن يكون غيرَ أبى فراس ؟

وانتساب الغلام إلى أبى العشائر فى السياق المتقدم كأنَّما أراد به الراوى

إظهارَ طابع الكذب فيه — وكذلك إرسال الرسول إلى أبى الطيِّب يستدعيه باسم سيف الدولة أيضا يجرى مجرى التحليل لاحتمال الخبر .

وهنا نتساءل أترى أبا العشائر هذا الّذى انتسب له الغلام كان نفس أبى العشائر أم مجرد اسمه جعل رمزاً لشخص آخر . . شخص لعلّه هو الّذى كان المصدر الحقيقىّ للإلهام عند أبى الطيِّب والغيرة والحفيظة عند أبى فراس؟ ؟

ولقد تذكر قولنا آنفا إنّ أبا فراس لعلّه كان أسمح نفسا إذ حاكى أبا الطيِّب فى روميّاته منه أيام حلب . ومصدر هذه السماحة أنّه بعد أن أضفى البعد والاغتراب على أبى الطيِّب جلال الذكرى لم يستنكف أبو فراس أن يقف منه فى تقليده الملح له كموقف التلميذ ، كما وقف لاريب منه من قبل إذ هو غلام وأبو الطيِّب شاعر الشام . وكان يجارى أبا الطيِّب فى الأوزان والقوافى مااستطاع كالذى رأيت فى اللاميّة والبائيّة وكما فى رائيّته :

« أَرَاكَ عَصِيَّ الدَّمْعِ شِيمَتُكَ الصَّبْرُ »

وهومن أوزان أبى الطيِّب ومنه قوله المشهور « فَمَا المجدُ إلاّ السَّيفُ والفَتْكَةُ البِكْرُ »

وكبائيّته : « أَسَيْفَ الهُدَى وَقَرِيعَ العَرَبْ »

وهى تجارى : « أَتَانِي الكِتَابُ أَبَرُّ الكُتُبْ »

وكقوله :

« يَعِزُّ عَلَى الأحِبَّة بالشَّآمِ حَبِيبٌ بَاتَ مَمْنُوعَ المَنَامِ »

وهذا نهج «مَلُومُكُمَا يَجِلُّ عَنِ المَلاَمِ »—وقال أبو الطيِّب هناك : (١٤)

« عَلِيلُ الجِسْمِ مُمْتَنِعُ القِيَامِ . . . الخ »

وكقوله :

«أَتَزْعُمُ يَاضَخْمَ اللغَادِيدِ أنَّنَا وَنَحْنُ أُسُودُ الحَرْبِ لاَنَعْرِفُ الحَرْبَا»

وهذا وزن « فَدَيْنَاكَ مِنْ رَبْعٍ وَإِنْ زِدْتَنَا كَرْبَا »

وقال :

«نَدَبْتُ لِحُسْنِ الصَّبْرِ قَلْبَ نَجِيبِ وَنَادَيْتُ بالتَّسْلِيمِ خَيْرَ مُجِيبِ»

وهذا وزن :

« وَفِي تَعَبٍ مَنْ يَحْسُدُ الشَّمْسَ ضَوْءَها
وَيجْهَدُ أنْ يَاتِي لَهَا بَضرِيبِ »

وما ضاهى فيه الوزن دون القافية أو اتبع مذهب القافية من قريب أو بعيد كثير نحو قوله :

« يَاحَسْرةَ مَاأكَادُ أَحْمِلُها »

وجارى فيه « أهلا بدار سباك أغيدها » في الوزن وقاربها في مذهب (١٥) القافية وقال فيها :

« يَاوَاسِعَ الدَّارِ كَيْفَ تُوسِعُها وَنَحْنُ فِي صَخْرَة نُزَلْزِلُها
يَانَاعِمَ الثَّوْبِ كَيْفَ تُبْدِلُه ثِيَابنُـــا الصُّوفُ لانُبَـــدِّلُها

وهذا كطريقة أبى الطيِّب في الأداء حيث قال :

« يَاعَاذِلَ العَاشِقِينَ دَعْ فِئَةً أَضَلَّها الله كَيْفَ تُرْشِدُها »

وبين المعاني بَوْنٌ بعيد .

ونحو قوله :

« وَإنَّكَ لَلْمَوْلَى الَّذى بِكَ أقْتَدِى
وَإنَّكَ للنَّجْمُ الَّذى بِكَ أهْتَدِى
وَأنْتَ الَّذى عَرَّفْتَنِي طُرُقَ الْعُلا
وَأنْتَ الَّذى أهْدَيْتَنِي كُلَّ مَقْصِدِ
وَأنْتَ الَّذى بلَّغْتَنِي كُلَّ غَايَةٍ
مَشَيْتُ إليها فَوقَ أعْنَاقِ حُسَّدِى »

وهذا كقول أبى الطيب :

« لِكُلِّ امرِئٍ مِنْ دَهْرِه ماتَعَوَّدَا »

فى الوزن وكذلك فى القافية إلاَّ أنهَّ خالف حركة الرَوِىِّ فجعلها خَفْضاً وهى هنا نَصْبٌ . ونظر إلى قول أبى الطيِّب :

«أَزِلْ حَسَدَ الُحسَّادِ عَنِّى بِكَبْتِهِمُ فأنْتَ الّذى صَيَّرْتَهُم لىَ حُسَّدا»

وإلى طريقة مذهبه عامَّة . ونحو هذا كثير .

وقد تضرَّع أبوفراس إلى سيف الدولة غاية التضرُّع فى الروميَّات علَّه يرقّ له فيفديه من الأسر . وأعرض عنه سيف الدولة غاية الإعراض .

وكان أوَّل أمره إذ كتب إلى سيف الدولة فى الفداء مُدِلاًّ بنفسه لايشكُّ أن سيف الدولة سيفديه وذلك قوله مثلا :

فَمِثْلُكَ مَنْ يُدْعَى لِكُلِّ عَظِيمَةٍ وَمِثْلِى مَنْ يُفْدَى بِكُلِّ مُسَوَّدِ

تَشَبَّثْ بها أُكْرُومَةً قَبْلَ فَوْتِها وَقُمْ فِى خَلاَصِى صَادِقَ الْعَزْمِ وَاقْعُدِ

فَإنْ تَفْتَدُونِى تَفْتَدُوا شَرَفَ الْعُلاَ وَأسرع عواد إليكم مُعَوَّدِ

يُدَافِعُ عَنْ أَعْرَاضِكُمْ بِلِسَانِه وَيَضْرِبُ عَنْكُم بالحُسامِ المُهَنَّدِ

ولكن مع إبطاء سيف الدولة عنه تغيَّرت نغمته من الثقة إلى الضعف إلى الغيظ المنهار فمن ذلك قوله مثلا :

وَقَدْ كُنْتُ أَخْشَى الهَجْرَ وَالشَّملُ جَامِعٌ
وَفِى كُلِّ يَومٍ لَقْيَةٌ وَخِطَابُ
فَكَيْفَ وَفِيمَا بَيْنَنَا مُلْكُ قَيْصَرٍ
وللْبَحْرِ حَوْلِى زَخْرَةٌ وَعُبَابُ
أَمِنْ بِعْدِ بَذْلِ النَّفْسِ فِيكَ نَفِيسَةً
أُثَابُ بِمُرِّ العَتْبِ حِيْنَ أُثَابُ

وليت التاريخ حفظ لنا هذا العتب فنعلم منه بعض ماهو غامض عنا الآن ،

«فَلَيْتَكَ تَحْلُو وَالْحَيَاةُ مَرِيْرَةٌ وَلَيْتَكَ تَرْضَى وَالأَنَامُ غِضَابُ

وَلَيْتَ الّذى بَيْنِى وَبَيْنَكَ عَامِرٌ وَبَيْنِى وَبَيْنَ الْعَالَمِينَ خَرَابُ

إذا نِلْتُ مِنْكَ الوُدَّ فالكُلُّ هَيِّن   وكُلُّ الّذى فوْقَ التراب ترابُ»

ومن استعطافه البالغ الباكى :

«أَرانِيَ طُرقَ المَكْرُماتِ كَمَا رأى   عَلِيٌّ وأَسْعَبَى لى عَلِيًّا كَمَا سَعَى»

— وعلىٌّ اسم سيف الدولة والثانية حال وإن كررتها مرفوعة جاز على أنّها علم ولعلّه أجود —

«فَإِنْ يَكُ بُطءٌ مَرَّةً فلَطَالمَا   تَعَجَّلَ بِى نَحْوَ الجميلِ فَأَسْرَعَا

وإنْ يَجْفُ فِى بَعْضِ الأُمُورِ فإنَّنى   لأَشْكُرُه النُّعْمَى الّتى كانَ أَوْدَعا

وإنْ يَسْتَجِدَّ النَّاسَ بَعْدِى فلَمْ يَزَلْ

بِذَاكَ البَدِيلِ المستَجَدِّ مُمَتَّعا»

وكأنّه تأدّب بأدب بيت لأبى الطيّب من عينيّة له من هذا الوزن مرفوعة الروى وهو قوله :

« تَذَلَّلْ لَهَا وَاخْضَعْ عَلَى القُرْبِ والنَّوَى

فمَا عاشِقٌ مَنْ لا يَذِلُّ ويَخْضَعُ»

إلاّ أنّه ، على الأرجح ، لم ينظر إلى مجاراة هذه العينيّة كما قد نظر إلى عينية متمم بن نويرة :

(١٦)

«فلَمَّا تَفَرَّقنا كأنّى ومالِكاً   لِطُولِ اجْتِمَاعٍ لَمْ نَبِتْ لَيْلَةً مَعا»

يستوحى منها سَمْتَ الحزن والاطمئنان إليه . وما أخلص أبو فراس فى شىء من فخم شعره فصدق كما فعل فى هذه العينية على أنّه فى ذاك لم يغب عنه نموذج أبى الطيّب وتقليده ، تأمل قوله مثلا :

«وَهَا أنا قد حلَّى الزّمانُ مَفَارِقى   وتوّجَنى بالشَّيْب تاجاً مُرَصَّعا(١٧)

فلو أنّنِى مُكِّنتُ ممّا أُرِيدُه   مِنَ العَيْشِ يَوْماً لم أجِدْ فيَّ مَوْضعا

أمَا لَيْلَةٌ تَمْضِى ولا بَعْضُ لَيْلَة   أُسَرِّ بِهَا هذا الفُؤَادَ المُفَجَّعا

أمَا صَاحِبٌ فَرْدٌ يَدُومُ وَفَاؤُه   فيُصْفِى لِمَنْ يُصْفِى ويَرْعَى لِمَنْ رَعَى

أَفِى كُلِّ دارٍ لى صَدِيقٌ أَوَدُّه   إذا ما تَفَرَّقْنا حَفِظْتُ وَضَيَّعا

وأوّل هذا من كلام أبي الطيّب المشهور «لَيْتَ الحوادِثَ باعَتْنِي الّذي (١٨) أَخَذَتْ» وسائره فمن قوله :

«لَحَا اللهُ ذِي الدُّنْيَا مُنَاخًا لِرَاكِبٍ فَكُلُّ بَعِيدِ الهمِّ فيها معذَّبُ
ألا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَقُولُ قَصِيدَةً فَلا أَشْتَكِي فِيها ولا أَتَعَتَّبُ
وَبِي مَا يَذُودُ الشِّعْرَ عَنِّي أَقَلُّهُ وَلَكِنَّ قَلْبِي يا ابْنَةَ القَوْمِ قُلَّبُ»

وماأشبه ، كقوله « يَقُولُونَ لي مَا أَنْتَ فِي كُلِّ بَلْدَةٍ » « أَفِي كُلِّ يَوْمٍ ذا الدُّمُسْتُقُ مقدم » وهلمَّ جرًّا .

وقال أبو منصور : وبلغ أبا فراس أنّ والدته قصدت حضرة سيف الدولة من منبج تكلّمه في المفاداة وتتضرّع إليه ، فلم يكن عنده مارجت من حسن الإيجاب . ووافق ذلك عنفا من الدمستق بأبي فراس ومن معه من الأسرى وزيادة في إرهاقهم فكتب إلى سيف الدولة :

« يا حَسْرَةً مَا أَكَادُ أَحْمِلُها »

وأورد قدرا صالحا من القصيدة — وفيها يقول وهو صيحة اليأس والانهيار المَغيظ الكامل :

« بأيِّ عُذْرٍ رَدَدْتَ والِهَةً عَلَيْكَ دُونَ الوَرَى مُعَوَّلُها
جَاءَتْكَ تَمْتَاحُ وِرْدَ وَاحِدِها يَنْتَظِرُ النَّاسُ كَيْفَ تُقْفِلُها»

— أي كيف تردُّها —

«أَرْحَامُنَا مِنْكَ لِمْ تُقَطِّعُها وَلَمْ تَزَلْ دائباً تُوَصِّلُها
سمحت مِنِّي بمهجةٍ كَرُمَتْ أنْتَ عَلَى يَأْسِها مُؤَمِّلُها
أَيْنَ الْمَعَالِي الّتي عُرِفْتَ بِهَا تَقُولُها دَائماً وَتَفْعَلُها
يا وَاسِعَ الدَّارِ كَيْفَ تُوسِعُها وَنحنُ فِي صَخْرَةٍ نُزَلْزِلُها
يا نَاعِمَ الثوْبِ كَيْفَ تُبْدِلُهُ ثِيَابُنَا الصُّوفُ لا نُبَدِّلُها
يا رَاكِبَ الخيْلِ لو بَصُرْتَ بِنَا نَحْمِلُ أَقْيَادَنَا وَنَنْقُلُها

ولم يجد الثعالبيُّ لإعراض سيف الدولة عن أبى فراس من تأويل ولكن عدّه من « حرفة الأدب » ــ أى سوء حظّ الأدباء ــ ومن « العين » الّتى تصيب أهل الكمال ، ولاريب أنّ إعراض سيف الدولة كان عن تنكُّر وعتب وجفوة ، يَدُلُّكَ على ذلك ماتقدم وقول أبى فراس :

« أسَيْفَ الهُدَى وَقَرِيعَ الْعَرَبْ   إلامَ الجَفَاءُ وَفِيمَ الْغَضَبْ »

وقوله :

«تَنَكَّرَ سَيْفُ الدِّين لمَّا عَتَبْتُهُ   وَعَرَّضَ بِى تَحْتَ الْكَلاَمِ وَقَرَّعا»

ونحو هذا كثير .

ونسأل بَعدُ ماالّذى أحفظ سيف الدولة على أبى فراس ؟

وردُّ سيف الدولة شفاعة والدته قد جرحه حتى أخرج من نفسه ضغينة حسد وكوامن غرور : (١٩)

«يَاوَاسِعَ الدَّارِ كَيْفَ تُوسِعُها   وَنحْنُ فِى صَخرةٍ نُزَلْزِلُها
يَانَاعِمَ الثَّوبِ كَيْفَ تُبْدِلُه   ثِيَابُنا الصُّوفُ لانُبَدِّلُهَا
يَارَاكِبَ الخيْلِ لَوْ بَصُرْتَ بِنَا   نَحْمِلُ أقْيَادَنَا وَنَنْقُلُها
رَأيْتَ فى الضُّرِّ أوْجُهاً كَرُمَتْ   فَارَقَ فِيكَ الْجَمَالَ أجْمَلُها»

أكان ذلك قبل مقتل أبى الطيِّب ؟ وهل كان أبو العشائر حيًّا ومن الشخص الّذى كاد لأبى فراس ؟

وقد قال أبو فراس يأسى على نفسه ويتأسى : ــ

« مَالى جَزِعْتُ مِنَ الْخُطُوبِ وإنَّمَا   أخَذَ الإلهُ لِبَعْضِ مَا أعْطَانِى »

وروى أبو منصور أن الروم قد خففوا من بَعدُ عن أبى فراس ، ونوظر فى أمر الهدنة وأجيب إلى ملتمسه بعد إكرام وتبجيل فقال فى ذلك من قصيدة (تنظر إلى أبى الطيِّب) :

«ولله عِنْدِي فِى الإسَارِ وَغَيْرِهِ   مَوَاهِبُ لم يُخْصَصْ بِهَا أحَدٌ قَبْلى»

«حَلَلْتُ عُقُوداً أعْوَزَ النَّاسَ حَلُّهَا   وَمَازِلْتُ لاعَقْدِي يُذَمّ وَلاحَلِّي»

فدلّنا بهذا على أنّه فى الّذى وصـــل إليه لم يداهن فى شىء من أمر الدين والجهاد والله أعلم .

« وَمَاشَاءَ رَبِّى غَيْرَ نَشْرِ مَحَاسِنِى
وَأَنْ يَعْرِفُوا مَاقَدْ عَرَفْتم مِنَ الْفَضْلِ »

وكأن الأسر لم يُعَلِّمْ أبا فراس شيئا من التواضع . وقد ذهبت الضراعة والانهيار لمّا ذهبت أسبابها . ونغمة الأشر والنسيان لما فات ظاهرة فى هذه الأبيات .

قال أبو منصور : « ولمّا خرج قمر الفضل من سِرَارِه وَأُطْلِقَ أسد الحرب من إساره لم تطل أيّامُ فرحته »

تأمل قوله « أيّام فرحته » فهو نصٌّ فى الذى قدّمناه .

ثم قال أبو منصور : « وَدَلَّت قصيدة قرأتها لأبى إسحق الصابى فى مَرْثِيَّته على أنّه قتل فى وقعة كانت بينه وبين بعض موالى أسرته »

وكان سيف الدولة قد مات منذ حين وحارب أبو فراس أبا المعالى ابنه وفَرْغَوِيهِ مولاه وقتله هذا ورمى جثّته للكلاب وقد علم أبو منصور إلاّ أنّ قرب العصر والتقيّة منعاه التصريح .

وكأن أبا منصور بغى التلميح إلى علاقة ما بين هذا الحادث وأمر أبى الطيّب كلّه حين استشهد مباشرة بعده بقوله يخاطب سيف الدولة من مَرْثِيَّته فى خولة ، قال : وماأحسن وأصدق قول المتنبى :

فَلاَ تَنَلْكَ اللَّيَالِى إنَّ أيْدِيَهَا   إذا ضَرَبْنَ كَسَرْنَ النَّبْعَ بالغَرَبِ(٢٠)
وَلايُعِنَّ عَدُوّاً أنْتَ قَاهِرُهُ   فإنَّهُنَّ يَصِدْنَ الصَّقْرَ بِالْخَرَبِ

وذكر ابن خالوية أنّ آخر شعر أبى فراس قـــوله عند موته رحمه الله :
« أَبُنَيَّتِى لاتَجْزَعِى... الأبيات » (٢١)

فأنت ترى كيف جمع بين ذكر أبى الطيّب وابن خالويه وسيف الدولة جميعا وتأمَّلْ بَعدُ قوله : « بعض موالى أُسْرَتِهِ »

أترى الشخص المجهول المرموز إليه بأبى العشائر كان حيًّا بعد ؟ ربك أعلم أىُّ ذلك كان .

(٣)

« قال أبو الطيّب ،

وَمَا أَنَا إلاّ عَاشِقٌ كُلُّ عَاشِقٍ أعَقُّ خَلِيلَيْهِ الصَّفِيَّيْنِ لائِمُهُ» (١)

فمن قسا قال لم يعشق إلاّ نفسه . ولكنّ السياق ينبئ عن إنسان بعينه معشوق وذلك قوله :

« سَقاكِ وَحَيَّانا بِكِ اللهُ إنَّما عَلَى الْعِيْسِ نَوْرٌ والخُدُورُ كمَائِمُهُ

وَمَا حَاجَةُ الأظعَانِ حَوْلَكِ فِي السُّرَى إلى قَمَرٍ مَا وَاجِدٌ لَكِ عَادِمُهُ

حَبِيْبٌ كأنَّ الحسنَ كَانَ يُحِبُّهُ فآثَرَهُ أوْ جَارَ في الحسنِ قَاسِمُهُ

تَحولُ رِمَاحُ الخَطِّ دُونَ سِبَائِه وَتُسْبَى لَهُ مِنْ كلِّ حَيٍّ كَرَائِمُهُ

ويُضْحِي غَبَارُ الخَيْلِ أدْنَى سُتُورِه وآخِرُها نَشْرُ الكِبَاءِ المُلازِمُه »

أي نشر الطيب الملازم له . وهذه الصورة كأنّما نظر إليها رجال هوليود في الذى يعرضون من صور أميرات قصصهم المقتبسة من ألف ليلة وليلة .

ولكأنّ أبا الطيّب الفارس منّتْهُ نفسُه الباطلَ من سبى هذه الجارية لو إليه سبيل . وهى لاريب الّتى فى الداليّة حيث مدح كافورا وقال : (٢)

أوَدُّ مِنَ الأيَّامِ مَا لاتَوَدُّهُ وَأشْكُو إليها بَيْنَنا وَهْيَ جُنْدُهُ

يُبَاعِدْنَ حُبّاً يَجْتَمِعْنَ وَوَصْلِه فَكَيْفَ بِحُبٍّ يَجْتَمِعْنَ وَصَدُّه »

وليس ههنا حبيبان ولكن حبيب واحد ، هو الّذى بُوعِدَ وكانت الأيّام تجمعه به واصلا ، فكيف تجمعه به الآن مع الصدود الّذى نشأ من النوى ومن الجفوة الّتى وقعت بينه وبين آل حمدان — والبيت التالى يكشف هذا المعنى :

أَبَى خُلُقُ الدُّنَيا حَبِيباً تُدِيمُهُ فَمَا طَلَبِى مِنْهَا حَبِيباً تَرُدُّهُ
وَأَسْرَعُ مَفْعُولٍ فَعَلْتَ تَغَيُّراً تَكَلُّفُ شَىءٍ فى طِبَاعِكَ ضِدُّهُ»

وأبو الطيِّب يخاطب نفسه ، ولاينعت الدنيا كما وهم بعض الشراح ، ولايخلو فى هذا من رجوع بذكراته إلى وراء ، وصفة حال ممَّا كان بينه وبين سيف الدولة ومن كانوا يحفُّون به .. ثمَّ فى هذه الخَطْرة المُرَّةِ نفحته ريَّا المحبوبة :

«رَعَى الله عِيساً فَارَقَتْنَا وَفَوْقَها مَهاً كُلُّها يُولَى بجَفْنَيهِ خدَّهُ
بِوَادٍ بِهِ مَا بِالْقُلُوبِ كَأنَّهُ وَقَدْ رَحَلُوا جِيدٌ تَنَاثَرَ عِقْدُهُ
إذا سَارَتِ الْأحْدَاجُ فَوْقَ نَبَاتِه تَفَاوَحَ مِسْكُ الغَانيَاتِ وَرَنْدُهُ
وَحَالٍ كإحْدَاهُنَّ رُمْتُ بُلُوغَهَا
وَمِنْ دُونِهَا غَوْلُ الطَّرِيقِ وَبُعْدُهُ » (٣).

وماشَّبه حاله بأحداهُنَّ إلاَّ أنهما صنوان وإلاَّ ماصحَّ التشبيه فهى نفسها الحال كما ترى .

وقال أبو منصور الثعالبى فى أوَّل فصله عن آل حمدان : أخبرنى جماعة من أهل الأدب أنَّ المتنبى لما عوتب فى آخر أيَّامه على تراجع شعره قال قد تجوَّزت فى قولى وأعفيت طبعى واغتنمت الراحة منذ فارقت آل حمدان . . أ . هـ . وإنْ صَحَّت هذه الرواية فما أراه إلاَّ قد أنكر عليهم قولهم إذ أثبت لنفسه التجوز وما يصحبه من التصرف ، وإعفاء الطبع وما يصحبه من الانطلاق ، واستشعار الراحة وانَّما كان سبب الراحة الدَّعَة الَّتى وجد بمصر حيث طلب حالا كأحداهُنَّ فصار به الأمر إلى أن تجاوزهما معا وصار ينظر إليها من علٍ ، من سماء الفنِّ فى ريف مصر الَّتى احتوته وادَّعته وأبطلت دعوى كلِّ شىء سواها . ومن إعفائه طبعه وانطلاقه الَّذى لايدفع قوله وهو بفارس :

«أَزَائِرٌ ياخَيَالُ أَمْ عَائِدْ أَمْ عِنْدَ مَوْلاكَ أنَّنى رَاقِدْ
عُدْ وأعِدْها فحبَّذا تَلَفٌ أُلْصِقُ ثَدْيِى بِثَدْيِكِ النَّاهِدْ»

تأمل قوله « تلفٌ » وإنّما جعله تلفا لما فيه من انهماك فى وصال عاقبته السيف والتلف أو كما قال جران العود :

«وقُلْنَ تَمتّع لَيْلَةَ النّأْىِ هَذِه فإنّكَ مَرْجُوم غداً أو مُسيّفُ»(٤)

أم ليس هذا كقوله :

فِيهِنّ من تَقْطُرُ السُّيُوفُ دمًا إذا لِسَانُ الْمُحِبِّ سَمَّاهَا»

وليس المحبُّ أحداً غيره وما السيوف اللاءِ كنّ سيقطرن دما غير سيوف بنى حمدان ولم تكن الفتاة فى حلب وإنّما كانت تقدم إليها وتسير عنها . . لاشكّ أنها كانت صاحبة درب القُلّة :

«لَقِيتُ بدَرْبِ الْقُلّة الفَجْرَ لقْيَةً شَفَتْ كَمَدِى والصُّبْح فيه قَتِيلُ»

ولاريب أنّها هى الّتى أقامت بماءٍ :

« يُحَرِّمُه لَمْعُ الأسِنَّةِ فَوْقَهُ فَلَيْسَ لِظَمْآنٍ إليه سَبِيلُ»

ولكنّ هذا ماء رمزى هو وصلها ومَنْعَتُها بما كانت تمتنع به ، وقد مرّ بك قوله :

«وَصِفْتُ فِيها مَصِيفَ بَادِيةٍ شَتَوْتُ بالصّحْصَحان مَشْتَاها»

فإذن لم تكن تسكن البادية وإنّما صافت ترفا والتماسا للقاء الشاعر فى الّذى كانت تتيح البداوة من حرّيّة لقاء لاتتيحه حُجُبُ الحاضرة .

«من الْجآذِرِ فى زِىّ الأعَارِيبِ حُمْرُ الحُلَى والمطَايَا والْجَلابِيبِ»

تأمّل قوله فى زىّ الأعاريب ، أى هى فى زيّهنّ وليست منهُنّ :

« أفْدِى ظِبَاءَ فَلاةٍ مَاعَرَفْنَ بِهَا مَضْغَ الْكَلاَمِ ولاصَبْغَ الْحَوَاجِيبِ

رأى هذا بمصر وأعجبه بلا ريب . (٥)

ثم ظباء الفلاة هؤلاء ، محبوبته وصويحباتها ، يمضغن كلامهن ويصبغن حواجبهنّ ولهُنّ حال الحضر ورقّتُهن وهُنّ بعد فى الفلاة ظباء فلاة مُرفّهاتٌ لامعزاها .

« أَيْنَ المعِيزُ مِنَ الآرَامِ نَاظِرةً وَغَيرَ نَاظِرةٍ فى الْحُسْنِ والطّيبِ »

وحسبك نظرة في الّذي اختار أبو منصور من أشعار آل حمدان لتعلم مامقدار مابلغوا من لينٍ ورقّةٍ وتأنُّقٍ وترف . من ذلك مثلا قول أبي وائل بن حمدان :

«لا وَالّـذي جَعَلَ المَوا لِي في الهَـوى خَدَمَ العَبيدِ
وَأَصارَ في أَيْدي الظّبا ءِ قِيادَ أَعْناقِ الأُسُودِ
وَأَقامَ أَلْوِيَةَ الْمَنِيّـةِ بَيْنَ أَفْنِيَـةِ الصُّدُودِ
ما الْوَرْدُ أَحْسَنُ مَنْظَراً مِنْ حُسْنِ تَوْرِيدِ الخُدُودِ

ولأبي زهير بن حمدان :

وَزَعَمْتَ أَنّي ظالِمٌ فَهَجَرْتَني وَرَمَيْتَ في قَلْبي بِسَهْمٍ نافِذِ
فَنَعَمْ ظَلَمْتُكَ فاغْتَفِرْلي زَلّتِي هَذا مَقامُ الْمُسْتَجِيرِ الْعائِذِ»

وقد مرَّ بك شعر أبي فراس وروح اللين سِنْخُهُ وقد نبا به ماحمله هو عليه من مذهب المتنبي في القوّة وذلك كما قال المتنبي « تَكَلُّفُ شَيءٍ في طِباعِكَ ضِدُّهُ » وأبيات أبي فراس الّتي تنسب إليه عند حِمامه أشبه به وبمشرب قومه في اللين ورقّةِ الانحلال :

«أَبُنَيّتي لا تَجْزَعي كُلُّ الأَنامِ إلى ذَهابِ
نُوحِي عَلَيَّ بِحَسْرَةٍ مِنْ خَلْفِ سِتْرِك والْحِجابِ
قُولي إذا نادَيْتِني فَعَجَزْتُ عَنْ رَدِّ الجَوابِ
زَيْنُ الشَّبابِ أبو فِرا سٍ لَمْ يُمَتَّعْ بِالشَّبابِ»

حتى عند الموت رحمه الله يروم الجناس .

والبداوة كثيرا ماتصير إلى اللين المفرط والانحلال حين تخالط الحضارة أو تخلد إليها ، والناس بعدُ ضروب والله تعالى أعلم .

وهذا يقوى ما قدّمنا من أنّ صواحب أبي الطيّب بالشام اصطنعن زِيَّ البادية وما كُنَّ بَدَوِيّات .

وقال أبو الطيّب في أوائل أمره يذكر ممدوحا اسمه المغيث العجلي :

« لمَّا أَقَمْتُ بأَنْطَاكيَّةَ اخْتَلَفَتْ   إلىَّ بالخَبَرِ الرُّكْبَانُ فى حَلَبا
فَسِرْتُ عَجْلانَ لا أَلْوِى علَى أحَدٍ   أَحُثُّ رَاحِلتَىَّ الفَقْرَ والأدبا »

والشعراء مِمَّا ينظرون بعين الكشف. وقد كتب على أبو الطيِّب آخر الدهر (٦) أن يصعد صيته بحلب عند أميرها، ولكن تَأَتَّى ذلك له بعد أن حَثَّ راحلتيه الفقر والأدب إلى أمير أنطاكية أبى العشائر فإن تلك فتاته كانت مقيمة فى حيِّز أبى العشائر — وإلاَّ فما معنى انتساب الغلام الذى أراد قتله حيث قال « خذها وانا علام أبى العشائر » — فقد كانت تقدم حلب حين تقدمها على بعير فوق هودج ذى عبير ، أو كما قال :

«يا طِفْلَةَ الكَفِّ عَبْلَةَ السَّاعِد   عَلَى البَعِيرِ المُقلّدِ الوَاخِد
زَيدى أَذَى مُهْجَتِى أَزِدْكِ هَوًى   فأجْهَلُ النَّاسِ عَاشِقٌ حَاقِد»

أليس ههنا صدى قوله :

«وَمُنْتَسِب عِنْدى إلى مَنْ أحِبُّه   وللنَّبْلِ حَوْلى مِنْ يَدَيه حَفِيفُ
فَنَفْسِى لَهُ نفسى الفِدَاءُ لنَفْسِه   وَلَكِنَّ بَعْضَ المالِكِينَ عَنِيفُ»

بل قال : —

«حَكَيْتَ يالَيْلُ فَرْعَها الوارِد   فاحْكِ نَوَاها لجَفْنِيَ السَّاهِد
طَالَ بُكائِى عَلَى تَذَكُّرِها   وطُلْتَ حَتَّى كِلاكُمَا وَاحِد»

أكانت طويلة القامة طويلة الفرع أم تأمّلها من عَدْوَةِ فارس وهى (٧) فى أنطاكية أو حلب فطال طيفها المتوهَّم إلى عنان السماء أو كما قال شيخ الشعراء امرؤ القيس من قبل :

« تَنَوَّرْتُها مِنْ أذْرِعَاتٍ وَأَهْلُها   بِيَثْرِبَ أدْنَى دَارِها نَظَرٌ عَالِ »

وصدق وماعلم ويحه إذ ذلك نور النبوة .

« مابَالُ هَذِى النُّجُومِ حَائِرَةً   كأنَّها العُمْىُ مَالَهَا قَائِد »

وهذه من صور بغداد . وقد رأى فيها المتسولين العميان . . ومن عميان

القلوب ، كما قد رأى قَبلُ منهم بحلب وقال :

«غَضِبْتُ لَهُ لمَّا رَأَيْتُ صِفَاتِهِ بِلاَ وَاصِفٍ والشِّعْرُ تَهْذِي طَمَاطِمُه»

وقال :

« أنَا الّذى نَظَرَ الأَعْمَى إلى أدَبِي وأسْمَعَتْ كَلِمَاتِي مَنْ بِهِ صَمَم »

وقوله بعد :

«أَو عُصْبَةٌ مِنْ مُلُوكِ نَاحِيَةٍ أَبوشُجاعٍ عَلَيْهِمُ وَاجِد »

يشعر ببنى حمدان وأبو الطيِّب هو الواجد . كان جاهلا — ماذا قال (٨) العكبرى ؟ « وأجهل الناس عاشق حاقد » . ولعلّ آل حمدان كلهم كانوا لديه عُمْيًا إلاّ هاته الّتى أحبّ . ألم يذكر أبو منصور فى بعض الأشعار الّتى نسب إليهم ميلا ما من بعضهم إلى غزل المذكر؟ ولعلّ هذا كان مذهبا من الغَيْرة على الُحرَم بين بعض طبقات العلية والفُرْسَان فى ذلك (٩) الزمان وفى أزمنة كثيرة من قبلُ ومن بعدُ والله تعالى أعلم .

قال أبو فراس :

« قَدْ كَانَ بَدْرَ السَّمَاءِ حُسْناً وَالنَّاسُ فِي حُبِّه سَوَاءُ
فَزَادَهُ رَبُّه عِذَاراً تَمَّ بِهِ الُحسْنُ وَالْبَهَاءُ
لاتَعْجَبُوا رَبُّنَا قَدِيرٌ يَزِيدُ فِي الخَلْقِ مَا يَشَاءُ»

وقال :

«قَمَرٌ دُونَ حُسْنِه الأقْمَارُ وَكَثِيبٌ مِنَ النَّقَا مُسْتَعارُ
وغَزَالٌ فيه نِفَارٌ وَمَا يُنْكَرُ مِنْ شِيمَةِ الظِّبَاءِ النِّفَارُ
لأعَاصِيهِ فى اجْتِرَاحِ المَعَاصِى فِي هَوَى مِثْلِه تَطِيبُ النَّارُ
قَدْ حَذِرْتُ المَلاَحَ دَهْراً وَلَكِنْ سَاقَنِي نَحْوَ حُبِّه المِقْدَارُ
كَمْ أُرِيدُ السُّلُوَّ فاسْتَعْطَفَتْنِي رِقْيَةٌ مِنْ رُقَاكَ يَاعَيَّارُ »

تـأمّـل خنوثة قوله « ياعيّار »

وله في مزدوجته الطّـرَديَّة ، ومع احتراس أبى منصور فقد ذكره ولو شاء لاستغنى :

« ثُمَّ دعَوْتَ الْقَوْمَ هَذَا بَازِى فَأيُّكُمْ يَنْشَطُ للْبِرَاز

قَالَ غُلامٌ مِنْهُمْ أَنَا وَلَوْدَرَى مَابِيَدِى لأَذْعَنَا »

ومنها :

سُرَّ وَقَالَ هَاتِ قُلْتُ مَهْلاَ إحْلِفْ عَلَى الرَّدِّ فَقَالَ كَلاَّ

أمَّا يَمِيني فَهْيَ عِنْدي غَالِيَة وكِلْمَتِي مِثْلُ يَمِيني وَافِيَة

فَقُلْتُ خُذْهُ هِبَةً بِقُبْلَة فَصَدَّ عَنِّي وَعَلَتْهُ خَجْلَة

ثُمَّ نَدِمْتُ غَايَةَ النَّدَامَة وَلُمْتُ نَفْسِي أَكْثَرَ المَلامَة

عَلَى مِزَاحِي وَالرِّجَالُ حُضَّرُ وَهْوَ يَزِيدُ خَجَلاً وَيَحْصَرُ

فَلَمْ أَزَلْ أمْسَحُهُ حَتَّى انْبَسَطْ وَهَشَّ لِلصَّيْدِ قَلِيلاً وَنَشِطْ »

وقال حمدان الموصلى من آل حمدان ،

« يَارَسُولَ الحبيبِ وَيْحَكَ قَدْ أَلْ قَى عَلَيْكَ الحبيبُ حُسْناً وَطِيبَا

وَتَعَلَّمْتَ حُسْنَ أَلْفَاظِه تِلْ لكَ فَطَرَّ فتَ بَادِئاً وَمُجِيبَا

وَلَقَدْ كِدْتُ أنْ أَضُمَّكَ لَوْلا أنْ يُسِيءَ الظُّنُونَ أوْ يَسْتَرِيبَا

خِيفَةَ أنْ يَكُونَ ذَاكَ كَمَا قِيـ ـلَ قَدِيماً صَارَ الرَّسُولُ حَبِيباً »

ولاريب أن الرسل كانوا آنئذ غلمانا يدلّك قول أبى الطـيّب :

« كُلَّمَا عَادَ مَنْ بَعَثْتُ إليهَا غَارَ مِنِّي وَخَانَ فِيمَا يَقُولُ »

وبين هذا المذهب والّذى تقدّم بون عظيم .

ولآخر منهم . . قال الثعالبى : وكان أبو الحسن الماسرجىُّ ينشد في تدريسه مسألة « الحرّ لايقتل بالعبد » هذين البيتين وهما لبعض آل حمدان :

خُذُوا بِدَمِي هَذَا الغَزَالَ فَإنَّه رَمَانِي بِسَهْمَيْ مُقْلَتَيْه على عَمْدِ

وَلاتَقْتُلُوني إنَّني أَنَا عَبْدُه وَلَمْ أرَ حُرّاً قَطُّ يُقْتَل بالعَبْدِ »

وهذا يحتمل أن يكون فى جارية . وكونهما فى غلام أشبه .

وقال الثعالبى : وقال بعض الرواة دخلت على أبى العشائر أعوده فى علّة هجمت عليه فقلت مايجد الأمير ، فأشار إلى غلام قائم بين يديه اسمه نسطوس كأنّ رضوان غفل عنه فأبق من الجنّة وأنشد :

«أَسْقَمَ هَذَا الغُلامُ جِسْمِي بِمَا بِجَفْنَيه مِنْ سَقَامِ
فُتُورُ عَيْنَيهِ مِنْ دَلالٍ أَهْدَى فُتُوراً إلى عِظَامِي
وامتَزَجَتْ رُوحُه بِرُوحِي تَمَازُجَ المَاءِ والمُدَامِ»

وهل سار أبو الطيّب على هذا المذهب إذ يقول :

«وَأَغْيَدَ يهوى نَفْسَهُ كُلُّ عَاقِلٍ عَفِيفٍ ويَهْوَى جِسْمَهُ كُلُّ فَاسِقِ
وَمَا الحُسْنُ فى وَجهِ الفَتَى شَرَفاً له إذا لَمْ يَكُنْ فِى فِعْلِهِ وَالخَلائِقِ»

ثم كرهه طبعه وإلى ذلك الإشارة ؟

«وَأَسْرَعُ مَفْعُولٍ فَعَلْتَ تَغَيُّراً تَكَلُّفُ شَيءٍ فِى طِبَاعِكَ ضِدُّهُ»

أم أراد الكناية بالأغيد عن المليحة خَشْيَةَ السيوف الّتى تقطر دما :

«تَذَكَّرْتُ مَابَيْنَ العُذَيبِ وَبَارِقٍ مَجَرَّ عَوَالِينا وَمَجْرَى السَّوَابِقِ
وَصُحْبَةَ قَوْمٍ يَذْبَحُونَ قَنِيصَهُمْ بِفَضْلَةِ مَاقَدْ كَسَّرُوا فِى المَفَارِقِ»

أى ببقايا السيوف الّتى يكسّرون فى رؤس الأعادى ، أو كما قالت (١٠) هند :

«نَحْنُ بَنَاتُ طَارِقٍ الطِّيبُ فِى الْمَفَارِقِ
والدُّرُّ فِى الْمَخَانِقِ»

ويكون القنيص العاشق وذلك بقايا الطيب :

«وَلَيْلاً تَوَسَّدْنَا الثَّوِيَّةَ تَحْتَهُ كَأَنَّ ثَرَاهَا عَنْبَرٌ فِى المَرَافِقِ»

وعن أبى الفتح أنّه أراد الوسائل (هكذا) والصواب الوسائد كما يدل سياق الشرح من بعد . قال العكبرى وقال أبو الفتح إنّما أراد الرسائل

(هكذا) وقال الخطيب لم يُرِد الرسائل (هكذا)وإنّما أراد مرافق الأيدى لأن الصعلوك المقاتل لاوسادة له ، وقول أبى الفتح هو الصحيح . أ . هـ . ولو قال : « وكلا الأمرين وجه » لقارب إن شاء الله .

وذلك أنّه كأنّه جعل الوسائد على ليل فوق الثوية ، فما فضل من المرافق عنهن مسه الثرى ومس العنبر والثياب المطيبات والحديث المُخْفيه (١١)
سماعُ المَزاهر على القُطْرُبُلّى فلاتزال له بقية أبد الدهر
« وَخُذْ سَمْعِي إليْكَ فإنَّ فيهِ بَقَايَا مِنْ حَدِيثٍ كَالْعُقُودِ »
ــ كالدُّرّ فى المخانق ــ

وليست الثويّة هنا هى الموضع الّذى قرب الكوفة ، الّذى كان به قبر (١٢) أبى موسى والمغيرة بن شعبة ــ ولعلّه لم يكن إلاّ مقابر ، قال حارثة بن بدر الغدانى يرثى زياداً :
«صَلّى الإلهُ على قَبْرٍ وطَهّره عِنْدَ الثَّوِيّةِ يُسْفَى فَوْقَه المُورُ »
ــ ولكن الأرض الّتى نزلها ضيف ليل . والعرب تقول الثويّة لما ارتفع من الأرض وتقول لمأوى الإبل ثويّة ومن رحل فى جمع غفير كان مأوى إبله حيث يبيت . وتقول لمنزل الضيف الثوىّ . وإنّما كان أبو الطيّب بالشام وذلك من الكوفة بعيد . ولعلّه تعمد هذا اللفظ للتعمية ، ليُظنَّ به ذكرُ عهد من الكوفة .

وأتى الشراح الوهم من قوله من بعد :
« وَكَمْ دُونَ الثَّوِيَّةِ مِنْ حَزِينٍ يَقُولُ لَهُ قُدُومِى ذَا بِذَاكَا
ومن عَذْبِ الرُّضَابِ إذا أنَخْنَا يُقَبِّل رَحلَ تُرْوَكَ والوِرَاكا
يُحَرِّمُ أن يَمَسَّ الطِّيبَ بَعْدِى وَقَدْ عَبِقَ العَبِيرُ بِهِ وَصَاكا »

وهذه ثويّة الكوفة والكوفة دونها ــ ثم هى بعد لاتخلو من ذكرى ثويّة الشام إن كان الحزينَ بها أراد. والموصوفات فى قوله ومن عذب الرضاب (١٣) الخ جواريه بعدما علّمته الدعة اتخاذ الجوارى .

قالوا شكا أحد الملوك الأقدمين السأم والوَصَب فقيل له في ركوب قارب بين عشرين صبايا في أزر قصار يخففن به ويتواثبن في النهر ، فشفاه ذلك وجعل يعود إليه كلما أحسَّ وَصَباً أو سآمة .

« وَلَيْلاً تَوَسَّدْنَا الثَّوِيَّةَ تَحْتَهُ   كَأَنَّ ثَرَاهَا عَنْبَرٌ فِي المَرَافِقِ
بلادٌ إذا زَارَ الحِسانَ بِغَيْرِهَا   حَصَى تُرْبِهَا ثَقَّبْنَه لِلْمَخَانِقِ
سَقَتْنِي بِهَا القُطْرُبُلِّيَّ مَلِيحةٌ   عَلَى كَاذِبٍ مِنْ وَعْدِهَا ضَوءِ صَادِقِ »

وهي الّتي قد يكون عنها كنى

« سُهادٌ لأجْفَانٍ وَشَمْسٌ لِنَاظِرٍ   وَسُقْمٌ لأبْدَانٍ ومِسْكٌ لِنَاشِقِ
وأغيدَ يَهْوَى نَفْسَهُ كُلُّ عَاقِلٍ   عَفِيفٍ وَيَهوى جِسْمَهُ كُلُّ فَاسِقِ »

أي ذلك لسوى الشاعر . أو لديه المتعتان ، كقول أبي نواس « لهـا مُحِبَّان . . . البيت »   (١٤)

« أَدِيبٌ إذا مَا جَسَّ أَوْتَارَ مِزْهَرٍ   بَلا كُلَّ سَمْعٍ عَنْ سِواها بِعَائِقِ
يُحَدِّثُ عَمَّا بَيْنَ عَادٍ وَبَيْنَه   وَصُدْغَاه فِي خَدَّيْ غُلامٍ مُرَاهِقِ
وَمَا الحُسْنُ فِي وَجْهِ الفَتَى شَرَفاً لَهُ   وَلَكِنَّهُ فِي فِعْلِهِ وَالخَلائِقِ »

ويقوّي أنَّ هذا كناية قوله « وَصُدْغَاهُ فِي خَدَّيْ غُلامٍ مُرَاهِقِ » ، إذ أغيد وحدها تجزىء عن هذا التفصيل. وكأنَّ العُكبري أحسَّ بعض الذى نرى إذ نبَّه إلى أخذ المتنبى من (الحكمى) أبي نواس حيث قال :

« فَتَنَتْنِي وَصِيفَـةٌ   كَالْغُلامِ المُرَاهِقِ
هِمَّةَ السَّالِكِ العَفِيـ   ـفِ وَسُؤْلُ المُنَافِقِ »

وعن أبي الفرج الببغاء أنَّ المراد بالأغيد ههنا غلام بعينه وروايته تحمل(١٥) مايكذّبها (راجع المرشد ٣ ـ ٣٠٤) إذ الّذى وصف من الغلمان فدم وهذا أديب ماهر بالمزهر ولعلّه أخذ ذلك عن الفارابى ، ولعلَّ الفارابى لقى أبا

الطيِّب وأنس به وكـــان شيخا متفرِّدا ، شاهد ذلك نفوره من مجلس سيف الدولة ، ومات رحمه الله بعد اتصال أبى الطيِّب بسيف الدولة بعامين (٣٣٩ ه) وكان أكثرُ مُقامه بدمشق ، قالوا وكان يحب المياه والبساتين مع الزهد وجفاء في الطبع ومعرفة باللغات وعلوم الماضين . كان فنانا . وذكر أبو الطيِّب مايشعر بغوطه دمشق حيث قال :

«تعَوَّد ألاَّ تَقْضِم الحَبَّ خَيْلُهُ إذا الهامُ لم تَرْفَعْ جُنُوبَ العَلائِق
ولاتَرِدَ الغُدْرَانَ إلاَّ وَمَاؤُهَـــا
مِنَ الدَّمِ كالرَّيْحَانِ تَحْتَ الشَّقَائِقِ»

وهذا التشبيه جاء بعد الصور الّتى تقدَّمته مباينا لجوها كلَّ المباينة ، وليس أبو الطيِّب بمن كان يروم مجرَّد الزخرفة كقول الآخر : (١٦)

«كأنَّ مُحْـــمرَّ الشَّقِيـ ـقِ إذا تَصَـوَّبَ أوْ تَصَـعَّدْ
أعْـــلامُ يَاقُوتٍ نُصِـ ـبْنَ عَلَى رِمَاحٍ مِنْ زَبَرْجَدْ»

فيبدو هذا كأنَّه من ذاك . إذ لاينبغى مع الصور الّتى تقدمت أن نغفل صورة الغدران ذات الماء العذب تحت الريحان والشقائق أو كالريحان تحت الشقائق . أليس فى هذا نَفَسُ مقاله من بعد :

«أبُوكُمْ آدمُ سَنَّ الْمَعَاصِي وَعَلَّمَكُمْ مُفَارَقَةَ الجِنَــانِ»

ولانغفل عن قوله فى الكلمة نفسها :

«يُفَرِّقُ مابَيْنَ الكُمَاةِ وَبَيْنَهَا»

يعنى يفرق بين الفرسان ونسائهم والضمير يعود إلى الممدوح وهو سيف الدولة :

«بضَرْبٍ يُسلىّ حَرُّه كُلَّ عَاشِقِ»

كأبى الطيِّب . أتى الظعن : أى النساء الظعينات

« أَتَى الظُّعْنَ حتّى ماتَطِير رَشَاشَةٌ
مِنَ الدَّمِ إلاّ فِي نُحُورِ العَوَاتِقِ » (١٧)
وهي الشواب الكواعب . وهذا كقوله آنفا :
« كالرَّيْحَانِ تَحْتَ الشَّقَائِقِ »
« بِكُلِّ فَلاةٍ تُنْكِرِ الإنْسُ أرْضَهَا ظَعَائِنُ حُمْرُ الحَلْيِ حُمْرُ الأيانِق »
وهؤلاء ظعائن آل حمدان والشاهد « حُمْرُ الحَلي والمطايا والجلابيبِ »
ويوضح ذلك قوله بعد :
« وَمَلْمُومَــةٍ سيفيَّةٍ رَبَعيّةٍ يَصيحُ الحَصى فيها صِيَاحَ اللقَالِقِ »
واللقالق من الطير بأصوات كوقع الحوافر
ثم قال :
« تَوَهَّمَها الأعرَابُ سَوْرَةَ مترَفٍ تُذَكِّرهُ الصَّحراءُ ظِلَّ السُّرادقِ »
أى مترف يخرج للصحراء على وجه النزهة ويضرب لها سرادقه ، قالوا كان هشام بن عبد الملك يفعل ذلك . وما سمّاه مترفا إلاّ لعلمه أنّه مترف
« فَذَكَّرْتُهم بِالماءِ سَاعَةَ غَبَّرَتْ سَمَاوَةُ كَلْبٍ فى أنوفِ الحَزائِقِ
وَكَانُوا يَرُوعُونَ المُلُوكَ بأنْ بَدَوْا وأنْ نبتَتْ فى الماءِ نَبْتَ الغَلافِقِ »
والغلفق ضرب من النبت يطفو على الماء . أراد أن الملوك لا يصبرون عن الماء ، نبتوا فيه كنبت الغلفق . والصورة غير بعيدة من صورة الريحان تحت الشقائق .
ومكان عناية أبى الطيّب بالحصى فى هذه الكلمة الجيدة من شعره (١٨) يُتنبه له : « كأنَّ حَصَاها عَنْبَرٌ فى المَرافِقِ » . « يَصِيحُ الحَصَى فِيها صِيَاحُ اللقَالِقِ » وفى لفظ اللقالق نفسه حكاية لصوت الحصى كما ترى .
« حَصَى تُرْبِها ثُقِّبْنَه للمَخَانِقِ » .
وفى نونيّة شعب بوّان قوله :
« وَأمْوَاهٌ يَصِلُّ بِهَــا حَصَاها صَلِيلَ الحَلْي فِي أيْدِي الغَوَانِي »

منظر الحصى ومسّه وموسيقا لقالِقِه وصليله كصليل الحَلْي . .

قالت الأندلسية

« يَروُعُ حَصَاهُ حَالِيَةَ العَذَارَى فَتَلْمَسُ جَانِبَ العِقْدِ النَّظِيمِ »

كل أولئك كان له بقلب أبى الطيِّب أيّما علوق . . .

كما عَلِقَ الحصى بالمرافق من الوسائد أو « طِفْلَةُ الكَفِّ عَبْلَةُ السَّاعِدِ »

هل كان رحمه الله فى خواص سيف الدولة الأربعة الذين ذكر ابن خلّكان أنّهم صلّوا على أبى نصر الفارابى إذ دفن بظاهر دمشق – بثويّة دمشق :

« وَكَمْ دُونَ الثَّوِيَّةِ مِنْ حَزِينٍ يَقُولُ لَهُ قُدُومِى ذَا بِذَاكَا »

ولشعر أبى الطيِّب أصداء تتجاوب . والصدق منهجه أبدا ، قال ابن جنِّى ماعرفته إلاَّ صادقا (الخصائص مصر ٢٤٨). قال فى الداليَّة التى ودعَّ بها ابن العميد :

نَسِيتُ وَمَا أَنْسَى عِتَاباً عَلَى الصَّدِّ ولاخَفَراً زَادَتْ بِه حُمْرَةُ الخَدِّ
وَلاَلَيْلَةً قَصَّرْتُها بِقَصُورةٍ أَطَالَتْ يَدِى فِى جِيدِهَا صُحْبَةَ العِقْدِ
تَمَنٍّ يَلَذُّ المسْتَهَام بِمِثْلِه وإنْ كانَ لايُغْنِى فَتِيلاً وَلاَ يُجْدِى
وغيظٌ على الأيَّامِ كالنَّارِ فى الحَشَى وَلَكِنَّه غيْظُ الأَسِيرِ عَلَى القِدِّ »

بقصورة أى محبوسة مقصورة « حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِى الخِيَام » والقصورة والقصيرة بمعنى وعلى ذلك الرواية الأخرى .

« وَلاَلَيْلَةً قَصَّرْتُها بِقَصِيرةٍ »

وهى غير جيِّدة وكأن فيها تعريضا ممَّن نسبها إلى أبى الطيِّب إن لم تك أوَّلَ ماقال ثم أعرض عنه بعد التروِّى . واستشهد العكبرى بقول كُثَيِّرٍ :

« وَأَنْتِ الَّتِى حَبَّبْتِ كُلَّ قَصِيرَةٍ إلىَّ وَمَا تَدْرِى بِذَاكَ القَصَائِرُ
عَنَيْتُ قَصِيرَاتِ الحِجَالِ وَلَمْ أُرِدْ قِصَارَ الخُطَا شَرُّ النِّسَاءِ البَحَاتِرُ »

ولم يصنع كُثَيِّرٌ رحمه الله شيئا بما كان قصيرا أحمق كذابا . . لكأنَّه رحمه(١٩)

الله مانسب هذا كله إليه إلاَ للتقليل من قيمة تشيُّعِه فتأمَّل .

وقول أبي الطيِّب مشعر بمعنى القصر ، كعنب ، يدلُّك عليه (أطالت يدى في جيدها صُحبَةَ العِقْدِ) . والقصار مما يَكُنّ غُلاميات ملاحةً :
« سَقَتْنى بها الْقُطْرُ بُلِّيَّ مَليحةٌ على كاذبٍ من وَعدِها ضَوْءُ صادق »
أحسن ماشاء .

إذ في الطول جَهارةٌ من تذكير تحمل على مزيد من التأنيث على هذا (٢٠) يصح تأويل ماأولنا في قوله : « وأغْيَد يَهْوَى نَفْسَه كُلُّ عاقلٍ . . . البيتِ » وقوله لابن العميد يصف الطريق :
« إذا ما استَجبْنَ الماء يَعْرِض نَفْسَه كَرَعْنَ بِسبْتٍ في إناء من الورد »

وروى استحين بالياء وهو جيِّد – فيه صدى من قوله « كالريحان تحت الشقائق » .

وقال أبو منصور : « أنشدني أبو الفضل عبيد الله بن أحمد الميكالى هذه الأبيات ولم يسم قائلا ثم وجدتها في بعض التعليقات منسوبة الى بعض آل حمدان :

« أَجِلْ عينيك في عيني تَجِدْها مُشَرَّبةً نَدَى ورد الخدود
وصافِحنِي تَجِدْ عَبَقاً بكفى يَضُوع إليك من رَدْع النهود
وخُذْ سَمْعى إليك فإنَّ فيه بقايا من حديثٍ كالعقود »

والى هذه المعانى نظرت حفصة الركونية حيث قالت :

« أزورك أم تزور فإن قلْبي إلى ما تشتهى أبداً يَميلُ
فثغري مَوْرِدٌ عذبٌ زُلالٌ وفَرْعُ ذؤابتى ظِلٌّ ظليل
وهل تَخْشى بأن تَظمْا وتَضْحى إذا وَافى إليْكَ بِيَ المقيل
فَعَجِّلْ بالجوابِ فما جَميلٌ إباؤك عن بُثَينة يا جميل »

قالوا وفيها قتلَ عبدُ المؤمن أبا جعفر بن سعيد (ياقوت ٩ – ٢١٩ – ٢٢٧) والراجح من سياق الثعالبي أنه عرَفَ من المنسوبة إليه الأبيات وكتم.

وعسى أن يكون أنبأه بذلك الميكالىُّ أبو الفضل، فقد كان كاسمه من الفضلاء، فأراد ستره .

وقـــول فتاة آل حمدان ــ اذ لاتكون قائلة هـذا غير فتاة ــ :

« أجل عينيك فى عينى »

كقول أبى الطيِّب :

«شَاميَّة طالما خَلَوْتُ بهـــا تُبْصِر فى ناظرى مُحَيَّاها» (٢١)

وهذا قولها « مُشَرَّبة نَدىَ وردِ الخُدود »

«فقَبّلت ناظـــرى تُغالِطُنى وإنَّمـــا قَبَّلت بـه فاهـــا»

وقال أبو الطيِّب : « لعينيك مايلقى الفؤاد ومالَقِى » وقال :

« أفسدتْ بيننا المودَّاتِ عيناها » ــ وقال وهو بفارس :

« إن الذين أقمـــتَ واحتملوا أيّامُهم لديارهـــم دُوَل

الْحُسن يَرْحل كلّما رحلوا معهم وينْزل حيثما نزلوا

فى مُقْلَتَىْ رشـــأٍ تديرهما بدويّةٌ فُتِنَتْ بها الْحِلَلُ »

أو كما قال :

«أين الْمَعِيزُ من الآرَام ناظِرةً وغَيْرَ ناظِرةٍ فى الْحُسْنِ والطيب»

هذا قوله : « تديرهما » . وقول الفتاةفى عجز البيت :

« مشرَّبة ندى ورد الخـــدود »

كقوله : ــ

« حيثُ التقى خَدُّها وتُفَّاحُ لُبُنا نَ وثَغْـــرى عَلَى حَمَّياها »

وحمرة الخدِّ والدموع الّتى تَنْهَلُّ عليه والنواظر النُّجْلُ كل ذلك كثير الدوران فى نسيب الشعراء ؛ وهو فى شعر أبى الطيِّب قبل أن يصير إلى حلبِ سيفِ الدولة كقوله « أيا خدّد الله ورد الخدود » وقوله « ببياض الطلى وَوَرْدِ الخدود » وكقوله «عزيز أسى من داؤه الحدَقُ النُّجْلُ »ولكن فى كلِّ ذلك العموم وليس بمُوشِكٍ أن يشفَّ عن شخص بعينه أو أن يمَّ بتجربة كقوله

« تُديرهُما بَدَوِيّةٌ فُتِنَتْ بها الحلل » « أفسدت بيننا المودّاتِ عيناها »

« تُبْصِر في ناظري مُحيّاها »

« تَبُلُّ خَدَّيَّ كلّما ابتسمتْ من مَطَرٍ بَرْقُهُ ثَناياها »

« مهماً كلُّها يُولَى بجَفْنَيْه خدُّه »

« ولاخفراً زادت به حُمْرَةُ الخد »

« ألَمْ يرَ هذا الليلُ عينيك رؤيتى »

« إذا ظَفِرت منك العيون بنظْرة »

« ففى تغرم الأولى من اللحظ مُهْجَتى

بثانيةٍ والمتلفُ الشّئَ غارمه »

« مطاعة اللحظ فى الألحاظ مالِكَةٌ

لمقلتيها عَظِيمُ المُلْكِ فى المُقَل »

وهل كان فى خدّها خالٌ يزيد له خدُّها احمرارا حين يتورد — أم أراد بذلك كِبْرهَا : « وغَضْبىَ من الإدلال سَكْرَى من الصِّبا » وحسبها ونسبها ، ويقوِّى هذا مكان « فىَّ » و « مِنىّ » من قوله :

« عَوَاذِلُ ذاتِ الخالِ فىّ حَوَاسِدُ وإنّ ضجيع الخود مِنّى لماجد

يردُّ يداً عن ثوبها وهو قادر ويَعْصى الهوى فى طيفها وهو راقد »

ولاريب أنّ صاحبة « عواذل ذات الخال » هى الغلاميَّة القصورة ذات « البعير المقلَّد الواخد » بآية ماقال :

« مررت على دارِ الحبيبِ فحَمْحَمَت جَوادى وهل تَشْجُو الجيادَ المَعَاهِدُ

وما تنكرُ الدهماءُ من رسمِ منزلٍ سقتها ضَريبَ الشَّولِ فيه الولائِد »

وإنّما كان هذا بصحصحان البادية حيث شتا وصاف . هذا وقولها :

« وصافحْنى تجد عَبَقاً بكفى »

يطابق قوله : « ياطَفْلَةَ الكفِّ عَبْلَةَ السَّاعدِ »

ونَعْتُ الكفِّ في الغَزَلِ قليل وما نَعَتَه أبو الطيِّب إلاَّ وهو يسجِّل إحساسا . وقولها :

« يَضُوعُ إليك من رَدْعِ النُّهودِ »

أي مالاصَقَهُنَّ من الطيب — قال الوليد بن يزيد : « ألا أطير » أو هكذا (٢٢) زعم أبو حمزة الخارجي —

كقول أبي الطيِّب :

« وقد عبق العبير به وصاكا »

وهو في صفة جواريه بالكوفة اقتبسه من صفة صاحبة الأبيات. وكون العبق من ردع النهود هو عين قوله : «أطالت يدي في جيدها صحبة العقد» (٢٣) وقد تأمَّله يعبث به فذلك قولها تريده إلى دنو أقرب :

وَخُذْ سمعي إليك فإنَّ فيه   بقايا من حديث كالعُقُود

« بلا كل سمع عن سواها بعائق » — ومن تَأَمُّلِه العقدَ حيث هو قال :

«لها بَشَرُ الدرِّ الذي قُلِّدَتْ به   ولم أرَ بدراً قبلها قُلِّدَ الشُّهْبَا»

وهو شرح قوله في الطيف :

« بتنا يُناولنا المدام بِكَفِّه »

« سقتني بها القُطرُبُّليَّ مليحَةٌ »

« من ليس يخطر ان نراه بباله »

« نجني الكواكبَ من قلائدِ جيدِه   ونَنَالُ عَيْنَ الشمس من خُلْخَاله»

وهذا كقوله « وشمس لناظر » والخلخال بقايا الحديث أو كما أشار في قوله :

«وقد طرقْتُ فتاةَ الحيِّ مرتدياً   بصاحبٍ غير عزْهاةٍ ولاغَزِلِ
فباتَ بَيْنَ تَراقِينا نُدَفِّعُه   وليس يعلم بالشكوى ولا القُبَلِ
ثم اغْتَدى وبه من رَدْعِها أثرٌ   على ذُؤابته والْجَفْنِ والخِلَلِ»

قالوا الصاحب غير العزهاة ولا الغزل هو السيف — وإنما أراد نفسه

فجعل السيف كناية ، ونظر إلى قول سُحَيم :

« فما زال ثوبى طيِّبا من ثِيابها   إلى الحول ِ حتى أنهَجَ البُرْدُ باليا »

أنهج بلى ، والعِزْهاة غير العزِل .

يدلُّك على إرادته نفسه قوله :

« فإمَّا تَرَيْنى لاأُقيم ببلدةٍ   فآفةُ غمدى فى دُلوقى وفى حَدِّى »

وقد عذلت العواذلُ الحواسدُ ذاتَ الحال قبل اتصال أبى الطيِّب بسيف الدولة فى مقدمة لاميَّته فى أبى العشائر حيث قال :

« لاتحسبوا رَبْعَكم ولاطَلله   أوَّلَ حىٍّ فِراقُكم قَتَلَه

قد تلِفتْ قبلَه النفوسُ بِكُمْ   وأكْثرَت فى هَواكُمُ العَذَلَه »

وقوله تَلِفتْ كقوله فى الداليَّة الَّتى قالها بفارس من نفس هذا الوزن — « فَحَبَّذا تَلَفٌ أَلْصَقَ ثَدْيى بثَدْيك الناهد... البيت » ولايخفى أن هذا هو عين قول قول الفتاة : « يَضُوعُ إليك من رَدْعِ المنهود »

« خلا وفيه أهلٌ وأوْحَشَنا   وفيه صِرْمٌ مُرَوِّح إبِلَه »

— الصرم الجماعة من الخِيام وأهلها وهذا حيث كانت اصطافت أو شتت —

« لو سار ذَاكَ الحبيبُ عن فَلَكٍ   مارَضِىَ الشمسَ برجُه بَدَلَه »

الشمسُ مفعولة ، وبرجُه فاعــل . وحبيبة أبى الطيِّب القَصُورة القصيرة عنده بدر ، فمتى ذكر أنَّها شمس كان ذلك من أجل التشبيه أو التفضيل كقوله : « شمس لناظر » — وكقوله ههنا « مارضى الشمس برجُه » أى قصره لايرضى بالشمس بديلا منه وهو بدر وألغز ببرج السماء كما ترى . ولكونها قصورة قصيرة عبلة غلاميَّة جعلها بدرا فما كان يخفى عنه أن مذهب الجاهلية (مانال أهل الجاهلية كلهم شعرى) تشبيه النساء بالشموس :

« تبدَّت لنا كالشَّمس بين غَمامة   بدا حاجب منها وضنَّت بحاجب

وهذه طُوَالة كما ترى — وطُوالات من قال فيهن :

« بأبى الشموسِ الجانحات غواربا   اللابِسات من الحريرِ جَلابِباً »

فقد سَمَوْنَ ليبهرْنه من الجلابِب ، كما ترى — ثم قال :

« أُحِبُّه والهــوى وأدؤرَه   وكلُّ حبٍّ صبابةٌ وَوَلَــه »

وانما قال «صبابة ووله» لما قال من قبل «والهوى» وهو يعلم أنّ الهوى ههنا «تَلَفٌ»

« يَنْصُرُها الغيثُ وَهْيَ ظامِئَةٌ   إلى سواه وسُحْبُها هَطِلَه »

وهي ظامئة إليه هــو، أبو الطيِّب — وصورة هــذا السحاب بقيت فــي فؤاده إلى حين زار ابن العميد فقال يصف المطر في طريقه إليه :

«كفانا الربيعُ الغَيْثَ من بركاته   فجاءته لم تَسْمَعْ حُداءً سوى الرعد
اذا ما استجبنَ الماءَ يعرضُ نَفسَه   كرَعْنَ بِسبْتٍ في إناء من الورد»

اذا مااستحين كما قال أبو الفتح جيد والكناية لاتخفى ، كأن كل شربة أو حسوة إشارة «بقبلة» :

« أتذكرُ إذ تودِّعُنا سُلَيْمَى   بفرعِ بَشَامةٍ سُقَى البَشَامُ »(٢٤)

ويقوِّى هذا الوجه والله أعلم قوله :

« وأشنبَ معسول الثَّنيَّاتِ واضحٍ   سَتَرْتُ فمي عنه فقبَّل مفرقي »

ثم يقــول :

« وَاحَرَبا منكِ ياجَدَايتَها   مُقِيمةٌ فاعلمي ومُرْتَحِلَه »

« على البعير المقلــد الواخــد »

وهذه صورة أبي العشائر حيث قال :

«وفارس الأحْمَرَ المُكَلَّل في   طيِّىءِ المُشْرَعِ القَنا قِبَلَهْ»(٢٥)

وفي البيت نظر إلى قولِ عنترة

«أشطانُ بئرٍ في لَبَانِ الأدهم»   «فأزْوَرَّ من وقع القنا بِلَبَانِه»

ولكنَّه بعدُ في أعماقه صورة هودج . هــو الأحمر المكلل هــنا والمقلد الواخد هناك .

« لو خُلِطَ المسك والعبير بهــا   ولستِ فيها لخلتها تفِلَهْ »

أي لا طيبَ بها .

«أنا ابنُ من بَعْضُه يَفوقُ أبا البَا حِثِ وَ النَّجلُ بعُض مَنْ نَجَلَه»

وهذا جواب لمن لامها فيه أنَّه لانسب له مثلا . ومثل هذا قوله :

«وانَّ ضجيع الخَوْدِ مِنِّي لماجد»

وهو موضع الاستشهاد وقد تكرَّر في شعره كقوله :

«ولَسْتُ بقانعٍ من كلِّ فضلٍ بأن أُعزى إلى جَدٍّ هُمام»

وقولـــه :

«وإنمَّا يَذْكُر الجُدُودَ لهم من نَفَرُوه وأَنْفَدوا حِيلَـــه»

كأنَّه تعريض بهذا العـــاذل الّذي تَنَقَّصَهُ في نسبه، ثم انتابته نشوة مرح شديدة الشبه بنشوته بعد لقاء درب القلة :

«فَخراً لعضبٍ أروح مُشْتَمِلَهْ وسمهريٍّ أرُوحُ مُــعْتَقِلَه

فــلا مبالٍ ولامداجٍ ولا وانٍ ولا عاجــزٍ ولا تُــكَلَه

ودراعٍ سِـــفْته فَخَرَّ لقــىً في الملتقى والعجاجِ والعَجَله»(٢٦)

«رَمَى الّدرْبَ بالجرْدِ الجِيَادِ إلى العدَا»

«شَوَائِلُ تَشْوَالَ العَقَــارِب بالقَنَا»

«وسامعٍ رعته بقــافِيَــةٍ يحَارُ فيها المُنَقِّحُ القُــوَلَه

وربَّما يَشْهَدُ الطعامَ معي من لا يُساوى الخُبْز الذى أَكَلَه

ويُظهِرُ الجهَل بي وأعْرِفُه والدُّرُّ درٌّ بِرَغْمِ من جَهَله»

لايكون هذا المسعودِيُّ الّذى أوصله إلى أبى العشائر وحسده من بعدُ وصار يتناوله عنده ولكنَّه ذو خطر تجاهله وهو يعرف قدره ، لعلَّه أبو فراس والذى لايساوى الخبز الذى أكله هـــو المسعودى وليس موصوف البيتين المعرَّضُ به فيهما رجلا واحدا ضربة لازم . وتأمَّل بعدُ قوله :

«ويُظهرُ الجهل بـــي وأعْرِفُه والدُّرُّ دُرٌّ برغم مـــن جهله

مستحييا من أبي العشـــائر أن أسحبَ في غير أرضه حُلَلَهْ»

هل سأله المدح ليستعلي عليه وإلاّ فما قول أبي منصور : وإنَّما لم يمدحه ومدح من دونه من آل حمدان . . . الله الله وهل كان أبو العشائر دونه ؟!

« من نَفَروه وأنفدوا حيَلَه »

وقد كان أبو العشائر يحب ابا الطيِّب ويُدْنيه ويفهمه .

«قد هذَّبت فهْمَه الفقاهَةُ لى   وهذَّبت شعرىَ الفصاحةُ لَه
فصرت كالسيف حامداً يَدَه   لايَحْمَد السَّيْفَ كُلُّ من حَمَلَه»

وشبيه بنسيب هذه اللاميَّة نسيب اللاميَّة « اثلث فإنا أيها الطلل » فى عضد الدولة ، إلاّ أنّه أجود لعظم التجارب وتمام النضج .

« اثلث فإنّا أيها الطّلَلُ   نَبكى وتُرْزِم تحتنا الإبل
أولا فلا عتب علَى طلل   إنَّ الطلولَ لمثلها فُعُل
لو كنت تَنْطِق قلت معْتذرا :   بى غير ما بك أيهَّا الرجل
أبكاك أنَّك بعضُ من شغفوا   لم أبكِ أنّى بعضُ من قُتلوا »

وهذا كما ترى إفتنان لما كان أجمل قبلُ ، حيث قال :

« ولاتحسبوا ربعكم ولاطلله   أوّلَ صبٍّ فِراقُكُمْ قَتَلَه »

القتيل الآن الطلل إذ شتّان فارسُ والشامُ . والديار الّتى ماتت هى الشاعر وهو أيضا الواقف عليها وذلك قوله :

«إنَّ الّذين أقمتَ واحتملوا   أيّامُهُمْ لديارِهِمْ دُوَل»

والمقيم الشاعر إذ هم عنه بائنون

«الحُسْن يرحلُ كلّما رحلوا   معهم وينزلُ حيثما نزلوا»

وهذا قوله « مقيمةً فاعلمى ومُرْتَحِلة »

«فى مُقْلَتَىْ رشأ تُديرُهُمَا   بَدَوِيَّةٌ فُتِنَتْ بها الحِلَل»

إذ حلّت بها وليست منها فمنظرها باهر مستطرف .

« تشكو المطاعم طُولَ هجرتِها   وصدودَها ومن الّذى تَصِل »

وذلك لتعللها عن العَرُوض وهو تمهيد لقوله بعد

« ماأسأرتْ فى القعبِ من لبنٍ   تَرَكَتْهُ وَهْوَ المسكُ والعسلُ »

فإذا مُدَّ لها القَعْبُ أصابت منه وأعطت أباالطيِّب سؤراً هو المسك والعسل

« لو خُلِطَ المسْكُ والعبيرُ بها ولست فيها لخلتها تفلـــه »

كما أسأرت في يده غدائرها فغمسه في الكأس وصار اللبن خمرا — (٢٨)

وقد عبق العبير به وصاكا

« قالت ألا تصحو فَقلت لها أَعْلَمْتِني أنّ الهوى ثمَـــلُ »

أهنا إشارة إلى قوله « وايل توسَّدنا النوبة تحته ... البيت » ؟

وقد قارب الانطلاق كما ترى ثم اقتضب إلى بتر مفاجىء حيث قال بعد هذا مباشرة :

« لو أنّ فنّاخسْرَ صبّحكم وَبَرزْتَ وحدكَ عاقَه الغَزَلُ »

وهو تخلص إلى المدح .

وهو اعتذار أيضا إلى فناخسر أنّ هذا الغزل الصادق صرفه وقتا عن مدحه . قال ابن قتيبة : « كان بعض الرجّاز أتى نصرَ بن سيار والى خراسان لبني أمية فمدحه بقصيدة تشبيبها مائة بيت ومديحها عشرة أبيات إلى آخر ماقال » .

ثم هو أمانِيّ .

عاد الشاعر من المشرق وهو أمير ذو كتائب وبرزت وحدها فعاقه(٢٩) الغزل — أى انهزم كما قال أبو الفتح عن أبـــى الطيِّب — وتفرقت كتائبه وأصيبت عندَ ديْرِ العَاقُول . (٣٠)

. . قال ابن خلكان وهو محقق « من الجانب الغربيّ من سوادِ بغداد عند دَيْر العَاقُولِ بينهما مسافةُ ميلين » أ . ه . فمن زعم أنّه قتل أبعدَ من ذلك لم يصب .

« . . ان الملاح خوادعٌ قتْلُ »

قتلنه كما قتلن الربع . . « من الدم كالريحان تحت الشقائق »

« ما كنتِ فاعلةً وضيفُكمُ ملكُ الملوكِ وشأنك البُخُلُ

أفتمنعين قِرىً فَتفتْضِحي أمْ تبذلين له الّذى يَسَـــلُ »

لقد كان فى أبى الطيِّب رحمه الله مرح كثير وطموح أيّما طموح

« بل لا يَحِلّ بحيث حلّ بـه بُخلٌ ولا جور ولا وجل »

ومن الجور هرب والوَجَل ملاحقه :

« يَنْصُرها الغَيْثُ وَهْىَ ظامئةٌ إلى سواه وسُحْبُه هَطِلَه»

لازال الغيث والرىّ والريحان والشقائق والروض —

« كلما رحَّبت بنا الروضُ قلنـا حُلبٌ قصُدنا وأنت السبيل»

والرماح كل ذلك أبدا ملء فؤاد الشاعر ، قال :

« يُشتاق من يَدِه إلى سَبَلٍ »

— هذا حين أخذ فى المدح —

« شَوْقاً إليه تَنْبُتُ الأسَلُ » (٣١)

مسكين أبو الطيِّب

« سَبَلٌ تَطُولُ المكرُمَاتُ بِهِ والمجدُ لا الحَوْذَانُ والنَّفَلُ »

وهذان من نبات البادية طيبان . « حلب قصدنا وأنت السبيل » ....

كما ترى

« وإلى حصى أرضٍ أقام بها للناس من تقبيلها يَلَلُ » (٣٢)

إذا زار الحسان بغيرها حصى تربها ثقبنه للمخانق

ولكن ليس فى هذه اللاميَّة المرح الذى فى . .

« ودارع سِفْتُه فخرَّ لَقىً فى الملتقى والعجاجِ والعَجَلة»

ولكن موسيقا وحزن عميق وبهجة راقصة مع ذلك :

« مَا أسأرتْ فى القَعْبِ من لبنٍ تَرَكَتْهُ وَهْوَ المِسْكُ والعَسَلُ »

« بَدَوِيَّةٌ فُتِنَتْ بها الحِلَل »

« وصُدُودَها ومن الَّذى تَصِلُ »

« الحسنُ يَرْحلُ كلَّما رَحلوا مَعَهم وينزلُ حيثما نَزَلوا»

« عَلَى البَعِيرِ المُقَلَّدِ الوَاخِدِ »

ومهما يكنْ من شيء فمنذا عسى أن تكون فتاة أبى الطيِّب الَّتى عذلها فيه العواذل

« أنا ابن من بعضه يفوق أبا الباحث ... »

قبل اتصاله بسيف الدولة . وهُنَّ من آل حمدان ، قَصُورَةٌ ، قصيرة عبلة الساعد ، غير لثغاء ؟

أليست صاحبة اللاميَّة ـــ لك يامنازل ـــ لثغاء ضاوية : (٣٣)

« كم وقفة سَجَرَتك شوقا بعدما غَرِىَ الرقيبُ بنا ولَجَّ العاذلُ
دونَ التعانق ناحلين كَشَكْلَتَىْ نَصْبٍ أدقَّهما وضَمّ الشَّاكِلُ »

وما أنساه إيَّاها نيلُ الثويَّة إذ هى فى القافية صدى حيث قال :

« وَسَوْقَ عَلِىٍّ مِن مَعدٍ وغيرِها قبائِلَ لاتُعْطِى القُفِىَّ لِسَائِقِ
قشير وبلعجلان فيها خفيَّة كرائين فى ألفاظِ الثغَ ناطقِ »

غَرِىَ الرقيب بنا وأما العاذل فقد لجَّ من بعدُ ، وقد رام معنى فى قوله :

« الطيب أنت إذا أصابك طيبه والماء أنت إذا اغتسلت الغاسل »

فما استقام له إلاَّ من بعدُ حين أمكنه أن يقول :

« مَا أسأرَتْ فى يدى غدائرُها جَعَلْتُه فى المُدَامِ أفوَاهَا »

لتطيب به المدام وقبلته مع المدام وقبَّلته وقَبَّلها مع المدام وكلام أبى الطيِّب ههنا قمة .

وقد رام معنىً أيضا فى قوله :

« ولذا اسم أغطيةِ العيون جفونها من أنها عَمَلَ السيوفِ عواملُ »

فما استقام له الا بعد عينيها

« إنَّ لَحْظاً أدمته وأدَمْنا كان عَمْداً لنا وحَتْفَ اتفاق »

تأمَّل « كان عمدا لنا » فنظرناه عمدا وكان فيه الموت ـــ تديرهما بدويَّة فتنت بها الحلل .

«او عادا عنك غيرُ هجرك بُعْدٌ لأرَارَ الرَّسيم مخّ المناقى»

هذا من الغريب الحوشى الّذى عيب عليه . أرار أذهب مخ العظم ، جعله رارا ، يقال مخٌّ رارٌ ومخّ رير والمناقى من الإبل سمانها . أى لو كان المانع من لقاك هو شىء سوى هجرك إذن لطلبنا وصلك بالرسيم — أى سير الابل الشديد — حتى ولو أذهب ذلك مخَّ السمان المناقى من مطايانا

«ولَسِرنا ولو وَصَلْنا علَيها مثلَ أنفاسِنا علَى الأرْماقِ»

أى ولو وصلنا إليها وهى ونحن على آخر رمق —

«ليس إلاَّ أبا العشائر خلقٌ سادَ هذا الأنامَ باستحقاقِ»

أو كما قال لسيف الدولة من بعد وهو بالعراق :

«نحن أدرى وقد سألنا بنَجْد أطويلٌ طريقنا أم يَطُول
وكثيرٌ من السؤال اشتياقٌ وكثيرٌ من ردِّه تعليل
والمُسَمَّوْنَ بالأمير كثيرٌ والأمير الذى بها المأمُول
لَيْس إلاّك يا علىُّ هُمام سيفه دون عِرْضِه مَسْلُول»

أهذا تجاوب من أصداء تجارب ، أم مجرد مذهب بيان وطريقة أسلوب ؟!

ومنذا عسى أن تكون فتاة أبى الطيِّب بعدُ غير عقيلة من آل أبى العشائر الذى « ساد هذا الأنام باستحقاق » وتعلم بَعدُ خبرَ الفائية :

«ومنتسبٍ عندى إلى من أُحِبُّه وللنبْلِ حَولى من يَدَيْه حفيف»

وهو خبَرَان أحدهُما الرجل الّذى كان عَدُوّاً له فى مجلس سيف الدولة حين أنشد الميميَّة والآخرُ أنَّ أبا العشائر قد غضب على أبى الطيِّب — قالوا « فأرسل له غلمانا فلحقوا به بظاهر حلب ليلا » — ثم أُدْمِجَ هذا الخبر فى خبر الميميَّة طيّاً له .

وكأن أبا الطيِّب كان بأنطاكية فأوجب أمرَ حفيظة أبى العشائر ، زَلَّةٌ من أبى الطيب أو وِشايةٌ به أو هما معا أو شىء بينهما ، فأرسل بعد انصرافه من لحق به ، فأُدْرِك بظاهر حلب ، أو دخلها . وقد أفلت أو استغاث وهو دا خِلَها

والنصُّ عَلَى «ظاهر حلب» يُشعر أنَّه متى دخلها أمن إذ لايُنْتَهَكُ جوارَ سيف الدولة شاعِرُه ولذلك من بَعدُ سعى السامرىُّ أن يُرَخِّصَ له فى دمه . وأفاد أيضا من بعدُ من تجربةِ هذا الحادث مدبِّرو سهام دير العاقول . وليس ببعيد ، أن كان أبو فراس رأسَهم ، وأن يكونَ الذى وقع من أبى العشائر قد كان بتحريض منه . ثم رجحت سابقة الوداد مع قرب الشفيع مع ماجبل عليه أبو العشائر — كاسمه — من دماثة نفس وفكاهة روح .

وفى شعر أبى الطيِّب أُلفة له تدلُّ على ملازمة ومنادمة ومخالطة ، كقوله آنفا :

« قد هذَّبت فهمه الفقاهَةُ لى وهذَّبت شعرىَ الفصاحةُ له »

وقوله :

« ياابنَ من كلَّما بَدَوْت بَدالى غائبَ الشَّخص حَاضِرَ الأخلاق
لو تنكَّرتَ فى المَكَرِّ لِقومٍ حلفوا أنَّكَ ابنه بالطَّلاق »

ولا أحسب قوله :

« وأخٍ لنا بَعَثَ الطلاق أليَّةً لتعللنَّ بهذه الخرطومِ
فجعلتُ ردَّى عِرْسَه كفارةً من شُربها وشربت غيرَ أثيم »

كان فى أبى العشائر :

وَيَنِمُّ عن بعض ماكان يخاصُّ به أبو العشائر أبا الطيب خبر الديوان :

« وقال فى أبى العشائر وعنده إنسان ينشده شعرا وصَفَ فيه بركة فى داره الخ . .

«لئن كان أحسَنَ فى وصِفها فقدْ تَرَكَ الوصَفَ فى الحُسنِ لَك»

قيل إنَّ شاعراً شبَّه أبا العشائر بالبركة وهو عن الواحدى وأضعفه العكبرى — والنصُّ « إنسان ينشده شعرا » يدلُّ على مكتوم اسمه وشخصه . وماذاك إلاَّ أنَّه من العقائل ، على الأرجح والله أعلم .

أو كما قال مِن قبلُ :

«ديـار اللّواتي دارهنّ عزيزة بطول القنا يحفظن لا بالتمائم (٣٤)
حسان التثنّي ينقش الوشي مثله إذا مسن في أجسامهن النّواعم
ويبسمن عن درّ تقلّدن مثله كأنّ التّراقي وشّحت بالمباسم»

وهذه ابتسامة مع التفاتة .

وقد رأى جميع هذا من بعد عند آل حمدان :

«لها بشر الدّر الذى قلّدت به ولم أر بدراً قبلها قلد الشّهبا»

وهى عينها البدر الذى أعطاه المحاق فى قوله : (٣٥)

«وقد أخذ التّمام البدر فيهم وأعطانى من السّقم المحاقا
وبين الفرع والقدميّن نور يقود بلا أزمّتها النّياقا
وطرف إن سقى العشّاق كأساً بها نقص سقانيها دهاقا
وخصر تثبت الأبصار فيه كأنّ عليه من حدق نطاقا»

أى حزاما تعتجر به وقيل أن السرىّ حمّ لما سمع هذا البيت حسداً (٣٦) لأبى الطيّب ثم مات بعد ثلاثة أيام ، والحق أنّ ذلك لم يكن وإنّما سرقه فقصّر عنه وذلك قوله :

«أحاطت عيون العاشقين بخصره فهنّ له دون النطاق نطاق»

وتفاهة هـذا لاتخفى . هـذا ، وكأنّه قد كان الاعتجار على الخصور ديدنا عند نساء آل حمدان فقد روى الثعالبىّ لابن ناصر الدولة فى جارية لهم كانت تبلى معاجرها ، يبليها — لاشك — الغلو فى الاعتجار ، قال «وأنشدنى» يعنى التنوخى عن ابن ناصر الدولة . . «أيضا قال أنشدنى لنفسه فى جارية كانت معاجرها تبلى بسرعة :

«أرى الثياب من الكتّان يلمحها ضوء من البـدر أحيانا فيبليها
وكيف تنكر أن تبلى معاجرها والبدر فى كلّ حين طالع فيها»

وقد أحسن غاية الاحسان ، والعرب تزعم ان البدر يبلى الثياب الحلوة » —
وحسبك قوله الثياب الحلوة !

كم كان أبو منصور بغداديا مُحككّاً دَربَ «على الخدائع وتحنك» (٣٧)
– أترى العقيلة، الإنسان الّذى كان ينشد شعرا، إنْ كان إلاَّ أختُ أبى (٣٨) العشائر مثلا أليس أبو الطيِّب يقول ؟ . . .

«لهوى النفوس سريرةٌ لاتعلمُ عرَضاً نظرتُ وخِلْتُ أنى أسلم
ياأخت مُعْتَنِق الفوارس فى الوَغى لأخوك ثَمَّ أرقُّ مِنْك وأرحم
يَرْنُو إليك مع العفاف وعنْده أن المَجُوس تُصِيب فيما تحكم»

وأخطأ من ظن أن هذا ابن كيغلغ :

«راعتك رائعةُ البياض بمفرقى ولو انها الأولى لراعَ الأسحمُ
لو كان يمكننى سفرت عن الصِّبا فالشيبُ من قبلِ الأوان تَلَثُّمُ»

وهذا كقوله :

«مُشِبُّ الذى يبكى الشباب مُشيبهُ فكيف تَوَقِّيهِ وبانيه هادمُه
وتكملة العيش الصِّبا وعقيبهُ وغائب لَوْنِ العارضين وقادمُه
وما خَضَبَ الناسُ البياضَ لأنّه قبيحٌ ولكنْ أحْسَنُ الشَّعْرِ فاحِمُه
وأحْسَنُ من ماء الشبيبة كُلِّه حيا بارقٍ فى فازةٍ أنا شائمه»

الفازة القبة والخيمة – قالوا أراد سيف الدولة – وذلك جائز وكذلك أراد نحو ماقال :

«فى بلدٍ تُضْرَب الحِجالُ به على حِسانٍ ولسن أشْباها
لقِيننا والحُمُول سائِرَةٌ وهنَّ دُرٌّ فَذُبْنَ أمْواها»

ثم يقول :

«وفوقَ حواشى كُلِّ ثَوْبٍ مُوَجَّهٍ من الدُّرِّ سِمْطٌ لم يُثقِّبْه ناظمه» (٣٩)

حُورٌ مقصورات فى الخيام . .

«حِسان التثَنِّى يَنْقُشُ الوشىُ مِثْلَه إذا مِسْنَ فى أجسامِهِنَّ النَّواعِمِ»

وميميَّة ابن كيغلغ (٣٣٦هـ) وميميَّة سيف الدولة (٣٣٧ هـ) متقاربتا العهد وكلتاهما نظم بأنطاكية أو قريبا منها – وفى ميميّة ابن كيغلغ إذ أراده

على المديح ، فأبى يقول :

«فلشدَّ ماجاوزتَ قَدْرك صاعداً ولشدَّ ماقَرُبَتْ عليك الأَنْجُمُ
وأرغتَ مَا لأبى العشائر خالصا إنَّ الثناءَ لمن يُزَارُ فَيُنْعِمُ »

ــ وهذا شاهد المِقةِ والوِداد ــ

« ولمن أقمتَ على الهوان ببابه تَدْنُو فيُوجأُ أخدعاك وتنهم»

ــ وهذا شاهد العز والمنعة ــ

«ولمن يُهِين المال وهو مُكَرَّم ولمن يَجُرُّ الجيش وهو عرمرم»

ــ وهذا شاهد الجاه والندى والسلطان ــ

«ولمن إذا التقت الكماةُ بمأزق فنصيبُه منها الكمِيُّ المُعْلَمُ
ولربّما أَطَرَ القناةَ بفارسٍ وثنى فقوَّمها بآخرَ منهُمُ
والوَجْهُ أزهر والفؤادُ مُشيّع والرُّمْح أسمرُ والحسامُ مصمم
أفعالُ من تلد الكرامُ كريمةٌ وفِعال من تلد الأعاجم أعجم»

وهذا أشبه بمن وصف بدءا : (٤٠)

«لأخوك ثَمَّ أرقُّ منك وأرْحَمُ»

«وثَنَى وقَوَّمها بآخرَ منهُم »

والوجه أزهر إلى آخر ما قال .

وهى التى راعتها رائعة البياض بمفرق أبى الطيِّب ــ فلم يخضب (٤١) إذ ليس البياض فى ذاته بقبيح ولكن عسى التمويه أن يكون قبيحا :

«ومن هوى كلِّ من ليست مُموِّهةً تَركْتُ لونَ مشيبى غيْرَ مَخضُوبِ
ومِنْ هوى الصِّدق فى قولى وعادَتِه رغبت عن شَعَرٍ فى الْوَجْه مكذوبِ
ليت الحوادث باعتنى الذى أخذت منى بحِلْمى الذى أعطت وتجريبى

فما الحداثَةُ من حِلْم بمانعــةٍ   قد يُوجدُ الحِلم فى الشُّبان والشِّيبِ»

وماكرَّر أبو الطيِّب حديث الصدق والشيب إلاّ وهو يقرِّر تجربــة عميقة . ولذلك وثب به فؤاده إلى تمنِّى العهد القديم — هيهات أخت معتنق الفوارس فى الوغى . ولقد كان هو رحمه الله فارسا وحسبك شاهدا صفاته الخيل .

«إذا لم تشاهدْ غيرَ حُسْنِ شِيَاتِها   وأعْضَائِها فالحسنُ عَنْكَ مُغَيَّبُ»

وقال بالشام يصف فرسا ويروضه : —

« أُعِدُّهُ للَّطعن فى الفَيـَالِق

والضَّربِ فى الأوجُهِ والمَفَارِق

والسَّيْرِ فى ظِلِّ اللواءِ الخافق

يحملنى والنَّصلُ ذو السفاسق »

أخذه من أمرىء القيس : « أقمت بنصل ذى سفاسق ميله » وهى البريق

« يَقْطُرُ فى كُمِّى إلى البَنائِق

لاألحظ الدُّنيا بِعيْنَىْ وَامِق

ولا أبــالى قِلَّــة المُــوَافق

أىْ كَبْتَ كل حاســدٍ منافق

أنت لنــا وكلنــا للخالــق »

وإنَّما كان للعفاف يودُّ لو قد يرى رأى المجوس   (٤٢)

« لهوى النفــوس سريرة لاتعلم »

وكان إذن هو الذى يرنو . . وعلى هذا فهل كانت هذه التى أشعرنا أنها لأبى العشائر أخت مثلا إنَّما كانت لأبى العشائر زوجة مثلا ، ولأبى الطيِّب فى حكم المجاز والرحمة كأخت ، عكس ماكانت عليه حكاية جعفر والعبّاسة فى سالف الأساطير . . ؟!

«وإذا الحمائل ما يَخِدْن بنَفْنَف   الا شَقَقْنَ عليه ثوباً أَخْضَرا
يَحْمِلْنَ مثل الرَّوضِ إلاّ أنَّه   أسبى مَهَاةً للقلوبِ وجُؤْزَرا»

«حيّا فازة فى بارقٍ أنا شائمه»

«فبلحظها نَكِرت قناتى راحتى   ضَعْفاً وأنكرَ خاتماى الخِنْصَرا»

أى اضطرب حتى ارتجفت يداه   (٤٣)

«أعطى الزمانُ فما قبلت عطاءه   وأرادَ لى فأردتُ أنْ أتَخَيَّرا»

«عِنْدَ الهُمام أبى المسك الّذى غَرِقَت
في جُوده مُضَرُ الحَمْراء واليمنُ
تَحمّلوا حملتكُمْ كلُّ نــاجيةٍ
فَكُلُّ بَيْنٍ عَلَىَّ اليــومَ مــؤتمنُ
مافى هوادِجِكُمْ عن مُهْجَتى عِوَضٌ
إنْ مِتُّ شوقاً ولا فيها لهــا ثمَنُ»

أترى جميع هذا مجرد أسلوب لفظ وطريقة بيان . أم أنَّ وراءه قصة من لحم ودم كان فيها مصرع الشاعر . . قصة حُبِّه امرأةً عند آل أبى العشائر .

«يا طَفْلَةَ الْكَفِّ عَبْلَةَ السّاعد   على البَعــيرِ المُقَلَّدِ الواخــد»

الله أعلم أى ذلك كَان .

(٤)

لماذا غادر أبو الطيِّب مصر وبها وجد الدعة والأمن ؟ وزعموا أنَّ كافورا وعده الملك . وأَصْوَبُ لو قالوا إنَّ من أوفدهم إليه وعدوه ذلك باسمه. وعسى أن يكون قد أذن في ذلك من دون أن يضمنه أو يَعِد بمقاربة ضمانه إذ لايعقل من مملوك وصل إلى ذروة الملك بالكيد والجدّ والتدبير أن يظن أن الملك يوصل إليه بغير هذا الطريق ، وأنّ الشعراء يجَازون بالولاية على القصائد . مهما تسمُ نفسه إلى المدح وحُسْنِ الأحدوثة واقتناء ما كان يقتنى ملوك عصره من النفائس « كالصائح المحكى » مثلا . (١)

ولم يكن بلاط كافور أصحاب نبال يرسلونها فى غلس الظلام « خذها وأنا غلام أبى العشائر » ولامفاتيح يَشجُّون بها الرؤوس فى المجالس، ولكن من ملأ مصر ، أهـــل سياسة ودماثة طباع ولطف كياسة وظرف ثياب ومجالس وحديث. وكانوا على ثقة أن الخفض فى ريف النيل جائزة هى أسنى مايوهب. وأنَّ مدَّ الحبائل لبدواة الوحش النفور فى أبى الطيِّب حتى يأنس إلى ظلّ هذا الخفض يجوز معه بعض الكذب. وكأن نصحوا أبا الطيِّب أن ينظم فى الأسود . . إنَّه يحب الفخر . . وأمر بأيدينا . . ومع توالى المدائح يكون توالى النعم . وأبو الطيِّب ينتظر الولاية :

« فتىً ما سرينا فى ظُهُور جُدود نا إلى عَصْرِه إلاّ نُرَجّى التَّلاقِيَا(٢)
تَرفّع عن عُونِ المكارم قَدْرُه فما يَفْعَلُ الفَعْلات الا عَذَاريا
وغَيْرُ كثيرٍ أن يزُورك رَاجِلٌ فَيَرْجع مَلْكاً للعراقــين واليا »

ويعلم فى أعماقه أن ذلك انتظار لا يستقيم ولعلّه غير حكيم :

« فقد تَهَبُ الجَيْشَ الذى جاء غازيا لسائلك الفَرْدِ الذى جاءَ عافيا
وتَحْتَقِر الدنيا احتقــارَ مُجَرِّبٍ يرى كل مافيها وحاشاك فانيا »

قال أبو منصور : «سبحانَ اللهِ ! ماأحسن الحشو بقوله حاشاك » وكان يقال لنحو هذا حشو اللوزينج .

« وما كُنْتَ مِمّن أدْرَكَ المُلْكَ بالمنى ولكن بأيامٍ يُشِبْنَ النواصيا »

ويلحُّ أبو الطيِّب في طلب الولاية :

« ومازال أهْلُ الدَّهْرِ يَشْتَبِهون لي إليك فلمّا لُحْتَ لي لاح فَرْدُه

وألْقَى الْفَمَ الضّحّاكَ أعْلمُ أنّه قَرِيبٌ بذي الْكَفّ الْمُفَدّاة عَهْدُه

فان نِلتُ ماأمّلْتُ منك فرُبّما شَرِبْت بَماء يُعْجِزُ الطّيْرَ وِرْدُه »(٣)

وذلك نيل الولاية بالشعر وماظفر بمثل ذلك شاعر ذو خطر منذ أن وَلِي أبو تمَّام بريد الموصل .

« وَوَعدُك فعلٌ قبلَ وعدٍ لأنّه نَظِيرُ فَعَال الصادقِ القولِ وَعْدُه »

مسكين أبو الطيِّب . وهل وعده الا ابن حنزابة ومن إليه . (٤)

وقد أُعْجب أبوالطيِّب بكافور ووجد إعجابا منه به وفَهما له وأُنسَ عقل — يمازجه استشعار الرضا بما كان يوليه كافور وبلاطه من عناية وإكبار قدر . وأمن أبو الطيِّب من خوف وانطلقت نفسه كما لم تنطلق من قبل .

« وجدتُ أنْفع مالٍ كنت أذْخَره ما في السّوابق من جري وتقريبِ(٥)

لما رَأيْنَ صُروف الدَّهرِ تَغْدِرُ بي وَفَيْنَ لي وَوَفت صُمُّ الأنابيب

فُتْن الْمهَالك حتّى قَال قَائلها ماذا لقينا من الْجُرْد السراحيب»

زعم ابن الأثير أنَّ في مَتْن شعر أبي الطيِّب وَهْيا وكذبٌ ورَب الكعبة ...(٦)

« تَهْوِي بمُنْجَرِد ليست مَذاهِبُه للُبْسِ ثَوْبٍ ومأكول ومشروب »

وقد وجد الثوب والمأكول والمشروب — مذهب جديد ماألفه من قبل أهو مقبل عليه فآلفه ؟

« يرمي النجوم بِعَيْنَيْ من يُحاوِلها كأنّها سَلَبٌ في عين مسلوب »(٧)

وهذا قوله آنفا :

« إذا غامَرْتَ في شرفٍ مرومٍ فلا تَقْنَعْ بما دُونَ النَّجُومِ »

ونظر إلى أبى الطيب أبو العلاء فشرح حيث قال يذكر قصده أمه وفراق بغداد :

« لولا رجاءُ لقائيها لما تبعتْ عنسى دليلاً كسيرَ الغمدِ إصليتا
ولا صحبتُ ذئابَ الإنسِ طاويةً تراقبُ الجدْىَ فى الخضراء مسبوتا »

وقد يشرح الواضح بالغريب أحيانا .

« حتّى وصلت إلى نفس محجبة تلقى النفوس بفضلٍ غيرِ محجوب
فى جسم اروعَ صافى العقل تضحكه
خلائقُ النّاسِ إضحاكَ الأعاجيب »

تأملَ قولَه « صافى العقل » — وأما النّاس الذين أضحكته أخلاقهم فقد كانوا أهل الكيادِ بحلب :

« فالحمدُ قبلُ له والحمدُ بعدُ لها وللقنا ولإدلاجى وتأويبى »

ولأبى الطيّب بالخيل صدقُ غرام

« وكيف أكفرُ ياكافور نعمتها وقدَ بلغْنَك بى ياخيرَ مطلوبِ »

— وهذا نفسٌ من روح مصرى —

« يأيها الملكُ الغانى بتسميةٍ
فى الشرق والغربِ عن وصفٍ وتلقيبِ »

كأنه يعتذر به عن تسميته آنفا — واستمر يعتذر فأجاد حيث قال :

« أنت الحبيبُ ولكنىّ أعوذُ به
من أن أكونَ محباً غير محبوبِ »

— وهذا تعريض بحلب وبالولاية كما ترى —

وتوالت عليه نعم كافور سواها :

« إذا لم تنطْ بى ضيعةً أو ولاية فجودُك يكسونى وشغلك يسلبُ »

وذكره الضيعة انصراف عن الولاية كما ترى . وكأنه اقتراح اقترحه عليه ابن حنزابة وأضرابه من باشوات كافور

وبمصر تعلّم أبو الطيّب أن يلذّ الدعة والأمن :

« نامت نواطير مصر عن ثعاليها وقد بشمن وما تفنى العناقيد »

ولم لاتنام ان كانت العناقيد لاتفنى ؟ !

وزعم بعض الحذّاق أنّ أبا الطيّب أسرّ الهجاء فى مدحه لكافور فعلى هذا القياس يكون ههنا آسر المدح فى الهجاء الذى هجاه به .

« بذلت لها المطارف والحشايا فعافتها وباتت فى عظامى »

والمطارف والحشايا نعم وأبو الطيّب يهنّ شديد الإحساس ، كأنّه قد كان مخدوما بمصر كما لم يخدم بالشام .

« إذا ما فارقتنى غسّلتنى كأنّا عاكفان على حرام »

قال أبو منصور : « وليس الحرام بأخصّ بالاغتسال منه من الحلال »

— ومن يك مثل أبى الطيّب فقد يرى ، مثل أحبار النصارى ، أن الأمر جميعه حرام — وأن الحلال يجب الاقتصاد فيه كما ذكروا من تعاليم طوما(٨) أكويناس .

« وللخود منّى ساعة ثم بيننا فلاة الى غير اللقاء تجاب »

وقد شرب الكأس وطرب بمصر الى تهزّم الشجو البعيد — ولعلما سمع (٩) سواقى النيل :

« أصخرة أنا مالى لاتحركنى هذى المدام ولا هذى الأغاريد »

وقد كان شرب وطرب عند أبى محمد بن طغج وهو يهيىء نفسه إلى مصر والنيل فى الزمان القديم .

« ووقت وفى بالدّهر لى عند واحد وفى لى بأهليه وزاد كثيرا
شربت على استحسان ضوء جبينه وزهر ترى للماء فيه خريرا »

وقد وقف عند عدوة النيل وراعه :

« وسمنا بها البيداء حتّى تغمّرت من النيل واستذرت بظلّ المقطم »

وقد سجّل ههنا احساس الوارد للنيل من القفر . . يبل قدميه ويغترف بيديه

ويمسح وجهه ويأوى إلى الظلّ . . « ربِّ إنيِّ لما أنزلتَ إليَّ من خيرٍ فقير »
« ومَن قَصَدَ البحر استَقلَّ السَّواقِيا » وهل البحر إلاَّ النيل . (١٠)

«وبَحْر أبو المسك الهمام الذى له عَلَى كل بَحْرٍ زَخْرةٌ وعُباب »

وقد فهم معنى الحياة ومعنى الخلود ومعنى الأهرام ــ ولكنه ابن الصحراء هرب منها ومن الفناء واليها يعود « وكم هارب مما إليه يئول »

«أين الّذى الهرمان من بُنْيَانِه ما قَوْمُه ما يومُه ما المصرعُ
تَتَخلَّفُ الآثارُ عن أصحابها حيناً ويُدْركها الفناءُ فَتَتْبَعُ »

وبمصر أفاد رقة ورآها :

«فربّما جزتِ الإحسان مُولِيَهَ خَرِيدَةٌ من عَذَارى الحيِّ مِكسالُ »

وقد أحسنت إليه وأحسن إليه فيها الزمان :

« صَحِبَ النَّاسُ قبلنا ذا الزمانا وعَنَاهُم من شأنِه ما عنانا
وتَوَلَّوْا بغُصَّةٍ كُلُّهم منـ ـه وإن سرَّ بعضَهم أَحيانا »

« كليل تَوَسَدْنا الثَّوِية » . . . (١١)

« ربمَّا تُحْسِنُ الصَّنيعَ ليَالِيـ ـه ولكنْ تُكَدِّرُ الإحْسَانا»

وهذا بمصر ــ وأوشك أن يرضى أبو الطيِّب بها الاستقرار. فقد صار بعد طلب الضيعة الى الطلب غير المبين بشيء :

«فارْمِ بى ما أردت منى فإنى أَسَدُ الْقَلْبِ آدمى الرُّواءِ
وفؤادى من الملوك وإن كَا ن لسانى يُرى من الشعراء »

هذا بعد أن أمره كافور من حيث هو شاعر أن يصف دارا بناها ــ ويكون الناصحون قد قالوا له ــ دع ذكر الضيعة الآن وأظهر اخلاصك للأمير فهو يجيبك بلا ريب . . . قل له أنت ذو كفايات . . لاشاعر فقط . . وإنَّ من الشعر لحكما ولكن الشعراء يقولون مالا يفعلون . (١٢)

« يارَجَاءَ العُيونِ فى كلِّ أرضٍ لم يَكنْ غَيْرَ أن أراكَ رَجَائِي
ولقد أَفْنَتِ المفاوِزُ خَيْلى قبل أن نَلْتَقى وزادِى ومَائِي»

« لَيْتَ الحوادث باعَتْنِي الذّى أخذت
مِنّى بحلمى الذّى أَعطت وتجريبى»

«كأنَّ كُلَّ سؤالٍ فى مسامعه قَمِيصُ يوسُفَ فى أَجْفان يعقوب»

وقد خرج أبو الطيِّب من مصر وهو يعلم أنَّه ملاقٍ الموت، والموت أفظع منظرا من الذل :

« ومُرادُ النفُوسِ أَصْغَرُ من أَنْ نَتَعادَى فيه وأَنْ نَتَفَانى
غير أَن الفَتَى يُلاقى المنَايَا كالحاتٍ ولا يُلاقى الهوانا »

وقد صار من التصريح بالطلب المبهم إلى التلميح :

« وفى النفس حاجاتٌ وفيك فطانةٌ »

ومن قبلُ إلى الفكاهة المزوجة بالحزَنِ

« وقد وصَلَ المُهْرُ الذى فوق فخْذِه
من اسمِكَ ما فى كُلِّ جيدٍ ومعصم
لك الحيَوان الرَّاكِبُ الخيلَ كُلُّه
وإن كان بالنِّيران غَيْرَ مُوَسَّم
ولو كُنْتُ أدرى كم حياتى قَسَمْتُها
وصَيَّرت ثُلْثَيْها انتظارَك فاعْلَمِ
ولكنَّ ما يمضى من العمر فائتٌ
فجُدْ لى بحظِّ البادرِ المُتَغَنِّم
ومِثْلك من كان الوسيطَ فؤادُه
فكلّمهُ عنِّى ولم أتَكَلّم

وبعيد مابين هذا والتحدى الذى كان منه بحلب :

«أسيرُ إلى إقطاعه فى ثيابه عَلَى طِرْفه من داره بحُسامه
وما مَطَرْ تنيه من البيض والقنا ورُوم ٱلعبِيدَّى هاطلات غمامه
فتىً يهب الاقليمَ بالمال والقُرى ومن فيه من فُرْسانُه وكرامه

«ويَجعل ماخُوَّلْتُهُ من نواله   جزاءً لما خوّلته من كلامه»

وقد كانت في بلاط حلب بقايا بداوة يفهمها ويقوى على مراسها ولكن أسلوبَ الحضارة المُوغل فيها كان له امتحانا عظيما. وقد زعم البديعي أن من إساءته — كان — ذكره لون كافور. وما كان ليذكره او لم يسأل أو أشير عليه به.

وقد أحسن حيث قال في دار كافور حيث يشرف هو منها:

«تفضح الشمسَ كلما ذرّت الشمـ   ـس بشمسٍ منيرةٍ سوداء»

— ومن عجب التوافق بين الشعراء نعت شكسبير لشرفة جولييت فهو قريب(١٣) من هذا —

«إنّ في ثوبك الذى المجد فيه   لضياءً يُزْرى بكل ضياء

انما الجلد ملبسٌ وابيضاضُ   النفسِ خير من ابيضاض القباء»

وأعسر مركبا من أمر اللون ماعمد إليه أبو الطيّب من تهوين أمر الجنس، وكان له من أسلوب العُبّادِ وسمُوتِ التقوى ما أسعفه في جراءته على ذلك، كقوله:

«انما يفخر الكريم أبو المسك   بما يبتني من العلياء

لابما يبتني الحواضرُ في الريف   وما يطّبي قلوب النساء»

ولايخلو هذا الكلام من التعريض ببعض «الباشوات» . . . الا أنّه خفيُّ المدخل جدّاً . . مبارزة بشفار رقيقة بين ذكاء البدويّ ونفاسةِ من يكون قد جعل ينفس عليه مكانه عند الأسود.

ومما يؤكّد مانرى من دفع ماذكره البديعيُّ، أن الثعالبيّ لم يذكر شيئا من أمر الاشارة إلى لون كافور فيما عدد من باب إساءة الأدب بالأدب بل عدّ ذلك من محاسنه حيث يقول: «وكقوله:

«فجاءت بنا إنسان عينِ زمانه   وخلّت بياضاً خلفها ومآقيا

وهذا أحسن مايمدح بـه ملك أسود ولانهاية لحسنه وشرف معناه وجودة تشبيهه وتمثيله » . ا . هـ .

وأخطأ الذين مَنَّوا أبا الطيِّب باسم كافور إذ لم يقدِّروا أنَّه بحكم تفوقه كان ينبغي ألاَّ يُساس بما يساس به سائر أصحاب المطالب والطموح . وأنَّه وإن يطمئن به مقام الدعة ، وتُعْرِضُ نفسُه عن طلب الولاية ، ماكان ذلك لينسيه ما وَعَدُوه وما مَنَّوه أوَّلَ الأمر بحال ، وأنَّ هذا تارك في نَفْسِه من من المرارة حَزّاً ، وأنّه متى علم أنَّ كافورا لم يكن مصدر الوعد كان استفظاعه ماخُدع به أشدَّ ، ومن هنا يبدأ الكيد له وعليه ، وكان امرأ صُلْبَ العود صعب المراس — هذا الذي أنطقه بسياسة الملك والنَّفَسُ بعدُ مصريٌّ حضاريٌّ :

« صار ما أوضعَ المُحِبُّونَ فيه ... مِن عتاب زيادةً في الوِدَادِ
وكلامُ الوشاةِ ليس علَى الأحـ ... ـباب سلطانُه علَى الاضداد»

ولا كذلك مابين أبي الطيِّب وكافور

«إنمَّا تُنْجِحُ المَقَالةُ في المَرْ ... ءِ إذا صادفت هوى في الفـؤاد
ولعمري لقد هُزِزْت بما قيل ... فأُلْفيتَ أَوْثـق الأطـواد
وأشارت بما أَبَيْتَ رِجالٌ ... كنتَ أهْدَى منها إلى الإرشاد »

كابن حنزابة وأصحابه الدبلوماسيين

«قد يُصيبُ الفتى المشيرُ ولم يجـ ... ـهدْ وُيشْوِي الصَّوابَ بعد اجتهاد»

هـل أشار أبو الطيِّب على كافور في هذا الأمر ؟ لقد ارتقى مركبا صعبا ؟ ولايكون الفتى المشير إلاّ ضربا من الكناية عن نفسه وإلاّ كان تعريضا بمن استشار كافور وخالف وقد تعلَّم أبو الطيِّب بمصر أن يخفي التعريض أو (١٤) لايلمِّ به على أية حال ، والله تعالى أعلم .

وكان الذين تمرس بهم في مصر دهاة أهلَ أغوار . وكان ابن حنزابة

يحسده على الأرجح ، من شواهد ذلك مانقل الثعالبيُّ عن ابن جِنّى قال بمعرض الحديث عن البيت :

« أزورهم وسوادُ الليّلِ يشفعُ لى   وأنثنى وبياضُ الصَّبحِ يُغرى بى »

« حدثنى المتنبى وقت القراءة عليه قال لى ابن حنزابة وزير كافور ، أحضرت كتبى كلها وجماعة من الأدباء يطلبون لى من أين أخذت هذا المعنى ، فلم يظفروا بذلك . وكان أكثر من رأيت كتبا » .

وهذا من ابن حنزابة ملق عتيق، ودعواه تكليفَ جماعة من الأدباء هو المشعر بالحسد — وعِلمُ أبى الطيب ذلك منه هو الذى قوّى عنده قبول خبره كما ترى .

أما مانقل من أنّ أبا الطيِّب ماأتى بمصر إلاّ من جهة تركه مديح ابن حنزابة فليس بشيء اذ ماكان ليمدحه من غير وساطة كافور .

قال ابن خلكان ، وذكر الوزير المغربيُّ فى كتابه أدب الخواص ، الوزير أبا الفضل جعفراً المذكور : « وأُجارِيه شعرَ المتنبى فيُظهر من تفضيله زيادةَ تنبّهٍ على مافى نفسه الخ » فهذا يقوِّى ماقدمنا .

وقد أَنِس أبو الطيِّب إلى فاتك المجنون بالفيوم كأنسه من قبلُ إلى أبى العشائر — ولتنسم نفس البادية عنده .

« تُغير منه علَى الغاراتِ هَيْبتُه   ومن له بأقاصى البرِّ أَهمـال
له من الوحش مااختارت أسِنّتُه   عَيْرٌ وهَيْقٌ وخنساء وذيال »(١٥)

وكأن أهل حلب اتصلوا بابن حنزابة ومن حول كافور وابتدأت حرب السياسة والوشاية — إبطان الهجاء فى المديح — ذكر اللون — التعريض بأن الأستاذ خصى — كل هذا يهمس به كيدا ويبلغ كافورا . وروى ابن خلكان أنّ كافورا وعد أبا الطيِّب ولاية بعض أعماله « فلمّا رأى تعاليه فى شعره وسُموّه فى نفسه ، خافه وعوتب فيه فقال ، ياقوم من ادعى النبوة بعد محمد صلى الله عليه وسلم أما يدعى المملكة مع كافور ، حسبكم . » وما وعد

كافور ولكن نسب ذلك إليه يدلك قول أبي الطيب :

« وَوَعْدُكَ فِعْلٌ قبل وعد لأنه نظيرُ فَعَالِ الصادق الْقَوْلِ وعده
فكُنْ في اصطناعِي مُحْسِناً كمُجرِّب
يَبِنْ لك تَقْرِيب الجواد وشَدُّه »

فهذا كأنَّه يسأله وعدا فإذا كان الوعد كان الفعل، وكان ذلك إحسانا وتجربة، ويذكِّره أيضا مانسب إليه من وعد إذ لا يمكن أن ينسب إليه عند أبي الطيِّب، وليس هو حقا مصدره — وعلى هذا التأويل ظاهر لفظ البيت .

وما عاتب كافورا من أحد . ولكنَّها أقاويلُ وحربُ أعصاب . ويبلغ ذلك أبا الطيِّب وكافورا قال البديعيُّ : « وسأل أبو الطيِّب كافورا أن يوليه صيداء من بلاد الشام أو غيرها من بلاد الصعيد »— تأمل شاهد التزويق والتأليف — « فقال له كافور انت في حال الفقر وسوء الحال وعدم المعين سَمَت نفسك إلى النبوة » — هـذا قيل لكافور « فان اصبت ولاية وصار لك اتباع فمن يطيقك ؟! »

وما كان في شعر أبي الطيِّب لكافور من تعالٍ يوحشه منه، ولكنْ كان مدحا خالصا مُجَوَّدا .

« وما كُلُّ هاوٍ لجميلِ بفاعلٍ ولا كلُّ فَعَّالٍ لـه بمتمِّمِ
فِدىً لأبي المسك الكرام فإنها سوابق خَيْلٍ يهتـدين بأدهـمِ
أَغرَّ بمجد قد شَخَصن وراءه إلى خُلُقٍ رحب وخَلْقٍ مُطهَّمِ
إذا منعت منك السياسةُ نفسها فقِفْ وَقْفَةً قُـدَّامه تتعلَّمِ
يَضيق علَى من راءه العُذْر أن يُرى
ضعيفَ المَسَاعي أو قليلَ التَّكرمِ »

ورُوِيَ عن أبي الفتح أنَّه يجعل هذا داخلاً في الهجاء على معنى أنَّ مثله في الخسة إذا ساد فلا عذر لأحد ألاَّ يسود . ولعلَّ هذا من تبريرات أبي الطيِّب من بعدُ . لما خبثت نفسه على كافور . والقول ماقال ابن القطاع :

« الهجاء هو أن يقول إنَّ كافورا قد ضيَّق عليَّ ، ولانفع لى منه ،ولا جاه لى عنده ، وإنَّه ينتفع بخدمتى ، ولو أنَّه قال هذا لشخص لخاف أن يتصل بكافور فيكون فيه هلاكه . » — وكذلك فعل من بعد .

وقد وقف أبو الطيِّب أمام كافور وقفة ، وعمل الآخرون له فى الخفاء . فالثعالى الذى ذكر ابن خلكان إنَّما كان ماصنف من وقيعة فيه بناء على شعره القديم .

قال أبو منصور : « ومازال فى برد صباه إلى أن أخلق برد شبابه وتضاعفت عقود عمره يدور حُبُّ الرياسة فى رأسه ، ويظهر مايضمر من كامن وسواسه فى الخـروج على السلطان ، والاستظهار بالشجعان ، والاستيلاء على بعض الأطراف ويستكثر من التصريح بذلك مثل قوله :

«لقد تصبّرتُ حتى لات مصطبرٍ فالآن أقْحَم حتى لات مقتحمِ
لأتركَنَّ وجُوه الخيل ساهمَةً والْحَربُ أقوَمَ من ساقٍ عَلَى قَدمِ
والطّعْنُ يُحرِقُها والزَّجْر يُقلِقها حتى كأن بها ضَرْباً من اللَّمَمِ
قد كالَتها الْعَوالِي فَهْىَ كالحة كأنما الصّابُ مَذْرُورٌ عَلَى اللُّجمِ
بكل مُنْصلتٍ ما زال مُنتظرى حتّى أدلْتُ له من دَوْلة الخدم
شَيْخ يرى الصلوات الخَمْس نافِلَةً
ويستَحِلُّ دم الحُجّاجِ فى الحَرَمِ »

وقوله :

« سأطْلُب حقّى بالقنا ومشايخٍ كأنّهُمُ من طول ماالتثموا مُرْدُ
ثِقالٍ إذا لاقَوْا خِفافٌ إذا دُعُوا كثيرٍ إذا شَدُّوا قَليل إذا عُدُّوا
وطَعْنٍ كأنَّ الطَّعنَ لاطَعْنَ عنده وضَرْبٍ كأنَّ النَّارَ من حَرِّهبردُ
إذا شئتُ حفَّت بى عَلَى كُلّ سابح
رجالٌ كأنَّ الموت فى فَمِها شَهْد »

وقوله :

«ولا تحسبن المجد زقاً وقينة فما المجد إلا السيف والفتكة البكر
وتضريب أعناق الملوك وأن ترى لك الهبوات السود والعسكر المجر
وتركك في الدنيا دوياً كأنما تداول سمع المرء أنمله العشر»

وقوله :

«وإن عمرت جعلت الحرب والدة والسمهري أخا والمشرفي أبا
بكل أشعث يلقى الموت مبتسماً حتى كأن له في قتله أربا
قح يكاد صهيل الخيل يقذفه من سرجه مرحاً بالغزو أو طربا
الموت أعذر لي والصبر أجمل بي والبر أوسع والدنيا لمن غلبا»

وكان كثيرا ما يتجشم أسفارا بعيدة أبعد من آماله الخ . . . » فمثل « دولة الخدم » و « سأطلب حقي » « وتضريب أعناق الملوك » « وترك الدوي » مما يفسد إنشاده صفاء المجالس عند مثل كافور متى ماأريد به حاق الكيد . وما(١٦) كان أبو الطيب ، إذا زير في مجلسه للدرس إلا آمنا ينشد أصناف هذا ويستملاه فيمليه وما يعلم أن السم في الدسم . وربما كان يترجم لنفسه . فيتصل أمثال ابن حنزابة بأمثال ابن خالوية فيجدون من سالف أمره بالشام أخبارا وأساطير . كدعواة النبوة . . .

ولعله ماسمي المتنبي إلا بقوله :

« ما مقامي بأرض نخلة إلا كمقام المسيح بين اليهود
أنا في أمة تداركها الله غريب كصالح في ثمود »

كما لقب المثقب بقوله « وثقبن الوصاوص للعيون »

ويدل على اتصال الأسباب أو نوع من اتصال الأسباب بين أعداء أبي الطيب بحلب وأعدائه بمصر ماأشيع من موته في مجلس سيف الدولة وبلوغ ذلك إياه فقال :

«يا من نُعيِتُ عَلَى بُعْدٍ بمجلسه كل بما زعم النّاعونَ مُرْتَهَنُ
كم قد قُتِلت وكم قدمُتُّ عندَكُمُ ثم انتَفضت فزال القبر والكفن»

تأمل قوله « قتلت » . قال البديعي : « ثم وقعت الوحشة بينهما » يعني بينه وبين كافور « ووضع عليه العيون والأرصاد خوفا من أن يهرب ، وأحس المتنبى الشرَّ ، قال الوحيديُّ كنت بمصر وبها أبو الطيب ووقفت من أمره على شفا الهلاك ، ودعتني نفسي لحب أهل الأدب إلى أن أحثه على الخروج من مصر فخشيت على نفسي أن يشيع ذلك عني وكان هو مستعداً للهروب وإنّما فات أظافير الموت ومخالب المنية من قرب وهو جنى ذلك على نفسه لأنَّه ترك مدح ابن حنزابة وهو وزير كافور والمقرَّب منه وهو مع ذلك من بيت شريف أهل وزارة ورياسة الخ » . . . وإذ كان أبو الطيِّب مستعدا يراقب الشرَّ فما معنى استحثاث الوحيدى له ؟

وأمثال الوحيدى هذا كانوا — على الأرجح — هم السعاة فيما بين مصر وحلب ولعلَّ أبا الطيِّب لم ينعه أحد بحلب وإنّما قيل ذلك اختبارا له ، وإرجافا به على وجه الإرهاص بما كان يتوقع أعداؤه من خاتمة أمره وانفعل أبو الطيب :

«رأيتُكم لا يَصُونُ العِرضَ جارُكُمُ ولا يَدِرُّ عَلَى مرعاكُمُ اللَّبَنُ
جزاءُ كلِّ قريبٍ منكم مَلَلٌ وحظُّ كلِّ مُحبٍّ منْكُمُ ضَغَن
وتَغْضَبون على من نال رِفْدَكُمُ حتىّ يُعاقِبَه التنغيصُ والمِنَنُ
فغادر الهَجْرُ ما بيني وبينكُمُ يهْماءَ تَكذِب فيها العَيْنُ والأُذُن
تَحْبُو الرَّواسمُ من بعدِ الرَّسيم بها وتَسأل الأرضَ عن أخفاقها الثّفِن
إني أُصاحب حلمي وهي بِي كَرَمٌ ولا أُصاحِبُ حلمي وهو بي جُبُن »

وهذا يقوله في نفسه لأهل مصر في بلاط كافور

ولا أُقيمُ على مالٍ أَذِلُّ بــه ولا أَلَذُّ بما عرِضي بِه دَرِنُ»

وهذا كقوله « إذا نلتُ منك الودَّ فالمالُ هيِنٌ »

«سَهِرت بعد رحيلى وَحْشَةً لكم ثم استمرَّ مريرى وارْعَوى الْوَسَنُ»

قال أبو منصور «ولما سمع سيف الدولة البيت الذى يتلوه وهو قوله :

«وإن بُليت بُودٍّ مثل ودّكم فإنَّنى بفراقٍ مثله قَمِنُ»

قال سار وحق أبى .

ولعلَّ أبا الطيب لم ينشد هذه القصيدة كافورا وإن كان بعد هذا يقول :

«أبْلى الأجِلّةَ مُهْرِى عند غيركم وبُدّل العُذْر بالفسطاط والرَّسن»

«عند الهمام أبى المسك الذى غَرِقت فى جُوده مُضَرُ الحمراء واليمن

وإن تأخّر عَنّى بَعْضُ موعِده فما تأخّرُ آمالى ولا تَهِنُ

«هو الوفىُّ ولكنىّ ذَكَرْتُ له مودّةً فهو يَبْلُوها وَيَمْتَحِنُ»

ولكن كافوراً كان يقدِّم السياسة على مَوَدَّاتِ الرجال . واصطناع خاصة رجاله . واستبقاء طاعتهم ، وموادعة سعاة حلب ، كان ذلك أولى بالعناية من أطماع أبى الطيِّب . وإنمّا كان شاعرا .

وقلق أبو الطيِّب الى مال له بالرملة ، كما كان قلق من قبل إلى الفيُّوم واستأذن كافورا فقال له : «نحن نبعث فى خلاصه ونكفيك» ويلاينه ويطايبه ودبَّ الشك إلى نفس «أوطيلو» الأبيض . . وأنشأ يقول :

«أتحلف لاتُكَلِّفُنى مَسيراً إلى بَلَدٍ أُحاولُ فيه مالا

وأنت مُكَلِّفى أنبىَ مكاناً وأبعَد شُقّةً أشدَّ حالا

إذا سِرْنا على الفُسطاطِ يوماً فَلَقِّنى الفوارسَ والرِّجالا

لِتَعْلَمَ قَدْرَ من فارقت مِنِّى وأنّكَ رُمْتَ مِنْ ضَيْمى مُحالا»

ولعلّه أنشدها من كان يثق به فبلغت ، مع أمثال :

«سأطلب حقى بالقنا ومشايخ»

«وكُلُّ ماقد خلَق الله ومالم يَخْلُق

مُحْتَقر فى هِمّتى كشعرةٍ فى مَفْرِقى»

ومن ثمَّ بدأت قصة الحبس وأكل الأزواد. كلما استأذن أبو الطيب حلف(١٧) عليه كافور ، بين ملاينة واختبار ومطل . وهو بعد موظف عليه عمل الشعر .

« إنما التَهْنِئـات للأكفاء »

« عَدُوُّك مَذْمُوم بكل لسان »

وله جارٍ (١)، هو عند أبى الطيب جائزة ينطلق بعدها إنْ شاء أنىَّ شاء ، أو يُعطى الولاية، أمَّا أن يُصار به إلى أن يأكل من الجائزة ،فذلك أكل زاده، سيَّان ذلك فى الدينار الذى أخذ من الحاجب والستمائة التى أفاد من كافور . وأنشأ يقول :

«لو كان ذا الآكلُ أزوادَنا ضيفاً لأوسعناه إحسانا
لكنَّنا فى العين أضْيافُه يُوسِعنا زوُراً وبهتانا
فَلَيْتَهَ خَلّى لنا سُبْلنا أعانه الله وإيَّانا»

ولعله أنشدها من كان يثق به ، فبلغت ابن حنزابة أو بلغت كافورا . . وقع من الوحشة بعد مالايصلح ، وأنشأ أبو الطيِّب يقول :

«صحب الناس قبلنا ذا الزمانا وعنَاهم من شأنه ما عنانا»

وشكا فيها الدهر ولم ينشدها كافورا ، وحثَّ نفسه على الرحيل ، وإن كان مُرادُه البقاءَ مع الدعة فى ريف مصر لا التَّعَرُّض للمهالك الّتى كان يعلم أنهَّا منتظرتُه خارجها .

«وإذا لم يَكُن من الموت بُدٌّ فمن العَجْز أن تكونَ جبانا
كلُّ مالم يَكُن من الصّعب فى الأنفس سَهْلٌ فيها إذا هو كانا»

(١) الجارى هو الراتب الجارى كالماهيات الآن مثلاً

وبُثَّتْ حوله العيون والأرصاد كما قيل ، والراجح أن كافورا لم يكن يبالى ألاّ يظفر به متى أفلت ، أو تعمَّد ألا يفعل ، إذ بقاءه ُ ليَمْدَحه كان يريدُ ، لابقاءه ُ ليَهْجُوَه . . قالوا وجَّه َ «رواحل خلفه إلى جهات شتَّى فلم يلحق»— وذلك آيه أنَّه لم يبال . . . مجرد حفاظ على مظهر هيبة الدولة . وقد خاب ظنُّه فى كافور كما خاب ظنُّه فى سيف الدولة من قبل .

كان يرجو من سيف الدولة أميرَ العرب الذّى تصالح عليه ، وقد وجد فيه من ذلك مخايل قوَّتْ عنده ذلك الرجاء . ولكن سيف الدولة ما كان إلاّ من أمراء الدولة العباسية فى عصر الطوائف ، وعلى رأس أسرة أخذت فى الانحلال . مثلا أمر ناصرَ الدولة أخوه بقتل عمه سعيد ، والد أبى فراس فعصرت مذاكيره حتى مات . وقلعت سخينة أمُّ أبى فراس — عينها لما (١٨) بلغها أنه قتل ورُميَتْ جثته للكلاب ! (١٩)

« ولا فى من جنـازتها تجارٌ   يكون وداعُها نفضُ النعال »

وكان أبو الطيّب عارما فى، مزاجه قرمطية (يستحل دم الحُجَّاج فى فى الحرَم) (٢٠)

« كالذى قام بجمع الزنج بالبصـ   ـرة والقرمطى بالاحساء » (٢١)

قيل واتبعت نبوته بادية كلب . وما كان ليخلو من أخلاط من من تبعوه أن يكون فيهم سودان ، على أية حال (فى خبر أبى سعيد الجنابـى صاحب القرامطة — ٢٨٦ هـ — وانضم إليه طائفة من بقايا الزنج واللصوص) ومايخلو — مع الفهم — من أن يكون تودَّد إلى كافور بفضلة ما كان يتودَّد به إليهم وان يكون رأى فيه « ابن شعب » ممن جمع صاحب الزنج بالبصرة يربطه وإيَّاه أنَّه هو أيضا ابن الشعب الثائر :

«وجنّبنى قُرْبَ السلاطين مَقْتُها   وما يَقْتَضِينى من جَمَاجِمِها النَّسْرُ»
«أرانِبُ غيرَ أنهمُ ملوك   مُفَتَّحة عيونُهُم نِيَامُ»

ولكن كافورا ماكان من أبناء الشعب فى شىء . وأغلب الرأى أنَّه

اختُطِف صغيرا ببعض الجبال فيما بين النيلين وُعليا زغاوة ثم خُصى فى قرى طريق القوافل ، ليكونَ فى بيتٍ موسر أو قصرٍ منيف .

حكى عن المتنبى أنه قال : « كنتُ إذا دخلت على كافور أنشده يضحك الى ويبش فى وجهى إلى أن أنشدته

ولما صار وُدُّ الناس خِبًّا جزيت علَىَّ ابتسام بابتسام
« وصِرْتُ أَشُكُّ فيمن أصطفيه لعِلْمِي أنَّه بعضُ الأنام »

قال ، فما ضحك بعدها فى وجهى إلى أن تفرَّقنا ، فعجبت من فطنته وذكائه » . . وقد كان الناس يتحامَوْن اللحن فى مجلسه . ومن سخرية الأقدار بأبى الطيِّب أن مقاله فى الملوك انعكس عليه ، فادعى حبهم ، ولازمهم ، واطعموا النسر من جمجمته .

والتفت ينظر بعين الغيظ إلى ابن حنزابة وأضرابه من طبقة البلاط الحاكمة آنئذ :

«أغايةُ الدِّين أن تُحفُوا شَوارِبكم يا أُمةً ضَحِكت من جَهلها الأمم»

وإلى حَضْرَة كافورٍ وهو فى الثياب البيض، أسوَد شَديدَ السواد بَصّاصاً(٢٢)

«كأنَّ الأسودَ اللاَّبِىَّ فيهم غرَابٌ حَوْلَه رَخَمٌ وبوم »

وكلهم عبِيدِّى وبهائم ، مواليهم وصميمهم . .

« ويلمها خُطّةً ويلِمَ قابلها لمثلها خُلقَ المَهْرِيَّةُ القودُ
وعندها لَذّطَعْمَ الموت شَارِبُه إن المنيةَ عنُدَ الذُّلِّ قِنْدِيد»

وشتَّان نجاء الجرد السراحيب ، عشيَّة شرقىَّ الخدالى وغُرَّبُ

«عَشيَّة أحفى الناس بى من جَفَوْته وأهدى الطريقين التى أُتجنب»

من نجاء المهرية القود ــ الذى إنَّما كان نجاء إلى المنيَّة .

وهل كان كافور مثقوب المشفر كبعض ماتصنع القبائل فى أعالى السودان ؟

«وأنَّ ذا الأسود المثقوب مشفره تُطيعه ذى العضاريط الرعاديد»

لعلَّه كان مثقوب الأذن منهدل المشفر فجمع أبو الطيِّب بينها وذلك قوله :

«أم أذْنه في يد النخّاس داميَةً   أم قَدْرُه وهو بالفِلْسَيْن مردود؟!»

وحقق ابن خلّكان أنّ الإخشيد اشتراه بثمانية عشر دينارا . وما ذلك بثمن زهيد .

والّذى غاظ أبا الطيِّب أنّ هذا العبد استهان بقدره هو الحر.. فآثر عليه العبيد أمثال ابن حنزابة

«بها نَبَطيٌّ من أهل السَّواد   يُدَرِّس أنسابَ أهْلِ الفلا»

وعاد أبو الطيِّب إلى ماكان أحسن ماعلم فقال ، فمسخة ، ليكون أسوأ مايعلم فيقول :

«العبدُ ليس لحُرٍّ صالحٍ بأخ   لو أنَّه في ثيابِ الحرِّ مَوْلُود

لاتَشْتَرِ العَبْدَ إلاّ والعصا معه   إنّ العبيد لأنْجَاسٌ مَنَاكيد»

وكما أعمل ذكاءه يدفعه الطمع والرجاء في مدح الشمس المنيرة السوداء (كان أسود بصاصا) ، أعمله في ذم التجارب التى اختزنها عقله الباطن أيام الرق فجعلته يصنع بأبى الطيِّب من الامتهان والاستصغار ماصنع .

قال يودع عضد الدولة :

« فِدى لك من يُقَصِّرُ عن مداكا   فلا مَلِكٌ إذَنْ إلاّ فَدَاكا

ولو قُلْنا فدىً لك من يُساوِى   دَعَوْنا بالبقاءِ لِمَنْ قَلاكا

وآمَنّا فداءَك كُلَّ نَفْسٍ   ولو كانت لمملكة مِلاكا

ومن يَظَّنُّ نَثْرَ الحبِّ جُوداً   ويَنْصِبُ تَحْتَ ما نثر الشِّباكا»

كأن يُمْنَح جائزة ثم يحبس من بعد ليخدم ويمدح

«ومن بَلَغَ الترابَ به كراه   وإن بلغت به الحال السُّكاكا»

هذا كافور — والسُّكاك بضم السين هو الجو والهواء — وكانت حاله الظاهرة كأنها في السماء إلاّ أنّ حاله الباطنة التى كان يريه إيّاها عقله الباطن في منامه كانت في الحضيض .

«وإنّك لاتدرى ألونك أسودٌ   من الجهل أمْ قد صَارَ أبيضَ صافيا»

أى فارق « شعبية الزنج » الذين يتبعو ن الثائرين أمثال أبى الطيّب ، وتأنق مع المحفوفى الشوارب من الأنباط البيض حوله فهو يظن نفسه أبيض مثلهم .. عنده عقدة اللون .

وكأن أبا الطيّب لم يكن يرى السواد فى ذات نفسه عيبا بآية إتْباعه ذكر (٢٣) السواد صفة أخرى كلّما ذكره، كقوله: «كأن الأسْوَدْ اللّابىَّ الخ» «وأنّ ذا الأسود المثقوب مشفره الخ » « فكيف الخصية السود » « من علم الأسود المخصىّ » « وأسود مشفره نصفه » . وإذا كان ابيضاض النفس « خيرا من ابيضاض القباء » فاسودادها شر من اسوداده ، وإنّما الجلد ملبس ، واسودادهما كارثة . وصار « الخلق المطهم » قبحا .

«وشعْرٍ مدحت به الكركدنّ   بين القريض وبين الرُّقى »

« وتُعْجِبنى رجلاك فى النّعْل إننى   رأيتك ذا نَعْلٍ وان كنت حافيا

فان كنتُ لاخيراً أفدتُّ فإننى   أفدتُ بلحظى مِشْفَرَيْكَ الملاهيا

ومثلُكَ يؤْتَى من بلادٍ بعيدة   ليُضْحِك ربّات الحداد البواكيا»

قال العكبرى « وقد صرّح فى هذا البيت بجميع ما كان أخفاه فى مدحه بقوله فى غير هذه :

« وما طربى لما رأيتك بِدْعةً   لقد كنت أرجو أن أراك فأطرب»

وليس مقال العكبرى بصواب ، وإنّما رجع أبو الطيّب يتأول ويلتمس لنفسه وُجُوهَ التبرير .

« ولولا فضولُ الناسِ جئتك مادحاً   بما كُنْتُ فى سِرّى به لك هاجيا

تظنُّ ابتساماتى رجاءً وغِبْطَةً   وما أنا إلاّ ضاحكٌ من رجائيا»

وهذا شعر صنعه ليسمعه المصريون لروح النكتة فيه وما كان إلى ذلك سبيل فكتمه حتى خرج . كم قد حرص ، رحمه الله ، على البقاء بمصر . ولكن كيد حلب اتصل بالفُسْطاط فلم يكن له إلاّ الفرار .

«ألا كلُّ ماشيةِ الْخَيْزَلَى   فِدَى كُلّ ماشيةِ الْهَيْذبَى »

والماشيات الخيزلى هُنَّ الخارجات من الحمام بالفُسْطَاط . . . كأنّ له نفسا كانت تراوده عَلَى البقاء .

« وكل نجاة بجُاويّة خنُوف وما بى حُسْنُ المشَى
ولكنهن حبالُ النجاة وكَيْدُ العداة ومَيْطُ الأذى
ضربت بها التِّيه ضَرْبَ القمارِ إمّا لهذا وإما لذا

والذين أعدُّوا له السودان فى كفر عاقب ، ومن كان عَلَى رأسهم بين مصر والعراق كانوا عليه حراصا يُسِرُّون مقتله فاحترس كل الاحتراس

« لِتعلم مصرُ ومن بالعراقِ ومن بالعواصم أنى الفتى
وأنى وَفَيْتُ وأنى أبيْتُ وأنى عتَوْت عَلَى من عتا »

هذا يقوله لقومه فى الكوفة . . . طلبت الملك ومدحت الملوك وهأنذا أعود اليكم. وليس بعد هذا جميعه فى شعر أبى الطيِّب مرارة حقد كالح عَلَى كافور كما فى هجائه ابن كيغلغ ، اذ هجاه وهو حىّ . .

«يَمْشِى بأربعةٍ عَلَى أعقابه تحْتَ العلوج ومن وراءٍ يلجم
وجفونه ما تستقرُّ كأنها مطروفَةٌ أوفُتَّ فيها حِصْرم
وإذا أشار محدِّثا فكأنه قرد يقهقه أو عَجُوز تلطم
وتراه أصْغَرَ ماتراه ناطقا ويكون أكذبَ مايكونُ ويقسم
والذلُّ يظهر فى الذليل مَودَةً وأودُّ منه لمن يود الأرقْم »

ثم هجاه لما بلغه أنَّه قتله غلمانه فقال :

« إن مات مات بلا فَقْدٍ ولا أَسَفٍ أو عاش عاش بلا خَلْق ولاخُلُق
منه تعلّم عَبْدٌ شَقَّ هامته خوْنَ الصّديق ودسّ الغَدرِ فى الملق
وحَلْفَ ألف يَمينٍ غَير صادقة مَطْرُودة ككُعُوبِ الرُّمْحِ فى نسق
لو لا اللّئَام وشىءٌ من مشابهة لكَان ألأم طفل لُفَّ فى خِرق

كلامُ أكْثَر من تلقى ومَنْظَرُه   مما يَشُقُّ عَلَى الآذان والحدق

وأمرُّ ماوقع فى هجائه لكافور وَخزٌ لنفسه وتقريع ، إذ بلغ به كَرَاه السُّكاك(٢٤) ليصحو ويجد أن حاله فى الحضيض .

«أنْوَكُ(١) من عَبْدٍ ومن عرسه   مَنْ حَكّم العَبْدَ عَلَى نفسه
العَبْدُ لا تفضلُ أخلاقه   عن فَرْجه المُنْتِنِ أوَ ضِرْسه
لا يُنْجز الميعادَ فى يومه   ولا يَعِي ماقال فى أمسه
فلاتُرَجِّ الخَيْرَ عند امرىء   مرّت يَدُ النّخّاس فى رَأسه
وإن عراكَ الشّكُّ فى نفسه   بحاله فانْظُر الى جنسه»

أى إلى العبيد ، أو كما قال :

« إنّ العبيد لأنجاس مناكيد »

والمراد ههنا هجاء جنس الرق والأرقاء لاجنس السواد . . ومصدر الهجاء خيبة أمل الشاعر لا اعتقاده . . كأنّه يرجع به كارها إلى اعتقاد عامة الناس . وموضع ملامة النفس ظاهر فى جميع هذا . ومن أمرٍّ مالام به نفسه قوله :

«ماكنت أَحْسبنى أَحْيَا الى زَمَنٍ   يُسِيءُ بى فيه كَلْب وهو محمود»

كأنه التمس من يوافقه على ملامة كافور فى مطله إيَّاه فلم يجد ، لما كانت عليه الحال من التزام سَمْتِ الطاعة وضبط الأنفس من أجل الحضارة والولاء وأراد أبو الطيِّب تحقيقا لقوله فى ابن كيغلغ أنّ اللئام يتشابهون أن يجد مشابه منه فى كافور .

---

(١) أى أشد حمقاً من العبد من سلط العبد على نفسه

« جَوْعان يَأكُل من زادِي ويمسكني

لكي يقالَ عظيمُ القدر مقصود »

فقد أثبت أنّه عظيم القدر مقصود كما ترى. ولم يكن ليستقيم له غير ذاك وقد عذره حيث قال :

« أولى اللئام كويفيرٌ بمعذرة

في كل لُؤْم وبَعْضُ الْعُذْر تفنيد

وذاك أن الفحولَ البيضَ عاجزةٌ

عن الجميلِ فكَيْفَ الخِصْيَةُ السُّود

فاستوى الفحل الأبيض والأسود الخصيّ

« أرانبُ غير أنَّهُمُ ملوك مفتَّحة عيونُهُمُ نيامُ»

وكافور خير منهم ولام أبو الطيِّب نفسه ، إذ خالف سبيله الأولى حين رام تضريب أعناق الملوك . . ومع ذلك قد بقيت صورة النيل والدعة المصرية والصبايا الخارجات من الحمام عالقة بفؤاده :

« وكان أطْيَبَ من سَيْفي مُضاجَعَةً

أشْباه رونقه الغيدُ الأماليدُ

أكلمّا اغتال عَبْدُ السوءِ سيّده

أو خانه فَلَه في مصرَ تَمْهيدُ

صار الخصيُّ إمام الآبقين بها

فالحرُّ مستعبدٌ والعبدُ معبودُ »

هل طمعت نفسه إلى أن يكون هو إمامَ الآبقين ؟

« ساداتُ كلِّ أُناس من نفوسهم

وسادةُ المسلمين الأعْبُدُ القزُمُ »

وهذه بقية من روح الثورة التي ثار بسماوة كلب —

«بكل مُنْصلتٍ ما زال منتظري حتى أدَلْتُ له من دولةِ الخدم»

كأن المسلمين هم « الشعب » لا كافور وبلاطه . . ياقوم من ادعى النبوة بعد محمد صلى الله عليه وسلم ألا يدعى المملكة مع كافور ؟!

«ألا فتىً يورد الهندى مُهْجتَهُ حتّى تزولَ شُكوكُ الناسِ والتُّهَمُ
فإنه حُجّةٌ يُؤْذى القُلوبَ بها من دِينُهُ الدَّهْرُ والتعطِيلُ والقِدَمُ »

هذا كأنه صدى من أيام :

« سأطلب حقى بالقنا ومشايخ . . . . »
واحتِمالُ الأذى ورُؤْيَة جانيـه غذاءٌ تَضوَى به الأجْسامُ »

وسرعان مايخفت الصدى حين يغمره صوت التجربة الطويلة الحزين .

«ما أقْدر الله أن يخزى خليقتـه ولايُصدّق قوما فى الذى زعموا»

ذلك بأن مِصْرَ مما يُثْبِتُ وُجُودَهُ . . ومن حقّ أبى الطيِّب أن يشكر لها كما شكر للخيل إذ أوصلته إليها .

« وكيف أكْفُرُ ياكافورُ نعمتها وقد أتينك بى يا خَيرْ مطلوب »

ومن آية شكره أنّ شعره المصرى آمن لايستشعر خوفا، لافى مدحه ولا فى هجائه ــ بل هو مطمئن غاية الاطمئنان حضارى النكهة :

« أما فى هذه الدنيا كريم تَزولُ به عن القلبِ الهموم
أما فى هذه الدنيا مكـانٌ يُسَرُّ بأهلِه الجارُ المقيم
تشابهتِ البهائمُ والعبِدَّى علينا والمـوالى والصميم
إذا أتتِ الإساءة من لئيمٍ ولم أَلمُ المسِىءَ فَمَنْ ألوم»

وقد كان أبو الطيِّب مُرّاً ساخن النفس

« أقـراراً ألَذُّ فـوق شرار ومراماً أَبغى وظُلْمِى يُرام
دُونَ أن يَشْرق الحِجاز ونَجْدٌ والعراقانِ بالقَنا والشـام »

وبلغ غاية ذلك فى ميمـَّة « من شحمه ورم » :

«أنا الذى نَظَرَ الأعمى إلى أَدَبِى وأسمعت كلماتى من به صممُ
أنام مِلْءَ جفُونى عن شوارِدها ويَسْهَرُ الخاق جرّاها ويختصمُ

وجاهلٍ مدّه في جهله ضَحِكي حتّى أتَتْه يدٌ فرّاسَةٌ وفم
إذا نظرت نُيوبَ اللّيْث بارزةً فلاتَظُنّن أن اللّيْثَ يبتسم
ومُهْجةٍ مُهْجتي من هَمِّ صاحبها أدركْتُها بجَوادٍ ظَهْرُه حَرَم
رجلاه في الرّكْض رجْلٌ واليدانَ يدٌ
وفعْلُه ماتريد الكفُّ والقَدَمُ
ومُرْهَفٍ سِرْت بين الجَحْفَلَيْنْ به
حتى ضَربْتُ ومَوْجُ الموتِ يلتطم
فالخَيْلُ واللّيْلُ والبيداءُ تعرِفُني
والضّرْبُ والطّعنُ والقِرطاس والقلم
صَحِبتُ في الفَلَوات الْوَحْشَ منفردا
حتّى تعَجّب مِنيَ القُورُ والأكَمُ
كم تَطلبون لنا عَيْباً فيعجزكم
ويَكْرهُ الله ما تأتون والكرم »
والفتاة التي على البعيرِ المقَلّد الواحد . . . .
« ما أبْعَدَ العيبَ والنقصانَ من شرفي
أنا الثريّا وذانِ الشّيْبُ والهرمُ
ليتَ الغمامَ الذي عندي صواعقه
يُزيلُهن إلى من عِنْدهَ الدّيَمُ »
أبي فراس وابن خالويه ولفّهم جميعا . . . .
« أرى النوى تَقْتَضيني كلَّ مرحلة
لاتَسْتَقِلُّ بها الوخّادَةُ الرُّسُم
لئن تَركْن ضُمَيْراً عن ميامننا
لَيَحْدُثن لمن ودّعتهم نَدم

إذا تَرَحَّلت عن قومٍ وقد قدروا
ألاّ تُفارقِهم فالراحلون هُمُ »
وقد رحل كافور عنه لاهو عن كافور
« مِنْ عبيدى إن عِشْتُ لى ألْفُ كافو
رِ ولى من نداك ريف وَنيل »
— هيهات —
« شَرُّ البلاد مكانٌ لا صديق به
وَشرُّ ما يكسبُ الانسان ما يَصِمُ »
وشَرُّ ما قَنَصَتْه راحَتى قَنَصٌ　　شُهْبُ الْبُزاة سواءٌ فيه والرخم
بأىّ لفظٍ نقول الشعر زِعْنِفَةٌ　　تَجُوز عندك لا عُرْبٌ ولا عجم
وماعنى بهذا الا أبا فراس . . وكأنه طعن فى نسبه ، والله أعلم .

وقد جعل اللفظ كما ترى عنوان البيان ، وهو إن شاء الله كذلك، وما يروم النقاد من فصل المعنى عنه ضرب من شق الشعر . ولله دره اذ قال يذكر عضد الدولة

« تُشْرِق تيجانه بغُرَّته　　إشْراقَ ألفاظه بمعناها »

وقد كان أبو الطيِّب فى دهره الأول صيدحا ، يجمع إلى مرارة الشكيمة أَرَنَ الحماسة وحيويَّة الشباب وحدَّة الطموح (٢٥)

« فيااَليت مابينى وبَيْنَ أحبتى　　من البُعْدِ ما بَيْنى وبين النَّوائب
يَهُون على مثلى إذا رامَ حاجةً　　وُقوعُ العوالى دونها والْقَوَاضِب
كَثِيرُ حياةِ المرء مِثلُ قليلها　　يَزُولُ وباقى عُمْرِهِ مثلُ ذاهب
إليكَ فانى لست مِمَّن إذا اتقى　　عِضاضَ الأفاعى نام فوق العقارب
أتانِى وعيدُ الأدعياءِ وأنَّهم　　أعَدُّوا لى السُّودَانَ فى كَفْرِ عاقب»
ما أعظم جهارة هذا الشعر وأشجى رنينه
« فمالى وللدُّنيا طلابى نُجومُها　　ومَسْعَاىَ منها فى شُدُوقِ الأراقم

من الحِلْم أن تستعملَ الجهل دونه   إذا اتّسعت فى الحِلم طُرْق المَظالِمِ »
ولم يأخذ هذا من الجعدى « ولاخير فى حلم إذا لم الخ » **إلا** من حيث ظاهر المعنى وإنّما أخذ من بشار « إذا بلغ الرأى المشورة فاستعن الخ » والشبه طريقة التأتى والمنهج وروح الاقتداء من حيث فخامة الأرب وجلاله

«وأن تَرِدَ الماء الذى شَطْره دَمٌ   فتَسقِى إذا لم يَسْقِ من لمْ يزاحم
ومن عَرَفَ الأيام معرفتى بها   وبالناس روّى رُمْحَهُ غَيْرَ راحم
فليس بمَرْحُوم إذا ظفروا به   ولافى الرَّدى الجارِى عليهم بآثم»

وبعد هذه الآفاق البعيدة الأغوار أصداء الكهنوت والعرافة :   **(٢٦)**

«أرى دُونَ ما بين الفرات وبرقةٍ   ضِرَابا يُمَشّى الخيلَ فَوْقَ الجماجم
وطَعْنَ غطاريفٍ كأن أكُفَّهم   عَرَفْنَ الرُّدْينيّاتِ قبل المعاصم
حَمَتْه عَلَى الأعداءِ من كل جانب
سيُوف بنى طُغْجِ بن جُفَّ القماقم »

أو كما قال الآخر

« قَتلنا بعبد الله خَيْرَ لِداته   ذُؤابُ بْنَ أسماءَ بنِ زيدِ بنِ قارب»

قيل لو شاء لبلغ به معد بن عدنان . أو سد ذى القرنين

« هم المحسنون الكرَّ فى حَوْمة الوغى
وأحْسَنُ منه كَرُّهم فى المكارم
ولولا احتقارُ الأسد شَبّهتها بهم   ولكنها معدودَةٌ فى البهائم
سرى النَّوْمُ عنى فى سراى إلى الـ   ـذى صنائه تَسْرى إلى كُلِّ نائم
كريم نفضْتُ الناس لما بلغته   كأنهم ماجفَّ من زاد قادم
وكاد سُرورى لايفى بندامتى   على تَرْكِه فى عمرى المتقادم»

هذا يقوله فى ابن سادة كافور وهو مقبل من وراء الغيوب إلى مديح كافور وقد بقيت من مرارة أبى الطيِّب ــ مرارة الحميَّة والحماسة عهدَ الأمل

ـ بقية لاذعة بعد فراقه حلب . . بقية بعد إذ أمن تمنى معها الموت

« كفى بك داءً أن ترى الموْتَ شافيا
وحَسْبُ المنايا أن يَكُنَّ أمانيا

تمنّيتهـا لما تمنيتَ أن تـرى
صديقاً فأعيا أو عدوّاً مداجيا

حَبَبْتُك قلبي قبل حُبِّك من نأى
وقد كان غدّارا فكن أنت وافيا

أَقلّ أَشتياقاً أيها القَلْبُ ربما
رأيتُكَ تُصفِي الودَّ من ليس جازيا

خُلِقتُ ألوفاً لو رَجَعْتُ إلى الصِّبا
لفارقت شيبي موجع القلب باكيا »

قيل يعرض بسيف الدولة . والراجح التعريض بحلب كلها ـ وفيها محبوبتة بآية قوله في البائية التي مدح بها كافورا ؟ ـ

« وللسرِّ مني مَوْضِعٌ لاينالـه نَديمٌ ولا يُفْضى إليـه شراب
وللخودِ مني ساعةٌ ثم بيننـا فَلاَةٌ إلى غـير اللقاء تجُـاب »

وكان كما قال :

« وما العِشْقُ الا غِرَّةٌ وطماعَة يُعَرِّض قلبه نَفْسَـه فتصاب
وَغَيْر فؤادي للغوانـي رمِيَّةٌ وغير بنانـي للرِّخاخ ركاب »

وماذكر الرخاخ إلا وقد كان له بها عهد وربك أعلم أى ذلك كان .

« فراق ومن فارقتُ غَيْرُ مُذَمَّمِ وأَمٌّ ومن يَمَّمْتُ خَيْرُ ميمم
وما مَنْزِلُ اللّذاتِ عندي بمنزل إذا لم أُبَجَّلْ عنده وأُكَرَّم
سَجِيّةُ نَفْسٍ ما تزال مُلِيحَةً من الضَّيْم مَرْمِيّاً بها كلُّ مَخْرَم
رَحَلْتُ فكم باكٍ بأجفان شادنٍ عليَّ وكم باكٍ بأجفان ضيغم »

وماعنى أهله وجواريه ولكنّ العقائل من آل حمدان . . . ولولا بعض هذا الشعور لما لهج في مراثيه لحن ببعض ماستنكره نقاد شعره ببغداد وجعله أبو

منصور من باب إساءة الأدب بالأدب كقوله :

« صَلاَةُ الله خالقنـا حَنُوط   عَلَى الوجهِ المكفّـن بالجمال »

قال « فلا أدرى هذه الاستعارة أحسن أم وصفه وجه والدة ملك يرثيها بالجمال أو قوله في وصف قرابتها وجواريها

« أتتهـُنّ المُصِيبَةُ غافلاتٍ   فدمعُ الحسن فى دمعِ الدّلالِ »

قال : « وكان أبو بكر الخوارزمي يقول ، لو عزّاني إنسان على حرمة لى بمثل هذا لألحقته بها الخ » فى هذا المجرى من الحسد الكالح .

والحق أن أبا الطيّب كان شاعر بلاط الأمير ، تشركه فيه الكرائم . ولم يكن بذى فحشاء وكان ذلك من أمره معلوما . وكان بلاط الأمير لايخلو من دعوى رجعة إلى المجد القديم حين لم يكن الغزل نائرة إذ هو شريف ، عَهْدَ اختفى ابن الرقيات عند كثيرةَ ،وتشفّع بأم البنين ، واعتذر ابن أبى ربيعة عن مدح عبد الملك بمدح النساء وفيهن ابنته فاطمة ، ولم يزد الحجاج ، وكان مغياراً معروفا بذلك ، على تَوَعّد النميرى لما ذكر زينب أخته ، كأنّ هذا كان لونا من « النيوكلاسكية » يتظرف به بلاط الأمير الحمدانى التغلبى ظرفا يجمع بين حاضره البغدادى الشامى المترف ، وماضيه البدوى السمح البسيط . . ومصيف البادية طرف من هذا . . ومشتى الصحصحان . . واصطناع الجزالة الذى عند ابن الرومية أبى فراس

«إذا خِفْتُ من أخوالىَ الرُّوم خُطة   تَخوَّفت من أعمامىَ العُرُبِ أربعا»

«وَفارَقَ عمرو بنُ الزبيرِ شقيقَـه   وخلّى أميرَ المؤمنـين عقيل»

«ولاخيرَ فى دَفْعِ الرَّدَىَ بمـذلةٍ   كما ردّها يوما بسوءته عمرو »

وما كان من بـاب إساءة الأدب ذكر أبى الطيّب النساء إذ رثى أم سيف الدولة فقال :

« مَشَىَ الأمراءُ حَوْلَيْها حُفاةً   كأن الْمَرْوَ من زِف الرئال »

أى كأن الحجارة من ريش صغار النعام . .

« وأخرجتِ الحجال مخبآتٍ   يَضَعْنَ النِّقْسَ أمْكِنَةَ الغوالى »

وفيهن ذات البعير المقلد لاريب . .

«أتَتَنْهُــنَّ المصيبةُ غافلاتٍ فدمعُ الحزنِ فى دمعِ الدَّلالِ»

ونفر من هذا أبو منصور بذوقه المتفقه المتحصر المتنطس — وما أراد أبو الطيِّب إلاّ أن يجعل الأميرات إزاء الأمراء، هؤلاء حفاة فوق المَروْ وهم الرقاق النعال، وهؤلاء عليهنِ النقس وهُنَّ ذوات الدلال، ولاشك أن سيف الدولة والألى معه ماأنكروا من مقال أبى الطيِّب شيئا وأنَّ الأميرات قد أعجبهن وربما كن قد دسسن من يشير على الشاعر بأن يُذْكَرْن .

ومثل هذا التأبين فيه مدح لهن . .

«وَلَو كانَ النِّسَاءُ كمثلِ هذى لفُضِّلتِ النساءُ على الرجالِ

وما التأنيثُ لاسمِ الشَّمْسِ عَيْبٌ وما التذكير فخــر للهلال»(٢٧).

وقول أبى الطيِّب :

«رَحَلْتُ فكم باكٍ بأجفان شادنٍ علىَّ وكم باكٍ بأجفانِ ضيغم»

ومن هذا النهج . .

«وما رَبَّة القرطِ المليــح مكانُه بأجْزَعَ من ربِّ الحسامِ المصمم

ومع أنَّ ظاهر المعنى يحتمل العموم ، أى الرجال أشد جزعا على فقدى من النساء والعهد فى شأن النساء أن يَكُنَّ أكثرَ جزعا، إلاّ أنَّ السياق يدلُّ على امرأة بعينها ذات قرط مليح وفارس ضرب ذى حسام رهيب — وهو سيف الدولة بلاريب، الا أنَّ الباكى بأجفان الضيغم أشبه بأن يكون أبا العشائر وما إيَّاه يلوم أبو الطيِّب ولا إيَّاها . . ولكنَّ المعمَّم ذا الحُسام

«فلو كَان مابى من حبيبٍ مُقَنَّع عَذَرْت ولكن من حبيبٍ معمم

رمى واتقى رَمْيِى ومن دُونِ مااتقى هَوىً كاسِرٌ كفِّى وقَوْسِى وأَسْهُمى»

وفى هذا على ما فى ظاهره من المجاز إشارة إلى ماكان من محاولة اغتياله عشيَّة انتسب له راميه إلى أبى العشائر . .

ثم يشوب المرارة حزن عميق . .

«إذا ساء فعلُ المرءِ ساءت ظنونه وصدّق ما يعتاده من توهّم
وعادى محبّيه بقولِ عداته وأصبح فى ليلٍ من الشكّ مظلم
أصادقُ نفسَ المرء من قبل جسمه وأعرفُها فى فعله والتكلم »

— مسكين أبو الطيّب —

«وأحلم عن خلىّ وأعلم أنّه متى أجزه حلماً عن الجهل يندم»

— وهذا احترس به أمام كافور حفاظا على مكارم الأخلاق، وخشيةَ ألاّ يحمل مقاله محمل حاقٍّ الهجاء لمن كان ممدوحه من قبل —

« وإنْ بذلَ الانسان لى جودَ عابس جزيتُ بجودِ التّاركِ المتبسّمِ »

هى « التارك » لاريب ومن زعم أنّها « الباذل » لزمه أن يعتذر للتكرار فيما بين «جود» و «الباذل» إذ ليس يعدو معنى «جود» ههنا معنى «فعل»(٢٨) لدلالة الباذل عليه .

« وأهوى من الفتيان كل سميدعٍ نجيب كصدر السمهرىّ المقوّمِ
خطت تحته العيسُ الفلاة وخالطت به الخيلُ كبّاتِ الخميسِ العرمرمِ
ولاعفّةٌ فى سيفه وسنانه ولكنّها فى الكفّ والفرجِ والفمِ
وما كلُّ هاوٍ للجميلِ بفاعلٍ وما كل فعّالٍ له بمتمّمِ »

وقد عرض لهذا المعنى بعينه من بعد، فجاء به خاليا من المرارة، أملاً بروحِ الحزن العميق :

« عجبتُ لمن له قدٌّ وحدٌّ وينبو نبوةَ القضِم الكهام »

يعنى سيف الدولة

«ومن يجدُ الطريق إلى المعالى فلاَ يذرُ المطىّ بلا سنام»

يعنى نفسه

«ولم أرَ فى عيوبِ النّاسِ شيئا كنقصِ القادرين علَى التمام»

يعنى كافوراً

«أقمتُ بأرضِ مصرَ فلا ورائى تخبُّ بىَ الركابُ ولا أمامى

وَمَلَّنِيَ الفِرَاشُ وكان جَنْبِى ... يَمَلُّ لِقاءَه فى كُلِّ عَامِ
قليلٌ عائِدى سَقِمٌ فُؤادِى ... كَثِيرٌ حَاسِدى صَعْبٌ مَرَامِى»

وإذ كثروا وهو منفرد فلابدَّ أنهم ظاهرون عليه آخر الأمر —

«عَلِيلُ الجِسْمِ مُمْتَنِعُ القِيَامِ ... شَدِيدُ السُكر من غيرِ المُدَامِ
وزَائِرَتِى كأَنَّ بِهَا حَيَاءً ... فَلَيسَ تَزُورُ إلاَّ فِى الظَّلامِ»
«أراقبُ وَقْتها مِن غيرِ شَوْق ... مُرَاقَبَةَ المَشُوقِ المُسْتَهامِ
وَيَصْدُقُ وَعْدُها والصِّدْقُ شَرٌّ ... إذا أَلْقَاكَ فى الكُرَبِ العِظَامِ»

— ولاينبئك مثل خبير —

أبِنْتَ الدَّهْرِ عِنْدِى كُلُّ بِنْتٍ ... فَكَيْفَ وَصَلْتِ أَنْتِ مِنَ الزِّحَامِ
جَرَحْتِ مجَرَّحاً لم يَبْقَ فيه ... مَكَان للسُيوفِ ولا السِّهَامِ.
أَلاَ يالَيْتَ شعر يدى أتُمْسِى ... تَصَرَّفُ فى عِنَانٍ أو زِمَامِ
وَهل أرْمِى هَوايَ براقِصَات ... مُحلاَّة المَقَاوِدِ باللُغَامِ
فَرُبَّتَمَا شَفَيْتُ غَلِيلَ نَفْسِى ... بِسَيْرٍ أو قَنَاةٍ أو حُسَامِ
وَضاقَتْ خُطَّةٌ فَخَلَصْتُ مِنْهَا ... خَلاصَ الخَمْرِ من نَسْجِ الفِدَامِ»

هذا نَفَسٌ من عهده الأوَّل ، إلاَّ أنَّ أعياء التجربة وموضوعيتها أغلب على سِنْخِه — وما هو إلاَّ أن أقدم أبو الطيِّب ففارق كافورا حتى كان فراقه له شفاء لسخيمة نفسه أو كما قال :

فَرُبَّتَما شَفَيْتُ غَلِيلَ نَفْسِى ... الخ

ذهبت المرارة بأسرها ، وبقى رضا الصبر والشكر ومنالة المال ، وحسرات الإخفاق بعد انفلال شباة الطموح . . على صخرة الحياة :

«هوِّن عَلَى بَصَرٍ ما شَقَّ مَنْظَرُه ... فإنَّمَا يَقَظاتُ العَيْنِ كالحُلُمِ
ولا تَشَكَّ إلى خَلْقٍ فَتُشْمِتَه ... شَكْوَى الجَرِيحِ إلى الغِرْبَانِ والرَّخَمِ»

إذ كان يسيل دما وهم يلعقون ، الأسود اللابىُّ والجوارح التى معه . . والجوارح التى لقى من قبلُ وسيلقى من بعدُ .

«وَكُنْ عَلَى حَذَرٍ للنَّاسِ تسْتُرهُ   وَلا يغرُّك مِنهُمْ ثغْرٌ مُبْتَسِمِ»

— كافورٍ أو سواه —

«غَاضَ الوَفَاءُ فَمَا تَلْقَاهُ فى عِدَةٍ   وَأعْوَزَ الصِّدْقُ فى الإخبارِ والقَسَمِ»

كوعد كافور أو الّذى نمى إليه من وعده ، وكقسم ابن حنزابة وكان أكرم عنده أوّل الأمر وأوثق من أيمان ابن كيغلغ المطردات ككعوب الرُّمح فى نسق . ولعلّه هو أيضا أن يضطر فيفعل كما يفعلون —

«سُبْحَانَ خَالِقِ نَفْسِي كَيْفَ لذّتُها   فِيمَا النُّفُوسُ تَرَاهُ غَايَةَ الأَلَمِ»

الدّهْرُ يَعْجَبُ من حَمْلِي نَوائِبَهُ   وَصَبْرِ نَفْسِي عَلَى أحْداثِهِ الحطمِ

وَقْتٌ يَضِيعُ وَعُمْرٌ لَيْتَ مُدّتَهُ   فى غيرِ أُمّتِه من سَالِفِ الأُمَمِ

أَتَى الزّمانَ بَنُوه فى شَبِيبَتِه   فَسَرَّهُمْ وَأَتَيْنَاهُ عَلَى الهَرَمِ»

أىُّ زمان تمنّى أبو الطيِّب أن يكونه فى مصر من عهودها السالفات . . أو من عهوده هو السالفات . .

« قَمِيصُ يُوسُفَ فى أَجْفَانِ يَعْقُوبِ »

«لَوْلا العُلَى لم تَجُبْ بى ماأجُوبُ بِهَا   وَجْنَاءُ حَرْفٌ وَلاجَرْدَاءُ قَيْدُودُ

وكانَ أطْيبَ من سَيْفِى مُضَاجَعَةً   أشْبَاهُ رَوْنَقِهِ الغِيدُ الأمَاليدُ»

لاشكَّ أنّه كره الرحلة من مصر . وقد كان قال من قبل :

« مَنْ أطَاقَ الْتِمَاسَ شيءٍ غِلاباً   واغْتِصَاباً لَمْ يَلْتَمِسْه سُؤَالا »

وقد أعمل فكره وشعره لينال العلى فى مصر بالسؤال عند عزيزها كافور ، إذ عمل القلم سؤال . ثم أخفق بعد أن كاد ينجح كما قد أخفق فى أوّل الصبا من قبلُ حين رام العلى بالغلاب والاغتصاب فى سماوة كلب بين البدو والطغام بعد أن كاد ينجح — لقد كانت وسائله فى المرّة الأولى هى المجدية لو كان التزم بها وحافظ عليها . ولكنّ شيطان الشعراء راوده عنها فأضلّه الضلال البعيد ، وذلك حيث يقول :

«مازِلْتُ أُضْحِكُ إبْلى كلَّما نَظَرتْ إلى مَنِ اختَضَبتْ أخفَافُها بِدَمِ»
ــ إلى دولة الخدم بلاريب ! ــ
« أُسيرُهَا بَيْنَ أصْنَام أشَاهدُها وَلا أشاهدُ فِيها عِفّةَ الصَّنَمِ»
حتى رَجَعْتُ وَأقلامِي قَوَائِلُ لى المَجْدُ للسَّيفِ ليْسَ المَجدُ للقَلَم
اكْتُبْ بِنَا أبداً بَعدَ الكِتَابِ بِه فإنَّما نَحْنُ للأَسْيافِ كالخَدَمِ
أَسْمَعْتِني وَدَوائِي مَا أَشَرتِ بِه فإنْ غَفَلْتُ فدائى قِلَّةُ الفهم
من اقْتَضَى بِسِوَى الهِنْدِيِّ حَاجتَه أَجابَ كُلَّ سُؤال عن هل بِلَمِ
تَوَهّم القَومُ أنّ العَجْزَ قَرَّبنَا وفى التَّقرُّبِ مَايَدْعُوا إلى التُّهَمِ
وَلم تزَلْ قِلّةُ الإنصَافِ قَاطِعَةً بَيْنَ الرِّجَالِ وإنْ كَانُوا ذَوِي رَحِمِ»
جهارة الشجى ، وموسيقا الأعماق الّتى من سِنخِ شعر أبى الطيّب قد فارقها ههنا أرن الشباب ، ومرارة النضال الباسل ، وطرب الخفّة إلى الأمل ، وخالطها عناء السفر ومجاهدة اللُغُوب ، واستشعار المأساة :
«عَلَى لاحِبٍ لا يُهتَدى بِمَنَاره
إذا سَافَه العَوْدُ الدِّيَافِيُّ جَرْجَرَا(٢٩)
تَقَطّعَ أَسبَابُ اللُبَانَةِ وَالهَوَى عَشِيَّةَ جَاوَزْنَا حَمَاةَ وَشَيْزرَا»
أو كما قال علقمة :
«هَدَانِي إليك الفَرْقَدان وَلاحِبٌ لَه فَوْقَ أصْوَاءِ المَتَان عُلُوبُ(٣٠)
بِهَا جِيَفُ الحَسْرَى فأمَّا عِظَامُها فَبِيضٌ وَأمَّا جِلْدُها فَصَلِيبُ
تُرَاد على دِمْنِ الحِيَاضِ فإنْ تَعَفْ فإنَّ المندّى رحلَةٌ فرُكُوبُ »
وقد أراد أبو الطيّب نفسه العزوف على دمن الحياض فعافت فلم يبق إلاّ الرحلة فالركوب حتى تسقط بين جيف الحسرى . .
«ولَمْ تزَلْ قِلّةُ الإنصَافِ قَاطِعَةً بَيْنَ الرِّجَالِ وإنْ كَانوا ذَوِي رحم»
كإخراج سيف الدولة ابن عمه وقتلِ ناصر الدولة عمّه . . أم المعرفة أقوى من جميع ذلك .
«فَلاَ زِيَارَةَ إلاَّ أنْ تَزُورَهُمُ أَيْدٍ نَشَأْنَ مَعَ المَصْقُولةِ الخُذُمِ

مِنْ كُلِّ قَاضِيَةٍ بالمَوْتِ شَفْرَتَه   مابَيْنَ مُنْتَقَمٍ مِنْه ومُنْتَقِمِ»

ماخرج أبو الطيِّب من مصر إلاَّ وهو يريد العلى عن طريق السيف كما قال :

«فَلا زيارَةَ إلاَّ أنْ تَزُورَهُمُ   أَيْدٍ نَشَأْنَ مَعَ المَصْقُولَةِ الخُذُمِ»

ومن « دُونَها غَوْلُ الطَّرِيقِ وَبُعْدُه »

وكلا هذين نبوءة وبيان . . هل كان أبو الطيِّب لم يزل فى قلبه الحنين إلى حلب سيف الدولة وأنطاكية أبى العشائر

تَقُود مستحسن الكلام (له)   كما تقود السحاب عظماها

لعلَّ شيئا من هذا قد كان ، والله تعالى أعلم .

(٥)

قال أبو الطيِّب :

«عَدِمْتُ فؤاداً لم تَبِتْ فيه فَضْلَةٌ لِغَيرِ الثَّنايا الغُرِّ والحَدَقِ النُّجْلِ»

كأنّه ههنا أقرّ أنّهنّ يأخذن من الفؤاد قدرا عظيما . قال أبو تمام :

«أَهُنَّ عَوادِي يُوسُفٍ وصَواحِبُه فعَزْماً فقِدْماً أَدْرَكَ النُّجْحَ طالِبُه»

قال تعالى « فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ » — قيل حتى (١) أبنّها ولم يشعرن . وقيل « حَزّاً حَزّا » ، وهذا يدل على تعمّد منهنّ والإكبار جعلهنّ لايشعرْنَ . ولازال الفتيان في بعض النواحي إذا أعجبهم الفتيات حزّوا أيديهم بالسكاكين ، حَزّاً حَزّا . كأنهن فعلن ذلك تسليما لها بعظم مارأت واعترافا ، والله تعالى أعلم .

« ذَرِيني أَنَلْ ما لا يُنالُ من العُلى

فصَعْبُ العُلى في الصَّعْبِ والسَّهْلُ في السَّهْلِ

تُريدِينَ لُقْيانَ المَعالي رَخيصةً (٢)

ولابدَّ دُونَ الشَّهْدِ من إبَرِ النَّحْلِ »

أيْ سؤالا والتماسا كما ظنّ بمصر حين أعجبته الدعة والتبس عليه أمرها بأمر العلى . . حتى خاطب حُماةَ ربةِ الهودج من وراء التيه :

« ممّا أضرَّ بأهلِ العِشقِ أنّهُمُ هَوُوا وما عَرَفُوا الدنيا ولا فَطِنوا(٣)

تَفْنَى عيونُهُم دَمْعاً وأنفُسُهم في إثر كُلِّ قبيحٍ وَجْهُهُ حَسَنُ

تَحَمَّلوا حَمَلَتكُمْ كُلُّ ناجيةٍ فكلُّ بَيْنٍ عليَّ اليَوْمَ مُؤتَمَنُ(٤)

مافي هَوادِجِكم عن مهجتي عِوَضٌ

إن مُتُّ شَوْقاً ولا فيها لَها ثَمَنُ »

فإن كان المشوق إليها إنسان أبى العشائر فعلَّها أيضا كانت ذات دالَّة عند آل سيف الدولة . وقد رأى أبو الطيِّب خــولة ، وكانت كبرى أختى سيف الدولة ، وذلك قوله :

«فما تَقلَّدَ باليَاقُــوتِ مُشْبِهُهَا وَلاتَقَلَّدَ بالهِنْدِيَّة القُضُبِ
وَلا ذكَرْتُ جميلاً من صَنَائِعِها إلاَّ بكَيْتُ وَلا وُدٌّ بلا سَبَبِ(٥)
قَدْ كان كُلٌّ حِجَابٍ دُونَ رُؤْيَتِها
فَهَلْ قَنِعْتِ لهَا ياأرْضُ بالحُجبِ
وَلا رأيتِ عُيُونَ الإنس تُدْرِكهــا
فهل حسدتِّ عليها أعيُنَ الشُّهبِ »

— ولم يقل تبصرها وما صنع أدقّ —

« وَهل سَمِعْتِ سَلاماً لى ألمَّ بِهَــا
فقد أطَلْتُ وَما سَلَّمْتُ مــن كَثَبِ »

وإن جاز أن يكنى بها عن سيف الدولة جاز أن يكنى به عنها أو عن سواها ممن يمتُّ إليهما متى سلم له السياق بذلك. قال أبو منصور : «وماله يُسلِّم على حُرَمِ الملوك ويذكر منهنَّ مايذكره المتغزِّل »

«وَكَيفَ يَبْلغُ مَوْتَانا الّتى دُفِنَتْ وَقد يُقَصِّر عن أحيائنا الغَيَبِ »

قال العكبرى : «يُعرِّض بسيف الدولة وأنَّه يقصر سلامه دونه . وأنكر ابن(٦) فورجة هذا التعريض ، وقال : هو على عمومه ، يريد أن السلام يقصر عن الحى الغائب فكيف عن الميِّت ، وليس فى الكلام سيف الدولة . » أ . ه .

وصدق ليس فى الكلام سيف الدولة ولكن حيّاً غائبا آخر . .

« ياأحْسَنَ الصَّبْرِ زُرْ أوْلى القُلُوبِ بِهَا »

وهو سيف الدولة ، أو أبو الطيِّب . ثمَّ سيف الدولة بعد أنفع السحب ، وفى الكلام ، كما لايخفى ، دعاء بالسقيا :

« وقلْ لصَاحِبِهِ يا أنفعَ السُّحُــبِ »

وما أشبه أن تكون خولة قد كانت بَرْزَةً ذات حجب للمهابة والإمارة وكانت لها صنائع . وكان أبو الطيِّب يُلِمُّ بها ويسلِّم عليها أدبا وتَكْرِمَةً ويذكر حسن ابتسامها فضيلة لها :

« بَلى وَحُرْمَةِ من كانت مُرَاعِيَةً لِحُرْمَةِ المَجْدِ والقُصَّادِ والأَدَبِ

وَمن مَضَتْ غَيْرَ مَوْروثٍ خلائقُها
وَإن مَضَتْ يَدَها مَوْروثَةَ النَّشَبِ

وَهَمُّها فى العُلى وَالمَجْد نَاشِئَةً
وَهَمُّ أترابها فى اللّهْوِ وَاللّعِب »

ـــ وإذن فقد تقدمت بها السنُّ ـــ

يعْلَمْنَ حِينَ تُحَيَّا حُسْنَ مَبسِمِها وَلَيْس يَعْلَم إلاّ الله بالشَّنَبِ»

قال أبو منصور : « وكان أبوبكر الخوارزمى يقول لو عزّانى إنسانٌ عن حُرْمَةٍ لى بمثل هذا لألحقته بها وضربت عنقه على قبرها . » وخفى عنه ما فى الفضيحة من ضرب عنق رجل على قبر حرمة له . وهذا بَجْحٌ لَزِجٌ وكان قد ألمَّ ببلاط سيف الدولة منتجعا فما عدا ههنا أن ذمّه وهو إنّما يُريد ذمَّ أبى الطيِّب فتأمَّل . . وكالّذى ذهب إليه كان يفعله البيضُ الامريكيون(٧) حين يتهمون أسود منهم بأمرأة بيضاء ، يُؤمَر بقدرٍ فَيَمْلأُها ماءً ويوقِدُها حتى إذا غلت أُمِرَ فَدَخلها حتى إذا همد وبردت ، حملها أصحابه فألقوا جنازته المنضجة على قبر البيضاء لتأكلها السباع ـ وتكون هى قد قُتِلَتْ بالسم فيقال انتحرت أو ماتت موتا طبيعيا . وقد تكون هى أمرت الأسود فأطاع ، كالذى رامت امرأة العزيز وصواحبها من يوسف فعصمه العاصم وقال ابو الطيِّب :

«مَسَرَّة فى قُلُوبِ الطِّيْبِ مَفْرِقُها وَحَسْرةٌ فى قُلوب البَيْضِ وَاليلب»

اليَلَبُ الدروع اليمانية والبَيْضُ الخُوذات . وهذا البيت من شواهد أنها مُسِنَّة ، قد تضع من ثوبها غير متبرجة بزينة لتضع من الطيب على مفرقها وقد يكون من طيب ذات الهودج . وفى البيت صفة مشاهد . وأغضى عنه أبو منصور أن يجعله من باب إساءة الأدب بالأدب وجعله فى باب إبعاد

الاستعارة والخروج بها عن حدِّها ، قال : « فجعل للطِّيبِ والبَيْضِ واليَلَب قلُوبا »

« إذا رأى ورآها رأسَ لابِسِه رأى المقانع أعْلَى مِنْه فى الرُّتَبِ »

ورأس مفعول به لرأى الأولى . وفى البتين تفضيل لخولة على الرجال ، مطلق العموم ، وأخوها مستثنى ــ أم لعلَّه فيهم ــ بحكم السياق . وهذا كقوله :

« فَمَا تَقَلَّدَ بالياقوتِ مُشْبِهُها ولا تَقَلّد بالْهِندِيَّةِ القُضُبِ »

وفى تكرار هذا المعنى إشعار باجلال معرفة وسابقة من معروف وود . ولعلَّ خولة كانت تشفع لأبى الطيِّب عند أخيها وتدافع عنه من كيد أبى فراس وآله وتعلم من أمر ذات الهودج وتصون .

وكان سيف الدولة قد جزع لوفاة أخته الصغرى أيام أبو الطيِّب بحلب ، فعزاه أبو الطيِّب بلاميَّته :

«إنْ يَكُنْ صَبْرُ ذِى الرَّزِيَّة فَضْلا تَكُن الأفْضَلَ الأعزَّ الأجَلاَّ

قَاسَمَتْكَ المَنونُ شَخْصَيْنِ جَوْراً جعل القسم نفسه فيك عَدْلا »

أى أَخْذُها ما أَخَذَتْ جَوْرٌ وتركُها ماتركَتْ عَدْلٌ ــ لا أنَّ الكبرى أحبُّ إلى سيف الدولة من الصغرى . ــ

« فإذا قِسْتَ ما أخَذْنَ بِمَا أغْدَرْنَ سَرَّى عن الفؤاد وَسَلَّى »

لأ نَّهُنَّ أبقينه وأبقينها . والفؤاد ههنا فيه عموم مطلق ؛ فؤاد سيف الدولة وفؤاد أبى الطيب وهلم جرا . ولايخلو سيف الدولة أن يكون قد أنشد هذه اللاميَّة أو أُنْشِدَهَا لمَّا ألمَّت مصيبة الكبرى بعد بين أبى الطيِّب ، فحنَّ إلى عزاء منه أو أشير عليه بذلك . أشار عليه أبو العشائر مثلا ، فكتب إليه ينعاها . فذلك قوله :

«طَوَى الجَزِيْرَةَ حَتَّى جاءَنِى خَبَرٌ فَزِعْت مِنْهُ بآمالى إلى الكذب

حتّى إذا لم يَدَعْ لى صِدْقه أملاً شَرِقْت بالدَّمع حتّى كاد يشرق بى»

أى حتى أختلط النخيج بالعبرات وتناثر الدمع فهذا قوله : « كاد يشرق بى »
وأخذه من قول امرىء القيس :
«كأنّى غَداةَ البَيْنِ يَوْمَ تَحَمَّلُوا لَدَى سَمُرات الحَىِّ ناقِفُ حَنْظَلِ»
ومن صورة من صور صباه ظلت عالقة فى ذهنه — يدلك على ذلك أنه لم يقل حتى شرق بى ، ولكن كاد يشرق بى . وفى هذا علاج وحركة ومكابدة كما ترى .
« تعثّرت به فى الأفواه ألسُنها (٨)
وَالبُرْدُ فى الطُّرقِ وَالأقلامُ والكُتُبُ »
كأنّه ههنا يرى أفواهاً تَتَعثّر بنعيها وَبريداً يستن فى طرق يعلم وَأقلاما فى أكف بين حلب وأنطاكية وَخدود الغانيات وفوقها الدموع «دموعٌ (٩)
تُذيب الكُحْل فى الأعين النجل . .
تَبُلُّ الثرى سُوداً من المِسك وحده
وقد قَطرَتْ حُمْراً عَلَى الشّعَرِ الجَثْل»
وذلك أنّها اختلطت بالدم — دم حمرة الخدود يرف ضوءها عليها وهى تسقط على الشعر الجثل ، ثم يخالطها سواده وسواد المسك فيجعله الشاعر أفواها فى المدام .
« شَرِقْتُ بالدَّمْعِ حَتىَّ كَادَ يَشْرَقُ بِى »
أم يذكر أبو الطيِّب عهد إذ نعيت جدته لأمِّه ؟!
غيبته فكتب إليها كتابا فلمَّا وصلها قبلته وفرحت وكانت قد يئست منه لطول
وَحُمَّتْ من وقتها لمَّا غلب عليها السرور فماتت .
«يَقُولُون لى ما أنْتَ فى كُلِّ بَلْدَةٍ وماتَبتَغى ؟! ما أبتغى جلَّ أن يُسْمى
كأنَّ بَنيهِمْ عالِمُون بأنَّنى جلوبٌ إليهم من معادنه اليُتْما »
وذلك أنّه خَبِرَ اليُتم. توفِّى أبوه حين ترعرع وبرع . وأمّه من قبلُ أو بعدُ ، وجَدَّته التى صفة كتاب سيف الدولة الآن إنمَّا هى من معدن كتابه إليها :

أتَاهَا كِتَابِي بَعْدَ يأسٍ وتَرْحَةٍ   فَمَاتَتْ سُروراً بى فمُتُّ بها غَمّاً
حَرَامٌ عَلَى قَلْبِي السُّرُورُ فإنَّنِي   أعُدُّ الّذى ماتَتْ بِهِ بَعْدَها سُمّاً
تَعَجّبُ من خَطِّي ولَفْظِي كأنّها   تَرَى بِحُرُوف السّطْرِ أغرِبةً عُصْما
وتَلْثِمُه حَتّى أصَار مِـــدَادُه   مَحاجِرَ عَيْنَيْها وأنيابها سُحما»

وقد هَزِىءَ الدكتور طه من جميع هذا بأنّ المداد الذى أصار محاجر عينيها وأنيابها سحما لعلّه هو الّذى قتلها. وهذا فرض بعيد إذ الغالب فى مداد البدو أن يكون من السّكن – أى سواد النار – مع الصمغ. قال الجوهرى فى مادة صمغ: «وحِبْرٌ مُصَمَّغٌ أىْ مُتَّخَذٌ مِنْهُ».

وقد مزج أبو الطيِّب مزجا مذهلا كما ترى بين صورة سرورها بكتابة وما كان يأمل من فرح لقائها وعناقها – كمزجه ههنا بين شرقه بالدمع به وتعثر أفواه من يحب بمنعى خولة .. نَعْيَنَها إليه فيما بين أنطاكية وحلب.

وقد كانت جدّة أبى الطيِّب قارئة كاتبة – وكأنّه كانت من خولة فيها(١٠) مشابه من حزم وكرم نفس وقوة شخصيّة وحبٍّ لأبى الطيِّب وعطف عليه
«وما انْسَدّت الدنيا علىّ لضيقِها   ولكنّ طَــرْفاً لا أراكِ به أعْمَى
فو أسفا ألاّ أُكِـــبّ مقبــلا   لرأسكِ والصدر اللّذَى مُلِئا حَزْما(١١)
وَألاّ ألاقِى رُوحَكِ الطيِّبَ الّذى   كأنّ ذكِيَّ المســكِ كان له جِسْما
وَلو لَمْ تَكُونِى بِنْتَ أكرمِ والدٍ   لَكَانَ أباكِ الضّخْمَ كَوْنُكِ لى أمّاً»

وربّما كان من آية حزمها أنّها رامت صدّه عن الشام إذ عاد إلى الكوفة بعد موت أبيه. وزعم أبو العلاء فى الغفران أنّ أوّلَ طلوعه الشام كان عام أحد وعشرين وثلثمائة وهو ابن ثمان عشرة، وأنه عاد بعدُ إلى العراق فلم يقم إلاّ قليلا وذلك حين نظم كلمته:

«كَفَى أَرَانِى وَيْكِ لومَكِ ألْوَمَا»

والراجح ماذكر الثعالبيُّ وهو أقرب دارا وعهدا بمبدأ أمر أبى الطيِّب ومنتهاه، قال: «ذَكَرَتِ الرُّواةُ أنه وُلِدَ بالكُوفَةِ فى كِنْدَةَ سنة ثلاث

وثلاثمائة وأنّ أباه سافر إلى بلاد الشام فلم يزل ينقله من باديتها إلى حضرها ومن مدرها إلى وبرها ويسلمه فى المكاتب ويردّده فى القبائل، ومخايله نواطق بالحسنى عنه وضوامن النجح فيه حتى توفى أبوه وقد ترعرع أبو الطيّب وشَعَرَ وبَرَع الخ » . . . فهذا خبر مثبت كما ترى . ويجوز أنْ نظمت هذه الميميّة بعد وفاة أبيه وقبل دعواه ماادعى ببادية الشام ، قال أبو العلاء : « وكان قد طمع فى شىء قد طمع فيه من دونه ، وإنّما هى مقادير » .

وتكون عودته إليها بعد خروجه من السجن بزمان

«أردتُ لَهَا حَظّاً فَفَاتَتْ وَفَاتَنِي وَقَدْ رَضِيَتْ بى لَوْ رَضِيتُ بِهَا قَسْمَا»

وهذا يدلُّ على أنّها وحدها الّتى بَقِيَت من أهله .

ولعلّه كان من بيت فضل ودين إذ لايسلمه أبوه إلى المكاتب ، وتكون جدّته تقرأ :

« تَعَجَّبُ مِنْ خطّى ولَفْظى كأنّهَا
تَرَى بحُرُوف السَّطْرِ أَغْرِبه عُصْمَا »(١٢)

ويكون مع ذلك من أجلاف البدو. وبل ربّما يدلُّ هذا على أنّهم كانوا من مشايخ الحىِّ الّذى كانوا فيه من كندة وأكثرها مايكون المشايخ من قريش ، قد يتنتسبون فى القبيلة التى يصحبونها وتختلف حالهم فى الفقر والغنى بحسب أحوال القبيلة وأحوال بعضهم من بعض. ولايقدح فى الّذى نظن ههنا ماقيل من أن أباه كان سقّاءً فقد يضطر البدوى إلى أن يكون سقاء بالحاضرة وليس ذلك بناقصه عند نفسه أو عند قبيلته . وما أشبه أن يكون البغداديون قد ألصقوا هذا بأبى الطيّب كما ألصقوه بأبى تمام كأنه نبز ينبزون به كلّ من قدم عليهم من فضلاء البدو ففلج أمره . وقد ألمع ابن خلكان إلى شىء من سِنْخِ هذا المعنى فى معرض ترجمته له ولأبى تمام .

وفى شعر أبى الطيّب مما يدلُّ على كرم أصله شواهد مثل قوله :

«لابِقَوْمِى شَرُفْتُ بَلْ شَرُفُوا بِى وَبِنَفْسى فَخَرْتُ لاَ بِجُدُودِى
وَبِهِمْ فَخْرُ كُلِّ مَنْ نَطَقَ الضَّا دَ وَعَوْثُ الجَانِى وَعَوْنُ الطَّرِيدِ»

وكقوله :

«وَلَسْتُ بِقَانِعٍ مِنْ كُلِّ فَخْرٍ بِأَنْ أُعْزَى إلى جَدٍّ هُمَامِ»

فهذا يدلُّ على افتخار بالجدود . . . وكذلك قوله :

«أَتَانِي وَعِيدُ الأدْعِيَاءِ وأنَّهمْ أعدُّوا لِيَ السُّودَانَ فى كَفْرِعَاقِبِ»

فلو كان دَعِيًّا ماقاله . وقد كثرت القالة فيه فما ذكروا أنّه دَعِيٌّ . (١٣)

ولم يكن ليقول فى ابن كيغلغ :

«وَأَرْفُقْ بِنَفْسِكَ إنَّ خَلْقَكَ نَاقِصٌ وَاسْتُرْ أَبَاكَ فإنَّ أَصْلَكَ مُظْلِمُ»

وقال أبو العلاء فى رسالة الغفران : « وقد دلّت أشياء فى ديوانه أنّه كان مُتَأَلِّهاً ومثل غيره من الناس مُتَدَلِّهاً ، فمن ذلك قوله : (١٤)

« وَلاَ قَابِلاً إلاَّ لِخَالِقِهِ حُكْمَا »

وقوله :

«مَا أقدَرَ اللهَ أنْ يُخْزِيْ خليقَتَه ولايُصَدِّقَ قوماً فى الّذى زَعمُوا»

الخ ماقال » — ولكأنَّ أبا العلاء ماأراد بقوله « ومثل غيره من الناس » أحدا سوى نفسه . قياسا على قوله على لسان لبيد بن ربيعة فى بيته :

«تَرَّاكُ أمْكِنَة إذا لَمْ أرْضَهَا أوْ يَرْتَبِطْ بَعْضَ النُّفُوسِ حِمَامُهَا»

(وإنّما أردت نفسى ، وهذا كما تقول للرجل إذا ذهب مالك أعطاك بعض الناس مالا وأنت تعنى نفسك فى الحقيقة ، وظاهر الكلام واقع على كل إنسان .)

وقد كان أبو العلاء من بيت علم ودين فى الحضر . . وفى شعر أبى الطيِّب تصوف كثير راسخ من لدن قال :

« أنا مُبْصِرٌ وأظنُّ أنِّى نَائم من كان يَحْلَمُ بالإله فأَحْلَمَا»

«فان يكُن المهدىُّ من بان هَدْيه فهذا وإلاَّ فالهدى ذا فما المهدى»

يُعَلِّلُنَا هذا الزَّمانُ بِذَا الْوَعْدِ وَيَخْدَعُ عَمَّا فى يَدَيْه من النَّقْدِ »

إلى أن قال :

« هل الخَيْرُ شَيءٌ لَيْسَ بالخير غَائِبٌ
أَمِ الرُّشْدُ شَيْءٌ غَائِبُ لَيْسَ بِالرُّشْدِ »

هل كان أبو الطيِّب يُعَلِّلُ نفسه لضرب من المهدية ؟!
أم لم تكن نبوَّته الّتى ادعى فى الحق إلاَّ مهدية صوفيَّة السِّنْخ ثمَّ نبزة من بعد كما ينبز الشعراء . .

« وإنِّى لمن قَوْم كأنَّ نُفُوسَهُمْ
بها أَنَفٌ أَن تَسْكُنَ اللّحْم والعَظْمَا »

هل كان أبو الطيِّب كاذبا . كما احترس أبو العلاء لنفسه إذ قال «واذا رُجِعَ للحقائق فإنَّ نطق اللسان لاينبىء عن اعتقاد الإنسان، لأنَّ العالم مجبول على الكذب والنفاق الخ »

« كَذَا أنا يَا دُنْيَا إذا شِئْتِ فاذْهَبى
ويا نَفْسُ زِيدى فى كَرَائِهِها قُدْمَا
فلا عَبَرتْ بى سَاعَةٌ لا تُعِزُّنِى وَلاَ صَحِبَتْنى مُهْجَةٌ تقبل الظلما

وإذ صَدَقَ فى هذا فَلِمَ يكون كَذَبَ فى ذاك ؟

« إلى أى حين أنت فى زى محْرم وحتّىَّ متَى فى شِقْوَةٍ وإلى كم
وإنْ لا تَمُتْ تحت السُّيوفِ مكرّما
تَمُتْ وتُقَاسِ الذُّلَّ غير مُكَرَّم
فثِبْ واثق باللّهِ وثبةَ ماجد
يرى الموتَ فى الهيْجا جَنى النّحْل فى الفم »

هيهات ذلك الزمان إذ يهيىء نفسه للخروج فى مثل سن مسلم ابن عقيل(١٥)
ومن زمانه وهو يمدح دليز بن لشكروز ويذكر عهد البيضاء : (١٦)

«فلا تَنَلْكَ اللَّيَالِى إنَّ أيْدِيهَا إذا ضَرَبْنَ كَسَرْنَ النَّبْعَ بالغَرَبِ(١٧)
ولايُعِنَّ عَدُوّاً بتّ قَاهِرَه فانَّهُنَّ يَصِدن الصَّقْرَ بالخَرَبِ
وان سَرَرْنَ بمحْبوبٍ فجَعْن به وقد أتَيْنك فى الحَالَيْنِ بِالعَجَبِ

وربَّما احْتَسَبَ الإنسانُ غَايتَها وفَاجَأتْهُ بأمرٍ غَيرِ مُحْتَسَبِ»

هل كان أبو الطيّب يؤمل العودة إلى حلب ؟ !

وَما قَضَى أَحدٌ مِنْهَا لُبَانَتَه وَمَا انْتَهَى أَرَبٌ إلاَّ إلى أَرب

وهذا ينبيء عن قلق فى الأعماق . .

« تَخَالف النَّاس حتَّى لا اتِّفَاقَ لَهُمْ

إلاَّ عَلَى شَجَبٍ وَالخُلْفُ فى الشَّجَبِ

فَقِيلَ تَخْلُصُ نَفْسُ المَرءِ سَالِمَةً

وَقِيل تَشْرَكُ جِسْمَ المرءِ فى العَطَبِ

وَمن تَفَكَّرَ فى الدُّنْيَا ومُهْجَتِه

أقامَهُ الفكر بَيْنَ العَجْزِ والتَّعَبِ»

غناء وعزاء وحديث حزين . لعلّما كان تحدث ببعضه إلى أبى نصر الفارابى أوّلَ سنتيه مع سيف الدولة . (١٨)

« تَقَولِينَ ما فى النَّاسِ مِثْلُكَ عاشِقٌ

جِدِى مِثْلَ مَنْ أَحْبَبْتُه تَجِدِى مِثْلِى

مُحِبٌّ كَنَى بالبِيضِ عن مُرْهَفَاته

وبالحُسْنِ فى أجْسَامِهِنَّ عن الصَّقْلِ

وبالسُّمرِ عن سُمْرِ القَنَا غيرَ أنَّنِى

جنَاهَا أَحِبَّائى وأَطْرَافُهَا رُسْلِى

ذَرِيْنِي أَنلْ مَا لا يُنالُ مِنَ العُلَى

فصَعْبُ العُلى فى الصَّعْبِ والسَّهْلُ فى السَّهْلِ

تُريدينَ لُقْيانَ المَعَالى رَخيصَةً

ولابدَّ دُونَ الشَّهْدِ من إبَرِ النَّحْلِ »

وماهو إلاّ أنْ جاءه كتاب سيف الدولة يستدعيه . .

«وليس الّذى يتَّبَّعُ الوَبْلَ رَائِداً كَمَنْ جاءه فى دَارِه رَائدُ الوَبْلِ

وما أنا ممّن يَدَّعِي الشّوْقَ قلبُه
ويحتجُّ في تَرْكِ الزِّيارَةِ بالشُّغْلِ »

ولكنه احْتَجَّ : —

« وَمَا عاقني غَيْرُ قَوْلِ الوُشَاةِ وإنَّ الوِشَايَاتِ طُرْق الكَـذِبْ »

وفهم سيف الدولة أنَّ هذا رفض ، وعمل أعداء أبي الطيِّب على تأكيد هذا الفهم وكادوه به الكيد القاتل . وكان اتجاه أبي الطيِّب إلى فارس يريد عَضُدَ الدَّولَةِ قد قوَّى حجَّتهم .

على أنَّ الراجح أنَّ أبا الطيِّب مااتجه إلى فارس وهو يلتمس لنفسه أن يُرَوِّي في الأمر . . أيعود أم لا . .

«وما قِسْتُ كُلَّ مُلوكِ البلادِ فدَعْ ذِكْرَ بعضٍ بِمَنْ في حَلَبْ »

وكأنَّ أعداءه أحسوا هذا من قصده أو توقعوه فعملوا على أن يحولوا دونه . . . وكان أبو فراس في الأسر إلاَّ أنَّه قد خُفف عنه وأُذِنَ له في الحركة ، وهادن الدمستق وفاوضه . .

« أرَى المسلمين مع المشركيـ ن إمَّا لعَجزٍ وإمّا رَهَـب
وأنتَ معَ الله في جانبٍ وَدَانَ البرِيَّـةُ بابْنٍ وأب

وكانت سخينة أمه ، وابنتها ومن حولهما ، كل أولئك يوافونه بأنباء (١٩) أبي الطيِّب وما كان من أمره . وكتب إلى سيف الدولة يعرض بلاشك ، بانصراف أبي الطيِّب عنه إلى المشرق : « مفاداتى أن تعذرت فأذن لى في مكاتبة أهل خراسان ومراسلتهم ليفادوني وينوبوا عنك في أمرى » قال أبو منصور « فأجابه سيف الدولة بكلام حسن وقال ومن يعرفك بخراسان ؟! فكتب إليه أبو فراس : أسيفَ الهدى وقريعَ العرب الخ »

والقصيدة كما ترى مجاراة لبائيَّة أبي الطيِّب وفيها يقول :

«وإنَّ خُرَاسَان إنْ أنكَـرَتْ عُـلاىَ فَقَدْ عَرَفَتْهَا حلَبْ
ومِنْ أيْنَ يُنْكِرُنِي الأبْعَدُونَ أمِنْ نَقْص جَدٍّ أَمِنْ نَقْصِ أَبْ

«ألستُ وَ إيّاكَ من أُسْرة وَبيني وَبينَكَ عِرقُ النَّسَبْ»

ولعلّه لم يبعث إليه بكتاب وإنّما بعث بهذه القصيدة بدءاً .

ومما يقوّي أنّ بعض ذوى أبى فراس ومن يكون على رأيهم حدَسَ أنّ أبا الطيّب عائد إلى حلب ، أبيات قيل أنها وجدت فى رحل أبى الطيب ، من الشعر الذى ليس فى ديوانه ، منها كلمة مطلعها :

«أفيقا خُمارُ الهّم بغضنى الخمرا وسُكْرى من الأيام جنّبنى السُّكْرَا »

حوكى فيها أسلوب أبى الطيب ليس به ، وفيها من ذم كافور :

«نُوَيْبِيَّةٌ لم تَدْرِ أنَّ بُنَيّها النُّوَيْبِيَّ دَونَ اللهِ يُعْبَدُ فــى مِصْرَا»

وهو من قوله « فالحر مستعبد والعبد معبود » وركاكة « دون الله » ورقاعتها لاتخفى ولو كان كافور نوبيا لقال أبو الطيّب «كأن الأسود النوبىّ» ولم يقل « اللابىّ » وكان يعرف أنّه من الجبال وأنّه من جنس السودان زنجى لانوبى وقد كان يعرف من أجناس مصر وما حولها كقوله«وكُلُّ نَجَاةٍ (٢٠) بُاجاوِيَّةٍ » مثلا .. فالذى قال هذا جاهل بذلك لاريب .

وكلمة أخرى مطلعها :

« قطعتُ بسَيْرِى كُلَّ يهماءَمَفْزَعٍ وَجُبْتُ بِخَيْلِى كُلَّ صَرْمَاءَبلْقَعِ »

وفيها من ذم كافور :

«أقيم عَلَىَ عبدٍ خَصِيٍّ مُنَافِقٍ لئيمٍ رديءِ الفعلِ للجُودِ مُدَّعِ »

وهذا من قول أبى الطيّب « إنّى حللت بكذابين الخ » وقوله « منافق لئيم الخ » ضعيف كما ترى وهذه الأبيات تشبه أسلوب أبى فراس وكان بطبعه يقلد أبا الطيّب فإذا تعمد من ذلك شيئا ماكان ليزيده التعمد كبير خروج عن الديدن الذى درب عليه . ومما كان يقلّدُ أبا الطيّب فيه ، مذهبه فى تفخيم بعض المطالع مما يقع فيه عجز البيت كأنه استمرار لصدره أو صوت يباريه ويجاوبه كقوله :

« عَلَىَ قَدْرِ أهلِ العَزْمِ تَأتِى العَزَائِمُ
وتَأتِى عَلَىَ قَدْرِ الكِرَامِ المَكَارِمُ »

وقوله :

« لِكُلِّ أمرىءٍ مِنْ دَهْـرِه ما تَعَوَّدَا

وَعادَةُ سَيْفِ الدَّوْلَةِ الطَّعنُ فى العِدَا »

وقوله :

«طِوَالُ قَنًا تُطاعِنُها قصار وقَطْرُكَ فى وَغًى وَنَدًى بِحارُ»

غير أنّه كان متى استقام له صدر البيت كقوله :

« أبى غَرْبُ هذا الدَّمعِ إلاّ تَسَرُّعَا»

لحقه إعياء فى عَجُزِه فجاء به كأنه تكرار له أو صدى فاتر منه كما فى قوله :

« وَمَكْنُونُ هَذَا الحُبِّ ألاَّ تَضَوُّعَا »

وقوله :

«أما لجَمِيلٍ عِنْدَكُنَّ ثَوَابُ وَمَا لِمُسِىءٍ عِنْدَكُن مَتَابُ »

وقوله :

«دَعوْتُكَ للجَفْنِ القَرِيْحِ المُسَهَّدِ إلىّ وللنَّوْمِ القَلِيلِ المُشَرَّدِ »

ومطلعا القصيدتين من هذا السنخ :

قوله :

« أفِيقَا خُمَارُ الهمّ بَغَّضَنى الخَمْرَا

وَسُكْرِى من الأيَّامِ جَنَّبَنِى السُّكْرَا »

العَجُزُ تكرار للصدر كما ترى من غير زيادة أو حسن تفريع .

وقوله :

« قَطعْتُ بِسَيْرِى كُلَّ يهماءَ مَفْزَعٍ وَجُبْتُ بِخَيْلى كُلَّ صَرْماءَ بَلْقَعِ »

العَجُزُ أيضا تكرار للصدر جعل فيه الخيل مكان السير والصرماء البلقع مكان الهيماء المفزع ، وهذا بعيد من نحو ماقدمنا من مطالع أبى الطيب ، ومن نحو قوله :

« ذِى المَعَالى فَلْيَعْلُوَنْ مَنْ تَعَالَى هَكَذَا هَكَذَا وَإلاَّ فَلاَ لاَ »

وقوله :

« كَدَعْوَاكَ كُلٌّ يَدَّعِي صِحَّةَ العَقْلِ

وَمَنْذاَ الّذى يَدْرِى بِمَا فِيه مِنْ جَهْلِ »

وقوله :

«بِغَيْرِكَ رَاعِياً عَبَثَ الذِئَابُ وغَيْرَكَ صارما ثَلَمَ الضِّرَابُ»

تأمل اختلاف معانى الأعجاز عن معانى الصدور فى كل ذلك أو مايقع فيها من زيادة أو تفريع حين اشتداد التشابه .

هــذا وكلتا هاتين القصيدتين اللّتين نسبتا إلى أبى الطيب فيهما إلحاح على تفضيل سيف الدّولةِ وإظهار الندم على فراقه كقوله :

«وَفَارَقْتُ خَيْرَ النَّاس قاصدَ شَرِّهم وأكرَمَهُمْ طرّاً لألأمِهِمْ طُرّا

فَعاقَبنى المخْصِيُّ بالغَدْرِ جَازياً لأنَّ رحيلى عن كان حَلَبٍ غَدْرا»

وكقوله :

وقَدَّرْتُ من فَرْطِ الجَهَالةِ أننى أقيم على كِذْبٍ رصَيفٍ مُصَنَّعِ

أُقيمُ عَلَى عَبْدٍ خَصِيٍّ مُنَافِقٍ لئيمٍ رديءِ الفعلِ للجُودِ مُدَّعِي

وأتْرُكُ سَيْفَ الدَّولَةِ المَلِكَ الرضا كَرِيمَ المُحَيَّا أروع وَابن أروع

مما كأنّه رمز ممن صنع هذا الكلام الغث (لله درأبى منصور إذ أعرض عنه اعراضا فلم يذكر له وجودا وهو الذى قيل رواه فتأمل) عما كان (٢١) يعتقده من نية أبى الطيِّب العودة إلى حلب بعد الانصراف من شيراز .

ومع الرمز نوع من الشماتة بمصرع أبى الطيِّب والسُّخرية به، تحسُّه من محاكاة أسلوبه ، ونسبة مالم يكن قــط ليقوله فى معارض ما كأنه كان يقول ، من ذلك مثلا :

« لبِسْتُ صُرُوفَ الدَّهْرِ أَخشَنَ مَلبَس

فَعَــرَّقَنِي نابآً وَمَزَّقَنِي ظُفْــرَا

وفى كلّ لحظٍ لى ومَسْمَعِ نَغْمة
يُلاحِظنى شَزْرا ويُسْمِعُنِى هُجْرا
سَدِكْتُ بصَرف الدهرِ طِفلاً ويَافِعا
فأفنَيْتُه عزْما وَلمْ يُفنِنى صَبرا
أُريدُ من الأيّامِ مَا لا يُرِيدُه
سِوايَ وَلاَ يجْرى بخاطره فِكْرا

ومثلا :

«وثَلَمتُ سَيْفى فى رُؤُوسٍ وأذْرع وحطّمْتُ رُمحى فى نحُورٍ وأضْلُعِ
وصَيَّرت عَزْمِى بَعْدَ رأيِى رائِدى وَخالفْتُ آراءً توَالَتْ بمَسْمَعِى
ولم أَتَّرِكْ أمراً أخافُ اغتيالَه ولا طَمَحت نفسى إلى غير مطمع»

وكأن جماعة سدكوا بأبى فراس يقترحون عليه، أخذا من ألفاظ (٢٢) أبى الطيِّب ومعانيه، وتحليلا لنفسيته بجهد ما تستطيعه نفسياتهم، وهو يصوغ. وأقل تأمل يربك مجاراة ميميَّته فى جَدَّته وسواها من نحو: «ومــا علَّمَتْنِى غَيرَ ماالقَلْبُ عَالِمهُ» «أودُّ مِن الأيَّام مالا تَوَدُّه» «وأُعْلِم قوما خَالَفُونى فشرقوا الخ» وهلم جرا.

ومما جُورِيَ به هجاؤه كافورا :

«ومصرٌ لعَمْرِى أهلُ كُلِّ عَجيبَة
وَمَا مِثْلُ ذا المَخْصِيِّ أعْجُوبَةً بِكْرا
يُعَدُّ إذا عُدَّ العجائب أوَّلا
كما يبتدا فى العدِّ بالأصبع الصُّغْرَى
فيا هَرَمَ الدُّنيَا وَيَا عبرة الوَرى
ويأيها المخصيُّ من أمَّلَكَ البَطرَا
نُوَيْبيَّةٌ لم تَدْرِ أنَّ بُنَيَّها النوبِىَّ
دُونَ اللهِ يُعْبَدُ فى مِصْرَا

وَيَسْتَخْدِمُ البِيضَ الْكَواعِبَ كالدُّمَى

ورُومَ العِبِدَّى والغَطارِفَةَ الغُرَّا (٢٣)

قَضَاءٌ من الله العظِيم أرَادَه ألاَ رُبَّمَا كانت إرادَتُه شَرًّا »

وليس فى شىء من هذا نفحة أبى الطيِّب ، والطعن على عقيدته فى البيت الأخير لايخفى كأنه من حكمه الفلسفية من طراز « تَمَتَّعْ من سُهاد أو رُقاد » «وَقِيلَ تَشْرَكُ جِسْمَ المَرءِ فى العَطبِ» «تيقَّنْتُ أنَّ الموتَ ضَرْبٌ من القَتلِ » وقد تقدَّم ماذكرنا من الخطأ فى نعت كافور بأنه نوبى . وما كان أبو الطيِّب ليصف من هجاهم فقال «رَخَمٌ ورُومٌ وبهَائِمُ وعِبِدَّى» بقوله « الغطارفة الغرَّا » فهذا هو العيُّ والحَصَرُ ــ والاعتماد بعدُ على ألفاظ أبى الطيِّب لايخفى .. « ورُوم العبدَّى هاطَلاتُ غمَامه » « مُهْدى الكَوَاعِب والجُرْدِ السَّلاهِبِ » « وخلَّى العَذَارَى والبَطارِيَق والقُرَى » « فَيَا شَوْقُ ما أَبقى وَيَالَى من النَّوَى » « أَقَوْمه البِيضُ أَمْ آباؤه الصِّيدُ »

وأما قولهم :

«ومصرُ لعَمْرِى دَارُ كُلِّ عَجِيبةٍ وماِمثلُ ذا المَخْصِيِّ أُعجوبَةً بَكْرا»

فمن « وماذا بِمِصَر مِن المُضْحِكَاتِ » و « أَفسَدْتُ بَلحْظِى مِشْفَرَيْكَ المَلاَهِيَا » و « فَمَا يَفْعَل الفَعَلات إلاَّ عِذَارِيَا »

وشاهد الإنحال بعدُ ، الصوتُ الصَّحِل والتكرار فى الأعجاز بعد(٢٤) الصدور مما برىء المتنبى منه فى شعر صباه فكيف بعد أن اشتد أسره واستمرت قواه ولله دره إذ قال :

« وَمَا قُلْتُ مِنْ شِعْرٍ تَكَادُ بُيُوتُه

إذا كُتِبَتْ يَبْيَضُّ مِنْ نُورِهَا الحِبْرُ »

واذ قال :

«بَلَغْتُ بِسَيْف الدَّولة النُّورَ رُتْبةً أثرتُ بِهَا مابَيْنَ غَرْبٍ وَمَشْرِقِ

إذا شَاءَ أَنْ يَلهو بِلِحْيَةِ أحمقٍ أَراه غُبَارِى ثمَّ قال لَه الحَقِ

وما كَمَدُ الحُسَّادِ شَيْئاً قَصَدْتُه وَلَكِنَّه مَنْ يزْحَم البَحْرَ يغْرَقِ »

ولعلّ المجلس الّذى انتحل القصيدتين انتظم بُعَيدَ خلاص أبى فراس من الأسر ، فى الفترة الّتى كان فيها فرحا . . . قال أبو منصور : « لم تطل أيام فرحته ».. لكن المؤامرة حيكت منذ عهد بعيد « عشيَّة شَرقيَّ الحَدَالى وَغُرَّبُ » وأحكمت أيّامَ التخفيف ومهادنة الدمستق . .

« وَغَرَّ الدُّمُسْتُقَ قَوْلُ العُدَاةِ أَنَّ عَلِيًّا ثَقيلٌ وَصِبْ

«وقد عَلِمَتْ خَيلُه أَنَّه إذا هَمَّ وَهْوَ عَلِيلٌ رَكِبْ»

ولما قال أبو الطيّب :

«وقد رأيتُ الملوكَ قاطِبَةً وسِرْتُ حَتَّى رأيتُ مَوْلاها»

وذكر الشامية التى ذكر فقال :

« شاميَّة طالما لَهَوتُ بِهَا تُبْصِرُ فى نَاظِرى مُحيَّاهَا

فيهِنّ من تَقْطُرُ السُّيوفُ دماً إذا لِسانُ المُحِبِّ سَمَّاهَا»

أخذ الوشاة فى التقليل والتكثير . وعاد أعداء أبى الطيِّب إلى أسلوبهم القديم من طاب الترخيص لهم فى دمه . وكان آل حمدان منذ مبدأ أمرهم فُتَّاكا لهم بالشعراء فِتْنة . ومن تغرير ابن حمدان ماطاح ابن المعتز من قبلُ وطاح ابن حمدان معه . ولعلَّ السامريَّ ، إنْ كان حيّاً ، سعى فى دم أبى الطيِّب هذه المرَّة كسعيه عشيَّة يوم إنشاده الميميَّة «وأحرَّ قَلْبَاهُ مِمَّن قَلْبُه شَبِمُ».ولعلَّه كان طرفا من هذا الكيد أمرُ الجارية الروميَّة التى قيل« كان(٢٥) سيف الدولة لايرى الدنيا إلاّ بها فحسدتها سائر حظاياه على لطف محلها منه وأزمعن ايقاع مكروه بها من سم أو غيره » فقال فى ذلك :

« راقَبَتْنِى العيونُ فيكَ فأشْفَقْتُ ولم أخلُ قطُّ من إشفاق(٢٦)

ورأيتُ العَذولَ يَحْسُدُنى فيكَ مُجِدًّا يا أنْفَسَ الأعلاق »

إلى آخر ماقال . ولعلَّ العذول كانت أخت أبى فراس والجارية كانت تودُّ آل أبى العشائر . ولعلّه كان لناصرالدولة بالموصل ضلع فى هذا الأمر . وكأن مقام أبى الطيِّب فى فارس ماكان إلا حلما :

«وكَمْ دُونَ الثَّوِيَّةِ من حَزينٍ يَقُولُ لهُ قُدومي ذا بِذاكا
ومِنْ عَذْبِ الرُّضَابِ إذا أنَخْنا يُقَبِّلُ رَحْلَ تُرْوَكَ والوِراكا
يُحرِّم أن يَمَسَّ الطِّيبَ بعدي وقد عَبِقَ العبيرُ به وصَاكا
ويَمْنَعُ ثغرَه مِنْ كُلِّ صَبٍّ ويَمْنَحُه البَشامَةَ والأراكا
يُحَدِّثُ مُقْلَتيه النومُ عَنِّي فلَيْتَ النَّومَ حَدَّثَ عَنْ نَداكا
وإنَّ البُخْتَ لا يُعْرِقْنَ إلاَّ وقَدْ أنْضَى العُذافِرَةَ اللكاكا
وما أرْضَى لِمُقْلَتِه بحُلْمٍ إذا انْتَبَهَتْ تَوَهَّمَه ابْتِشاكا»

وقد كان « المتنبه » كما كان يقول المغاربة فيما نقل ابن خلكان عن أبي القاسم الوزير . فعلم أنّ الّذي كان فيه جميعه حلم ، متى انتبه من (٢٧) النوم ، وإنّما كان نومه هو ، وجده ابتشاكا أي كذبا .

«فزُلْ يا بُعْدُ عن أيْدِي رِكابٍ لها وَقْعُ الأسِنَّةِ في حَشَاكا
وأيًّا شِئتِ يا طِرْفِي فكُونِي أذاةً أو نَجاةً أو هَلاكا »

قال أبو منصور ، ونصّ على أنّ هذه القصيدة آخر شعره وأمره « جعل قافية البيت الهلاك فهلك » — قال العكبري : « قيل أن عضدَ الدولة قال تطيرتُ عليه من تركه النجاة بين الأذاة والهلاك »

« فلَوْ سِرْنَا وفي تَشْرِين خَمْسٌ رَأوْنِي قَبْلَ أنْ يَرَوُا السِّمَاكا»

قالوا « يشير إلى سرعة السير » قال العكبري فكأنه يقول : « إذا أخذ السِّماك في الطلوع وأخذت في السير سبقته إلى أهلي بالكوفة » ا . ه .

هذا على تقدير ردّ الضمير من « رأوني » إلى أهله بالكوفة ، وطلوع السماك في خمس تشرين (أكتوبر) — أم كان ينظر من عين الغيب إلى الراصدين ليصرعوه عند دير العاقول . . . قبل أن يصل إلى بغداد فيتائب به الطريق إلى الكوفة فالشام .

ورُوحُ الحُلُمِ والوَهْمِ والنَّشْوَةِ المتزَوِّدَةِ العَجِلة . . .

انعمْ وَلذَّ فللأمورِ أوَاخرٌ أبداً إذا كانتْ لهُنَّ أوَائِلُ

للَّهْـــوِ آونَةٌ تَمَرُّ كأنَّها قُبَلٌ يُزَوِّدُهَا حَبِيبٌ رَاحِلُ»

كل ذلك مستبين في شـعره بفارس ، من لدن قال بُعَيْدَ لِقائه عَضُدَ الدولة :

«أَوْه بَدِيلٌ مِنْ قَولَتِي وَاها لِمَن نأت والبَدِيلُ ذِكْرَاها»

إلى آنَّ قال قُبيل وداعه له :

«فلو أنِّي استَطعتُ خَفَضْتُ طَرْفي فلَم أبْصِر به حَتَّى أرَاكا
وهَذا الشَّوقُ قَبلَ البَيْنِ سَيْفٌ فهأنا ما ضُرِبتُ وَقَدْ أحَاكا
إذا التَّوديعُ أَعرَضَ قَال قَلْبِي عَلَيْكَ الصَّمْتُ لاصاحَبْتَ فاكا
ولولا أنَّ أكْثَرَ مَا تَمَنَّى مُعَاوَدَةٌ لقُلْتُ وَلاَ مُنَاكا
قد استشفيتَ مِن دَاءٍ بِداءٍ وأَقْتلُ ما أعلَّك مَا شَفاكا
وكم طَرِبِ الْمَسامعِ ليسَ يَدْرِي أيَطْرَبُ من ثَنَائى أمْ عُلاكا(٢٨)
إذا اشتبهتْ دمُوعٌ فى خُدودٍ تَبَيَّنَ مَنْ بَكَى ممَّن تبَاكى»

وقد بلغ الحلم ههنا أوْجَهُ فصار نبوءة ، وامتزج فيه الحزن العميق عند قوله :

« زوِّدينا من حُسْنِ وجهك مادا م وحُسْنُ الوجوه حال تحول »

بالبهجة الثملة فى قوله !

«مَلاعبُ جِنَّة لو سَار فيها سُليمانٌ لَسَارَ بِتَرْجُمان
ولكنَّ الفتى العرَبيَّ فيها غريبُ الوجهِ واليدِ واللِّسان
لها ثَمَرٌ تشير إليك منها بأشْرِبةٍ وَقَفْنَ بِلاَ أوانى»

وكان أبو الطيِّب أثملَ ماكان إذ نظم هذه القصيدة ــ أثمله الرُّوض الساحر والأمير المسحور . . . كم ودَّ لو أن سيف الدولة ارتفع إلى بعض كفايته على حبه وعهده ووفائه له والشوق إلى أطياف ذراه . . .

«وإنِّي لأُتْبِعُ تَذْكَاره صَلاَةَ الإله وسَقْيَ السُّحُب
وأُثْنِي عَلَيْه بِآلائِه وأقْرُب منه نَأى أوْ قَرُب

وإن فَارَقَتْنِيَ أَمْطَارُه فأكْثَرُ غُدْرانِها ما نَضَب »

وإنمّا كان غدرانها الشوق والجهد والذكريات :

أُروضُ النَّاسِ من تُرْبٍ وَخَوْفٍ وأرْضُ أبى شُجَاعٍ مِنْ أمَانِ
تُذِمُّ على اللُصُوصِ لكلِّ تَجْرٍ وتَضْمَنُ للصَّوارم كلَّ جَانِ »

واللصوص لَقَوْه بعد أن فَصَلَ من ملك فناخسرو . . . والجناة أصابوه قبيل أن يدخل بغداد .

وما أيسر ماصرف الحافظ الذهبىُّ نفسه عن قضية مصرع أبى الطيِّب إذ قال : فى حوادث سنة **٣٥٤ هـ** فى كتابه العبر : « وفيها المتنبى شاعر العصر ، أبو الطيِّب أحمد بن الحسين بن الحسن الجعفى الكوفى . فى رمضان ، بين شيراز والعراق ، وله احدى وخمسون سنة ، قتلته قطّاع الطرق ، وأخذوا المال الّذى كان معه ، وقد مدح عِدَّة ملوك ، وقيل إنّه وصل إليه من ابن العميد ثلاثون ألف دينار ، ومن عضد الدولة بشيراز مثلها ، وليس فى العالم أحد أشعر منه ، أما مثله فقليل » ا . هـ . والقليل عند أهل اللغة والمعدوم كأنهما بمعنى .

أما قول الحافظ الذهبى : « قتلته قُطَّاع الطريق » فيندرج تحته تفكير كثير مع انصراف عن الحرص على اتهام أحد ، والله تعالى أعلم .

« أُرُوضُ النّاسِ من تُرْبٍ وخَوْفٍ وأَرْضُ أَبى شُجَاعٍ مِن أَمَانِ
تُذِمُ على اللُّصوص لكلِّ تَجْرٍ وتَضْمَن للصَّوَارِمِ كُلَّ جانِ
إذا طَلَبَتْ وَدَائِعُهُمْ ثِقَاتٍ دُفِعْن إلى المَحَانِى والرِّعان
فَبَاتَتْ فَوْقَهنَّ بِلا حِجاب تَصِيحُ بمَن يَمُرُّ أَمَا ترانى »

« حَمَى أَطرافَ فارسَ شَمَّرِىٌّ يحضُّ علَى التَّبَاقى بالتَّفانى
بِضَربٍ هاجَ أَطرَابَ المنايَا سِوَى ضَرْب الْمَثَالثِ والْمَثَانِى »(**٢٩**)

أو كما قال :

« أَتى الظّعْن حتى ما تَطِير رَشَاشة من الدَّمِ إلاّ فى نُحورِ الْعَوَاتِق » (**٣٠**)

ثمَّ تجاوبت أصداء الماضى مع الحاضر . .

« كأنَّ دَمَ الجَمَاجِمِ فى الْعَنَاصِي كَسَا البُلْدَان رِيْشَ الحَيْقُطَان »

وهو طائر ذو ريش ألوان – وهذ كقوله من قبل « كالرَّيحان تحْتَ الشَّقَائِقِ » – والأنغام والألوان ذكَّرت أبا الطيِّب حصى الثويَّة والحدق الحسان . .

« فَلَوْ طرِحَتْ قُلُوبُ العِشْقِ فِيها لمَا خَافَتْ من الحَدَقِ الحِسَانِ »

وغوطة دمشق والثرد اللبيق

« مَنَازِلُ لَمْ يَزَلْ مِنْهَا خَيَالٌ يُشَيِّعُنِى إلى النَّوْبَنْذَجَان
إذا غنَّى الحمامُ الوُرْقُ فِيها أجابته أَغَانِيُّ القِيَان
ومن بالشِّعبِ أحوجُ من حَمَامٍ إذا غَنَّى وناحَ إلى البيان »

إنَّ الحسام أقوى بيانا من القيان إذ هيَّجَ أبا الطَّيب فذكره الصحراء فحنَّ إليها . . . أو من بالشعب هو أبوالطيِّب ، ولابد له من البيان إذا غنَّى وناح وَوَدَّ لو لم يقدر أن يبين . . . وإذن لسعد سعادة الحمام وسعادة القيان .

« وَقد يتَقارَبُ الوَصْفَان جِدّاً وَموصُوفَاهُمَا مُتَبَاعِدَانِ
يَقُولُ بِشعْبِ بَوَّان حصانى أَعَنْ هذا يُسَارُ إلى الطعان
أَبوكم آدمٌ سَنَّ المَعَاصِي وَعلَّمَكُمْ مُفَارَقَةَ الجِنَانِ »

(٣١) إلى حلبَ عن طريق دَيْرِ العاقول .. !

« ما أَجْدَرَ الأيَّامَ وَاللَيَالى
بِأن تَقُولَ مَالَه وَمالى
لا أنْ يكون هكذا مَقَالى
فتىً بِنِيرَان الحروبِ صَالى
منها شرابى وَبِها اغتسالى
لاتَخْطُرُ الفَحْشاءُ لِىْ بِبَالى »

وإنّما وثب إلى هذا المعنى لاتصال فكرة الموت فى الحرب ــ الاغتسال الدم ــ بفكرة الاغتيال ، وهذا المعنى بعينه هو الّذى فى الميميّة حيث قال :

«ما أَبْعدَ العَيْبَ وَالنُّقصَانَ عَنْ شَرَفى
أَنا الثريَّا وَذانِ الشَّيْبُ وَالهَرَمُ»

وانحسر ثمل النونيّة عن حزن يسير . . .

« سَقْياً لِدَشْتِ الأَرْزُنِ الُّطوالِ
بين المُروجِ الفِيحِ وَالأغْيالِ
مُجاوِرِ الخِنْزيرِ وَ الرِّئبَالِ
دانى الْخَنَانيص من الأشبالِ
مُستشرِفِ الدُّب على الغزالِ
مُجْتمع الأضداد وَالأشكالِ »

ــ أخذ أبو العلاء من هنا فى رسالة الغفران والله أعلم ــ

« كأن فنَّاخُسْرَ ذا الإفْضَالِ
خافَ عليْهَا عَوَزَ الكَمَالِ
فَجاءَهَا بالفِيْلِ وَالفَيَّالِ »
« فَحش نَجْدٍ منه فى بَلْبَالِ »
« نَوافِرُ الضِّبابِ وَالأوْرَالِ »
«وَالخاضِباتِ الرُّبْدِ وَالرِّئالِ
وَالظَّبْى وَالخَنْساء وَالذَّيَّالِ
يَسْمَعن من أخباره الأزوالِ
ما يَبْعث الخُرْس على السؤالِ »
« لم يَبْق إلا طَرَدُ السَّعَالى
فى الظُّلَمِ الغائبة الهلالِ
على ظُهور الإبِل الأُبّالِ »

«في لا مكان عندَ لا منالِ»
«وربَّ قبحٍ وحلىً ثقالِ
أحسنَ منها الحسْنُ في المعطالِ
فخرُ الفتى بالنفس والأفعالِ
مِنْ قبله بالعمٍّ والأخوالِ»

أترى أبا الطيِّب ههنا يأخذ على قومه العرب غلوهم في أمر الأنساب؟!
.. والمعنى قديم عنده ..

«أرى الأجداد تغلبها كثيرا على الأولادِ أخلاقُ اللئامِ»

وحديثه في كافور من مجراه... ولاريْبَ أنَّ الفضل الذي رأى بفارس قد راعه... وحسب المرء الفضائل فذلك أعلى من كلٍّ نسب..

«قالت ألا تصحو فقلْتُ لها أعلمتِني أنَّ الهوى ثملُ
لايستحي أحدٌ يقال له فضلوك آلُ بُوَيْهِ أو نضلوا
قدّروا عفَوْا وعدوا وفَوا سئلوا أعطَوْا علَوْا أعلَوْا ولُوا عدلو
فوْق السماءِ وفوْق ماطلبوا فإذا أرادوا غايةً نزلُوا
قطعت مكارمهم صوارمهمْ فاذا تعذّر كاذبٌ قبلوا
لا يشهرون علىَ مخالفهمْ سيْفا يقوم مقامَه العذَل
لا أقبلُوا سرّاً ولا ظفروا غدْراً ولا نصرتْهُم الغيَل (٣٢)
لا تلْقَ أفرسَ منْك تعرفُه إلاَّ إذا ضاقتْ بكَ الحيَلُ»

وقد يكون أفرس منك يُقبل سرًّا ويظفر غدراً وتنصره الغيلات...
وقد ضاقت بأبي الطيِّب الحيل فحمل الجراز إلى البراز وما اياه يخشى ، فما كان أحد في ذلك بأفرس منه .

وقد أحكم أعداؤه الخطّة كما لم يحكموها من قبل ..

«أتاني وعيدُ الأدعياءِ وأنهّم أعدُّوا لي السُّودان في كفْر عاقبِ
ولو صدَقُوا في جدّهم لحذرْتُهم فهلْ فيَّ وحدي قولُهم غيرُ كاذبِ»

إذ كانوا حِرَاصا على أن يبادروه قبل أن يصل هو إلى الّذى رَخَّصَ (٣٣) فى دمه فيخلص خلاص الحسر من نسج الفدام . . ويعود الأمر جذعة :

« فَوتُ العَدُوِّ الّذى يمّمتُه ظفرُ   فى طيِّه أَسَفٌ فى طيِّه نِعَم

قد نَابَ عَنْكَ شَدِيدُ الخَوْفِ وَاصْطَنَعَتْ

للَّكَ الْمَهَابَةُ مالا تَصْنَعُ البُهَمُ

ياأعْدَلَ النَّاسِ إلاَّ فى مُعَامَلَتِى

فِيكَ الخِصَامُ وَأَنت الخَصْمُ وَالحَكَمُ

أُعِيذُها نَظَرَاتٍ مِنك صَادِقةً

أَن تَحْسِبَ الشَّحْمَ فيمن شَحْمُه وَرَمُ ..

وَما انتفاع أخى الدنيا بناظره . .

انا الْذى نظر الأعمى إلى أدبى . . »

« قتلته قطاع الطرق » . . . بهذه العبارة الموجزة رفض الذهبى قصة أنتقام فاتك وخبر « ماأنصف القوم ضبة » . . وهلمَّ جرًّا .

. . . زعم البديعىُّ أنَّ أبا الطيِّب « كان يكتم نسبه فسئل عن ذلك فقال إنىِّ أنزل دائما على قبائل العرب وأحبُّ ألاَّ يعرفونى خيفة أن يكون لهم فى قومى ثأر » . ا . ه . كأن هذا فرع من خبر فاتك .

وكان سيف الدولة قريب السنِّ من أبى الطيِّب . وما كان بقاؤه بعده إلاَّ سنة وأشهراً . قالوا مات بعسر البول وما بقى عنده من عزاء عنه بعد موته غير غبار القصائد الّتى صنعها فيه يجيئه به أبو فراس والمتشاعرون . . . وغير نفض غبار الغزوات الّتى غزاها وكان قد جمع منه « شيئا وعمله لبنة بقدر الكف وأوصى أن يوضع عليها خده فنفذت وصيته فى ذلك »

«لا بُدَّ للإنسانِ مِنْ ضَجْعَةٍ   لاَ تَقْلِبُ المُضْجَعَ عَنْ جَنْبِهِ»

«وَغايَــةُ المفرِطِ فى سِلْمِه   كَغَايَــةِ الْمُفْرِطِ فى حَرْبِهِ »

قال ابن خالويه – فيما روى ابن خلّكان – «لمّا مات سيف الدولة عزم أبو فراس على التغلّب على حمص، فاتّصل خبره بأبى المعالى بن سيف الدولة وغلام أبيه فرغوية فأنفذوا إليه من قتله. وقد ضرب ضربات فمات فى الطريق.» وفى الخبر اختزال وطيٌّ كما ترى إذ كان ابن خالوية ضِلْعُه مع **(٣٤)** أبى فراس.. وما كان أبو المعالى إلاّ ابن عشر وست أو خمس آنذاك. وعن بعضهم أن أبا فراس كان خاله. وليس بمحقق، ويدلُّك على ذلك أن ابن خالويه لاينص عليه. قيل ولم يعلم – (ولعلّه قد علم) بمقتل أبى فراس حين قتل و«بقيت جثته مطروحة بالبريّة إلى أن جاء بعض الأعراب فكفّنه ودفنه» – أو بعثهم أخلاء أبى فراس ليفعلوا ذلك. وذلك قول ابن خالويه «فمات فى الطريق». وما أشبه الأبيات: «زين الشباب أبو فراس» أن يكون صنعها وهو فى أسر الروم، إذ ليس فيها شيء يدلّ على قتله كما لاحظ ابن خلّكان.

وأغلب الظنّ أنّ أبا فراس إنّما اطّاحَ فى ثأر أبى الطيّب وأنّ فتكة فرغوية ما كانت إلاّ عن ملأ من إحدى الْمُخَبَّآت اللائى يضعن النقس **(٣٥)** أمكننة الغوالى لعنصر التشفى الّذى فيها كما ترى. وقد كان لأبى الطيّب عند غلمان سيف الدولة أياد كما كانت له عند مولاهم: مدحهم فى معرض مدحه له كقوله يصف الجيش:

«حَواليه بَحْرٌ للتجافيف مائجٌ يَسيرُ به طَوْدٌ من الخَيْل أَيهَمُ
وكلُّ فتى للحَرْبِ فَوق جَبينِه من الضَّربِ سَطْرٌ بالأسنة مُعْجَمُ
يَمُدُّ يديه فى المُفاضة ضَيْغَمٌ وَعيْنَيْه من تَحْتِ التّريكة أَرقمُ»

ومدحهم برثائه الذى رثى يماك حيث قال:

«لأبقى يمَاكٌ فى فؤادى صبَابةً إلى كُلِّ تركىِّ النِّجارِ جليبِ
وَما كلُّ وَجهٍ أبيض بمُبارك وَلا كُلُّ جَفْنٍ ضَيِّقٍ بنجيبِ
لَئِنْ ظَهرَتْ فينا عَلَيْه كَآبةٌ لقد ظَهرَتْ فى حَدِّ كلِّ قضيبِ
وَفى كُلِّ قَوْسٍ كُلَّ يومِ تَنَاضُلٍ وفى كلِّ طِرْفٍ كُلَّ يوَمِ رُكوبِ»

وإنّما عنى بهذا رهطه من الأتراك إذ قد كان هو مسنّاً منهم بدليل قوله
« وَأوْفى حيَاةِ الغَابِرِينَ لصاحبٍ حيَاةُ امرىءٍ خانَتْهُ بعد مَشِيبِ »

وكان أبو الطيّب صاحب خيل وسهام وطراد فأغلب الظنّ أنّه كان قويَّ الصلة بغلمان مولاه . ولعلّ منهم من أعانه على الهرب ، ليلة غادر حلب ومَنْ حذّرَه مادبّره له حزب أبى فراس ، ليلة همّ باغتياله ... وقد كان شاعرهم إذ كان شاعر أميرهم . وإنْ كان سيف الدولة قد رخّص فى دمه فلا بدّ أن يكون قد ندم ندما مضنّا على ذلك . ومهما يك من الأمر فلابدّ أنّه حزن لما بلغه موتُه وظهر ذلك منه .

وما كانت عداوة أبى فراس لأبى الطيّب بسرٍّ .

ولما خرج أبو فراس بعد موت سيف الدولة كانت تلك فرصة الانتقام..

وما كانت ذات الهودج عنها ببعيد . . . والقِتْلَةُ الّتى قُتِلَها أبو فراس دالّةٌ على روح من تَشَفٍّ مرير . .

« وَفِى تَعَبٍ من يَحْسُدُ الشَّمْسَ ضَوْءَها
وَيَجْهَدُ أن يَأتِى لَهَا بِضَرِيبِ »

رحمهم الله جميعا إنّه غفور رحيم . .

قال أبو الطيب :

« يَقُولُ لِىَ الطّبيبُ أكَلْتَ شَيْئًا وَداؤكَ فى شَرَابِكَ وَالطّعامِ
وَمَا فى طِبّهِ أنّى جَوَادٌ أضَرّ بِجِسْمِه طولُ الْجِمَام
تَعَوّد أن يُغَبِّرَ فى السّرايا وَيَدْخلَ من قَتَامٍ فى قَتَامِ
فأمْسِكَ لا يُطالُ لَهُ فَيَرْعَى وَلاهُوَ فى العَلِيقِ وَلا اللّجَام
فإنْ أمْرَضْ فما مَرِضَ اصْطِبارى وَإن أُحْمم فما حُمّ اعتزامى
وَان أسْلَمْ فما أَبْقى وَلَكِن سَلِمْتُ من الحِمَام إلى الحِمام

فكان كما قال وكان يعلم ما يقول :

« تَمَتّعْ مِنْ سُهَادٍ أوْ رُقَادٍ وَلاَ تَأْمُلْ كَرىً تحْتَ الرِّجَامِ (٣٦)

فَإِنَّ لِثَالِثِ الْحَالَيْنِ مَعْنىً   سِوَى مَعْنَى انْتِبَاهِكَ وَالْمَنَام»

قال أبو منصور : « قال ابن جنِّى أرجو ألاَّ يكون أراد بذلك أنَّ نومة القبر لاانتباه لها . » ولم يُرِدْ — على الأرجح — من ذلك شيئا ، إنَّما أراد مَحْض التفكُّر فى نفسه وفى خلق السموات والأرض . وحسبه هذا شافعا عند ربه : إنَّه عليم بذات الصدور .

وصلَّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلَّم

عبد الله الطيِّب

تذييل

بسم الله الرّحمن الرّحيم

والحمد لله وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى وآله وصحبه وسلّم تسليما .

أما بعد، فقد أشار عليّ بعض أهل الفضل ممّن قرأوا الطبعة الأولى لهذا الكتاب أن أُلحِقَ به ذيلا يشرح بعض مَغامِضِه . وهذا حين أبدأ باذن الله تعالى وعونه .

المُقَدِّمَةُ

١ — وقد حَمَل امرؤ القيس معه صحراء العرب —

« تَطَاوَلَ اللَيْلُ عَلَيْنَا دَمُّونْ »

الإشارة ههنا إلى أنّ امرأ القيس قد كان شديد الحنين إلى ديار بنى أسد حيث نشأ ، وحيث كان ملك أبيه. وقد كان يحُسّ هذا وهو بدَمُّون فكيف به حين صار إلى القسطنطينية ؟!

٢ — وقد حمل أبو الطيِّب ملتقاها بالسواد : أى ملتقى الصحراء بالسواد إذ قد نشأ بالكوفة وثَمّ كان مصارعُ الشهداء من آل البيت إذ قد قتل الحسين رضى الله عنه بكربلاء ممنوعا من ورود ماء الفرات .

٣ — ولكنّه بعد ماعدا أنّه ألمّ به غبار الخ—ههنا إشارة إلى قول أبى الطيِّب يذكر أنّ سيف الدولة كان إذا أراد أن يسخر من شاعر كلّفه أن يجاريه وذلك مالايستطاع :

« إذا شَاءَ ان يلهو بلحية أَحْمَقٍ أَرَاهُ غُبَارِى ثُمَّ قَالَ لَهُ الْحَقِ »

٤ — كأخذ امرىء القيس حين يقول الخ

« كحِقْفِ النَّقا يَمْشِي الوَلِيدَانِ فَوْقَه

بِمَا احْتَسَبَا من لِينِ مَسٍ وَتَسْهَالِ »

أى مثل كثيب الرمل، أى عجزها لينا وامتلاء وحسنا كأنه كثيب الرمل

الذى يستلذُّ الولدان الصغيران المشى فوقه لنعومته ويسره . والشاهد ههنا أخذ امرىء القيس أما من تجربة مشاهدته لطفلين يتسابقان على كثيب أو من زمان طفولته حين كان هو يفعل ذلك .

«دَرِيرٍ كَخُذْرُوفِ الوَلِيدِ أَمَرَّهُ   تَتَابُعُ كَفَّيْهِ بِخَيْطٍ مُوَصَّلِ»

هذا فى المعلّقة يصف به جرى حصانه وأنّه فى سرعته وانخراطه مثل النحلة التى يلعب بها الولد الصغير بخيط يُمِرُّه بين كَفَّيْهِ واللعبة من لعب الأطفال معروفة .

«أَصَاحِ تَرَى بَرْقاً أُرِيكَ وَمِيضَهُ   كَلَمْعِ الْيَدَيْنِ فى حَبِيٍّ مُكَلَّلِ»

فى المعلّقة يصف برقا ويقول انظر إلى التماع ذلك البرق كحركة يدين يلمع بهما صاحبهما إشارة أو نداء من مكان بعيد وهذا من التجارب المشاهدة . ويجوز أن يكون عنى بلمع اليدين ههنا حركة اشارة اليدين من الفتاة التّى فى أوائل القصيدة حيث قال :

«تَصُدُّ وتُبْدِى عن أسيلٍ وَتَتَّقِى   بِنَاظِرَةٍ مِنْ وَحْشِ وَجْرَةَ مُطْفِلِ
وَتَعْطُو بِرَخْصٍ غَيْرِ شَثْنٍ كأنَّه   أَسَارِيعُ ظَبْىٍ أو مَسَاوِيكُ إِسْحَلِ»

وهذا كأنَّه أقوى فى التأويل عندى والله تعالى أعلم .

٥ — كعودات امرىء القيس إلى عهد طفولته فى أمثال قوله

«يَزِلُّ الغلامُ الخُفُّ عن حال متنه   وَيلْوِى بأثوابِ العَنِيفِ الْمُثْقلِ»

فأشبه شىء أن يكون الغلام الخف هذا أراد به الشاعر نفسه أيام كان غلاما ويكون العنيف المثقل شخصا آخر يعرض هو به أو هو نفسه بعد أن ذهب عنه الشباب وصار إلى الذكريات . والله أعلم .

الفصـــل الأول

١ — « كقوله يحمى الخ. » البيت من قصيدة أبى الطيّب التى مطلعها :

« لِهَوَى النُّفُوس سَرِيرَةٌ لا تُعْلَمُ   عَرَضًا نَظَرْتُ وَخِلْتُ أنّى أسْلَمُ »

وهى فى هجاء ابن كيغلغ ومدح أبى العشائر . والبيت هو :

« يحمى ابن كيغلغ الطريق وعِرْسُه   مابَيْنَ رِجْلَيْها الطَّرِيُق الأعْظَمُ »

أى هو يحمى الطريق لمنعه إيَّاى من السفر ، وحبسى كيما أمدحه مضطرا ، وكان أولى به أن يحمى امرأته فلاتفجـــر — وهذا من خبيث الهجاء وبذيئه كما ترى .

٢ — « أرْسَلْتَ تَسْألُنِى المَدِيحَ سَفَاهةً   صَفْراءُ أضيق مِنْكَ ماذا أزْعُمُ »

هكذا البيت كاملا وهو من فاحش القول واتّهمه فيه أنه مأبون والبيت من القصيدة المشار اليها فى (١) .

٣ — شَمّ ريح الموت — هذا من قول الحارث بن هشام يعتذر من فراره يوم بـــدر :

«وَشَمَمْتُ رِيْحَ الموتِ من تِلْقَائِهِم   وَعَلِمْتُ أنّى إنْ أقَاتِلْ أجْهَدِ

وَعَلِمْتُ أنيِّ إن أقاتِلْ واحداً   أُقْتَلْ وَلا يَضْرُرْ عَدُوِّى مَشْهَدِى»

٤ — هذا هو المجلس الذى انشد فيه أبو الطيِّب قصيدته المشهورة :

«وَاحرَّ قَلْبَاهُ ممَّن قَلْبُه شَبِمُ   وَمَنْ بِجسْمى وَحَالى عِنْده سَقَمُ »

فقد أغضب سيف الدولة حتىَّ رماه بدواة . وسعى السامرىُّ هذا لدى سيف الدولة ليأذن للسادة الذين حضروا المجلس آنئذ أو من كان على رأيهم فى قتله . ومثل هذا كان قد يحدث فى مجالس امراء ذلك الزمان — بل لعلّه لم يخل من نحوه زمان. وقد رَوَوْا أنّ أحد الناس قال للمأمون فى مجادلة ، لعلّها كانت فى خلق القرآن أو شىء من أمر الدين « يا أمير الكافرين » فتخطّفَتْه السيوف . ويذكرون أنّ أحد أعضاء مجلس

الشيوخ بروما بعد عهد اغسطوس قال كلمة حق أو باطل مما عسى أن يكون لايرضاه الإمبراطور فاغمد أحد زملائه فيه خنجرا وأعانه آخرون يتقربون بذلك إلى الملك فسبحان الله القادر .

٥ — وفي البائيّة الخ — المراد قوله :

« أُغَالِبُ فيكَ الشَّوقَ والشَّوقُ أغْلَبُ
وأعْجَبُ مِنْ ذا الهجرِ والوَصلُ أعْجَبُ »

وهى من عيون شعر أبى الطيّب ، مدح بها كافورا وأنشدها إيّاه. قوله :

«وَكَمْ لِظَلامِ اللَيل عِنْدكَ من يَدٍ تُخَبِّرُ أنَّ المانَوِيَّةَ تَكْذبُ »

أى أنت مدين للّيلِ بحسنات كثيرةٍ تَدُلُّ على بطلان مذهب المانويين. وهؤلاء كانوا يَرَوْن الليلَ والظلامَ كلَّه رمزا للشر والشيطان وهم التنوية أتباع مانى وانتشر مذهبهم بفارس فى الدّهر القديم وأخذ الزنادقة بطرف منه ومن حسنات الليل الّتى يقصدها أبو الطيب أنه ستره عن الأعداء فوقاه من أن يقتلوه مع أنّه كان يجتاز بديارهم ومن حسناته أنه زاره فيه ذو الدّلال المُحَجَّب ، فمن ذو الدلال المُحَجَّب ومتى زاره ؟ هذا إذا أراد التدقيق . ويجوز حمل الكلام على عمومه أى زارك فيه الأحبّاء فلم يرهم من يغارعليهم . ويسوّغ لنا أن نطلب التخصيص والتحديد عِلْمُنا أنّه أخذ قوله فى صدر البيت « وقاكَ رَدَى الأعداء » من التجربة الشخصية مباشرة . وقد قال :

« ويومٍ كليلِ العاشقينَ كمَنْتُه أراقبُ فيه الشَّمسَ أيّانَ تَغْرُبُ »

فدلَّ على أنّه ماهرب إلاّ ليلا ، وأنّه كان كامنا بالنهار يترقب مجىء الليل ، وكان نهاره هذا قدطال جدا من شدة قلقه هو وانتظاره ؛ كما يطول ليل العاشق الّذى يسهر يتذكر حبيبه أو يتوقعه أن يزور فلايزور .

٦ — رائيّة امرىء القيس هى الّتي مطلعها :

« سَمَا لَكَ شَوْقٌ بَعْدَمَا كان أقْصَرا
وَحلَّت سُلَيْمَى بَطْنَ ظَبْىٍ فَعَرْعَرَا »

نظمها يحنّ فيها إلى بلاد العرب ويصف طريقه إلى قيصر وقد وصف فيها خيل البريد وهى خيل غير عربية وذلك قوله :

« عَلَى كُلِّ مَقْصُوصِ الذُّنَابَى مُعَاوِد
بَرِيدَ السُّرَى بالليلِ من خَيْلِ بَرْبَرا
إذا زُعِتَه مِنَ جَانِبَيْهِ كِلَيْهِمَا مشى الهيدبى فى دفّه ثم فرفرا »
٧ — وهو غير التى قال فيها :
« وزَائِرَتى كأن بها حَيَـاءً فلَيْسَ تَزُورُ إلاّ فِى الظَّلاَمِ »
وهذه كما لايخفى هى الحمى وقد وصفها فى القصيدة الّتى منها هذا البيت وهو أوّل أبيات وصفها . ومطلع القصيدة :
« مَلُومُكُمَا يَجِلُّ عنِ الملام وَوَقعُ فَعَالِه فَوْقَ الكَلاَمِ »
٨ — ولا ينبغى له الخ قول أبى الطيِّب :
« كَأَنَّ فَعْلَةَ لَمْ تَملأْ مَوَاكِبُها دِيَارَ بَكْرٍ وَلَمْ تَخْلَع وَلَمْ تَهَبِ »
فيه نهاية التهذيب والاحتراس . والمراد بقوله « فعلة » هو خولة ولكن أبا الطيِّب رأى أنّ هذا موضع كناية لاينبغى أن يذكر فيها اسم الحُرَمْ . ولم تكن الأذواق عهدَ أبى الطيِّب إلاشديدة التقبل لمثل هذا الاحتراس منه . وفى بعض طبعات ديوان أبى الطيب يضعون « خولة » وليس بجيِّد إلاَّ أنْ تَثْبُتَ به رِوايةٌ صَحِيحَةٌ عن الشاعر وهذا بعيد جدا .
٩ — قال أبو الطيِّب :
« لَقِيتُ بِدَرْبِ القُلَّةِ الفَجْرَ لَقْيَةً شَفَتْ كَمَدِى وَاللَّيْلُ فِيهِ قتيلُ »
أى كنت مع حبيبى ليلة كاملة حتى طلع الفجر علينا بدرب القلّة فكأننى قد قتلت الليل ذا الظلماء بنور إشراق الحبيب فاتّصل نوره بنور الفجر وشفى ذلك كمدى إذ بذاك اللقاء الباهر قد انتقمت من الليل الّذى طالما أمضنى قبل بالسهر فى ظلمائه والهموم .
يشعرنا السياق أنّ لقاء أبى الطيِّب من لاقى قد كان أثناء السير وهم فى طريقهم إلى قتال الروم .
فمن الظعينة الّتى لاقاها أبو الطيِّب وسايرها حتى طلع عليهم الفجر فى درب القلة فودّعها وهو راضٍ ذاهبُ الكمد ؟

١٠ – وآخر القصيدة بلاريب قوله :

«يَهُونُ عَلَيْنا أنْ تُصابَ جُسُومُنا وَتَسْلَمَ أعْرَاضٌ لَنَا وَعُقُولُ»

هذا نقوله على وجه من وجوه الحدس والترجيح لأن آخر القصيدة فى الديوان معروف. والّذى يتأمّل شعر أبى الطيّب فى سيف الدولة يجد أنّ فى كثير من قصائده زيادات لايحتملها السياق الّذى عليه بيان الشاعر. ولم يكن أبو الطيّب بالضعيف الركيك الّذى يخلط الساقط من القول بالجيّد ولا يأبه لذلك فى عهد نضجه الّذى نعلم. ويخيّل إلىّ أنّ بعض من كانوا يحبون أبا الطيّب ويشفقون عليه كانوا يحملونه على أن يذكر سيف الدولة بالمدح الصريح كلّما ألْفَوْه قد انهمك فى نعت السير والقتال ومقدمات النسيب وما أشبه ذلك مما هو بعيد من الممدوح. ومن أجل هذا ماكان (فيما نحسب) يلوذ أبو الطيّب بالتلاعب بمعنى السيف ليُضَمِّنَه معنى سيف الدولة وهلّم جرّا، استجابة لأصدقائه. من ذلك مثلا، آخر هذه القصيدة اللاميّة وفيه البيت المشهور:

«إذا كان بعضُ النَّاسِ سَيفاً لِدَولةٍ

فَفِى النَّاسِ بُوقَاتٌ لَهَا وَطُبولُ»

ومن ذلك مثلا الأبيات الّتى بعد النسيب فى قصيدته «فَدَيْنَاكَ مِنْ رَبْعٍ وإنْ زِدْتَنا كَرْبَا» – من نحو قوله :

«تُهَابُ سُيوفُ الهِندِ وَهْىَ حَدَائدٌ فَكَيْفَ إذا كَانَتْ نِزَارِيَّةً عُرْبَا

وَيُرْهَبُ نَابُ اللَيْثِ واللَيْثُ وَحْدَه فَكَيْفَ إذا كان اللُيُوثُ لَهُ صَحْبَا

وَيُخْشَى عُبَابُ الْبَحْرِ وَهْوَ مَكَانَه

فَكَيْفَ بِمَنْ يَغْشَى الْبِلادَ إذا عَبَّا»

والله تعالى أعلم.

١١ – وفى النونيّة «بِمَ التَعَلُّلُ» – هى الّتى مطلعها :

«بِمَ التَّعَلُّلُ لا أهْلٌ وَلا وَطَنُ وَلا نَدِيمٌ وَلا كَأسٌ وَلا سَكَنُ

أرِيدُ مِنْ زَمَنِى ذَا أنْ يُبَلِّغَنِى مَا لَيْسَ يَبْلُغُه مِنْ نَفْسه الزَّمَنُ»

١٢ ــ الرياح النكب: أى المائلة المنحرفة . أى سمت النظام غالب على دولته حتى الرياح المائلة تستقيم به .

١٣ ــ هذا البيت :

«إذا سَارَتِ الأحْدَاجُ فَوْقَ نَبَاتِهِ   تَفَاوَحَ مِسْكُ الغَانِيَاتِ ورَنْدُهُ»

جميل جدّاً . الأحداج هي الهوادج . أى إذا سارت الهــوادج فوق مروج هذا المكان ذوات الرند، وهو من النبات العطر ، عمّ السرور والبشر الشذىُّ الطيِّبُ ــ المسك يتفاوح من ثياب الغانيات وابشارهن، ومن طيب النبات وزهره ذى العبير ، ولايخفى مايشيعه مثل هذا الجو من البهجة وانشراح الصدور .

١٤ ــ تمام البيت « وَمَا مسْرَاهُ عَلَى خفٍّ ولاقدم » وهو مطلع قصيدة من جيّاد شعر أبى الطيِّب، ذكر فيها وفاة فاتك وخروجه هو من مصر .

١٥ ــ قَرِيٌّ : بوزن فعيل أى جدول والمراد ههنا من أسلوب كذا وكذا وجمع قرىٌّ (قاف مفتوحة وراء مكسورة وياء مشددة) قُرْيَان بضم القاف وسكون الراء وياء بعدها الف ونون وأبو العلاء قد يؤثر هذه الكلمة أحيانا ومنه اخذناها . والبيت « ملومكما » تمامه :

« مَلُومُكُمَا يَجِلُّ عَنِ المَلاَمِ   ووقعُ فَعَالِه فَوْقَ الكَلاَمِ »

وهو مطلع قصيدة نظمها أبو الطيِّب بمصر وذكر فيها الحمَّى وشكا الدهر ، قالوا وأنشدها كافورا فكأنَّه لم يرض عنها .

١٦ ــ إلى النَّوبَنْدَجان ، إشارة إلى قول أبى الطيِّب :

« منازلُ لم يَزَلْ منها خَيالُ   يُلاحِقُنى إلى النَّوبَنْدَجَــانِ »

وهو من قصيدته المشهورة التى مطلعها :

«مَغَانِي الشِّعْبِ طِيباً فى المغانِي   بمنزلةِ الرَّبِيعِ مِنَ الزَّمانِ»

وقولنا إلى دمشق لبيق الثرد الخ

أي وقد لاحقه خيال كما قال هو إلى النوبندجان . ثمَّ قد سرح فكره

فى الذكريات فرأى أطياف دمشق — دمشق ذات الرجل الشهم الكريم الذى كان يصنع له الثّريد الجيِّد (هذا معنى قوله لبيق الثّرد ويقدّم للأضياف فى الجِفَان الصِّينيَّاتِ ، وهذا يكون سيف الدولة أو أبـا العشائر أو من كانَ هو أى أبو الطيِّب ضيفا لديه من آل حمدان وإليه الإشارة فى القصيدة الهائية

« أحِبُّ حِمْصاً إلى خناصرة وكل نفس تُحِبُّ مَحْيَاها
حَيْثُ الْتَقَى خَدُّها وتُفَّاحُ لُبْنَانَ وثَغْرِى عَلَى حُمَيَّاها »

١٧ — قلائدُ كافور وعقيانه . . . البيت — وهو مابعده من القصيدة :

«أودُّ من الأيَّامِ مَالا تَوَدُّه وأَشكو إليها بَيْنَنَا وَهْىَ جُنْدُه»

وقالها فى مدح كافور ومنها البيت :

«إذا سَارتِ الأحْدَاجُ فَوقَ نَبَاته تَفَاوحَ مِسْكُ الغَانِيَاتِ وَرَنْدُهُ»

رقم ١٣ من قبْل .

١٨ — ذلك بأن الله قد كتب على ابن آدم الخروج من الجنة بعد أن أذله الشيطان هو وأمنا حواء فأخرجهما ممَّا كانا فيه . والقصة معروفة وذكر الطبرى أنَّ ابن اسحق كان يرى أن وسوسة إبليس لآدم فى الجَنَّة كانت من نوع وسوسته لابنائه من بعد ، لا أنَّه اختفى فى فم الحيَّة وأدخلته الجنَّة فتحدّث إلى آدم وحواء. هذه العبارة الّتى فى هذا الكتاب معناها أنَّ ابن آدم مجبول فى طبعه على القلق حتى بالنعماء، ولذلك قال حِصَان أبى الطيِّب :

« أَبُوكُمْ آدمُ سَنَّ الْمَعَاصِى وَعَلَّمَكُم مُفَارَقَةَ الجِنَانِ »

١٩ — تمامه : « والسَّيْفُ والرُّمْحُ والْقِرْطَاسُ والْقَلَمُ »

٢٠ — تمامه : « أنَا أهْوَى وَقَلْبُكَ الْمَتْبُول »

وهـو مطلع قصيدة بعث بها أبو الطيِّب إلى سيف الدولة بعد انصرافه من مصر

٢١ — فتــاة : أى الشمس . وزادت أبْهَاكُمَا العطبول — أى التى هى أبهاكما زادتنى ضَنىً وسقما .. وهى أنت العطبول . والعطبول هى المرأة الحسناء الجيِّدة الجسم .

٢٢ — ويوما كأن الحسن الخ ؛ راجع رقم ٨ من قبل — أى لقيت الفجر بدرب القُلَّة فشفيت نفسى من الليل ثم أشرق يوم جميل، كان حسنه علامة منك، وشمسه رسول بعثت أنت به؛ وذلك لأنَّه استمر يسايرها فاتَّصلت سعادة ليله بسعادة نهاره كما ترى والله تعالى أعلم .

٢٣ — أى تنظر فى عينى فترى صورة نفسها ، فقبَّلت عينى وإنَّما قبَّلت فاها .

٢٤ — وهُنَّ درٌّ فذبن أمواها : أى بكين فتساقط منهُنَّ الدرُّ وهــنَّ درٌّ . وذلك لصفاء أبشارهنَّ مثل صفاء الدُّرِّ ودموعهِنَّ الذائبات على أبشارهنَّ الصافيات الألوان كلٌّ أولئك فسبحان الخالق القدير .

٢٥ — أو عرَضَتْ عَانَةٌ مُقَزَّعَةٌ ، أى: قطيع متفرق من حُمُرِ الوَحْش .

الفصل الثاني

١ – وفي النفس بعدُ من تراجم ... الخ

وذلك لشدّة احتراسه كما تقدّم في النص. ولعلّه إنّما سمّى الثعالبيّ لا لبيعه فراء الثعالب ولكن لثعلبيّة كانت فيه، ولعلّه ما كتب اليتيمة كله إلاّ من أجل هذا الفصل الّذى عقده لأبى الطيّب لشدّة حيويّته إذا قيس ذلك إلى سائر الكتاب وليس مصدر ذلك حيويّة الشاعر ولكن حيويّة أبى منصور نفسه. وقد يستطيع الكاتب البارد أن يكتب عن أبى الطيّب كتابا باردا كالذى فعل يوسف البديعيُّ في كتابه الصبح المنبى عن حيثيّة المتنبى.

٢ – الشاهد ههنا أنّ الأبيات الّتى ذكرها أبو منصور من جيّد شعر أبى الطيّب وأصدقه تمثيلا للصفات الّتى ذكرها هو في محاسنه. « مخاطبة الممدوح من الملوك بمثل مخاطبة المحبوب الخ » ولكنه احتراسا لنفسه وصفها بأنها رُبّما دخلت في باب إساءة الأدب بالأدب لجراءتها وما فيها من الدعاوى الّتى كان ينكرها خُصوم أبى الطيّب وخصوم ذكراه. وإذا جاز أن تقع من أبى الطيّب إساءة الأدب بالأدب في مدح سيف الدولة، فكيف يكون شأنه مع منافس له مثل أبى فراس وهو القائل:

أَفِي كُلِّ يَوْمٍ تَحْتَ ضِبْنِي شُوَيْعِرٌ ضَعِيفٌ يُقَاوِينِي قَصِيرٌ يُطَاوِلُ

لله درّه!

٣ – أمَم: أى قريب: أى أمر الجهلاء من العلماء غير قريب. وحَسْبُنا عزاء أنّنا جهلاء إذ الله تعالى يقول: وما أوتيتم من العلم إلاّ قليلا. وإنّما العلم خَشيةُ الله، واتقوا الله ويُعلّمُكم الله. وجزاء التقوى يوم يقوم الأشهاد. ولو شاء الديّان لنصرَ الآن وهو على كل شىء قدير.

٤ — «حب ماخف عنكم ،» أى أقلُّ سلامي حبًّا للتخفيف عنكم ، كأنَّه متى سلَّم على كافور كان كأنَّه يذكِّره بالوعد الّذى وعده إيّاه من إعطائه ولاية وهلّم جرًّا .

٥ — الملاب : ضرب من الطيب

٦ — موضع الماخذ هو أنَّ المداعبة في هذا الْمَقَام تناقض روح الشرف الّتى ينبغي أن ينعت بها الممدوح وهذاهو ماذهب إليه أبو الطيِّب حيث قال

« يُثِيبُنَكَ بالّذى أوْليتَ شُكْراً   وأينَ من الّذى تُولى الثّوابُ
ولَيْسَ مَصِيرُهُنَّ إليك شيئاً   وَلافِي صَوْنِهِنَّ لَدَيكَ عَابُ »

تأمَّل قوله : « فى صونهن لديك » فمثل هذا تتقطع دونه الأعتاق . . أعناق أبى فراس وغيره . والله أعلم .

٧ — وعلى نحو قوله — تمام الكلام بعد الأ بيات . هكذا اعتمد الثعالبى فى الوصف الذى وصفه لغزوات سيف الدولة .

٨ — فَدَيْنَاكَ من رَبْعٍ وإنْ زِدْتَنا كَرْبَا
فإنَّكَ كُنتَ الشَّرْقَ للشَّمْسِ وَالغَرْبَا

هذا هو مطلع القصيدة . ثم نصف البيت « سراياك تترى » تمامه :

« سَرَايَاكَ تَتْرَى والدُّمُسْتُقُ هاربٌ   وأصحابهُ قَتْلى وأمواله نَهْبَى

وتمام « على قدر أهل العزم » هو :

« عَلَى قَدْرِ أَهْلِ الْعَزْمِ تَأْتِي الْعَزَائِمُ
وَتَأْتِي عَلَى قَدْرِ الْكِرَامِ الْمَكَارِم

٩ — يضح مضارع وضح مثل وزن يزن أى اتضح يتضح

١٠ — تمامه : « إنْ قَاتَلُوا جَبُنُوا أو حَدَّثُوا شَجُعُوا »

١١ — أى كلُّ نبوغ له ثمن وكل نابغة تجد فيه عيبا . ولكن خصَّ الله أصحاب النبوّات بالكمال لعنايته هو جلَّ شأنه الّتى أسبغها على أنبيائه حتَّـــى

يتحملوا أعباء الرسالة ويبلّغوها والله أعلم .

١٢ — للإمام الغزالى فى ربع المهلكات من كتابه إحياء علوم الدين فصل رائع عن الحسد وقد ذكر رضى الله عنه للحسد أدوية وهذا يخالف ماقاله أبو الطيّب :

« سِوى حَسَدِ الحسّادِ داوٍ فإنّه إذا حَلَّ فى قَلْبٍ فَلَيْسَ يَحُولُ »

ويحمل كلام الغزالى ، إن شاء الله . على أن يدرك المرءُ الحسد قبل أن يحلَّ ويستفحل والله تعالى أعلم .

١٣ — لماذا أرسل أبو العشائر أشخاصا ليغتالوا أبا الطيّب ؟

يجوز أن يكون أناس قد وَشَوا بأبى الطيّب عند أبى العشائر وإذا صَحَّ أنّه قد كانت بين أبى الطيّب وبعض نساء أبى العشائر مودّة فالوِشاية أقرب شيء أن تكون فى هذا المجرى .

والفرض المفترض ههنا هو أنَّ أبا العشائر لم يرسل هؤلاء المغتالين ولكن أرسلهم أبو فراس وقالوا لأبى الطيّب إنهم غلمان أبى العشائر على وجه التهديد له . . . كأنّهم يجابهونه بأنَّ الذى بينه وبين بعض آل أبى العشائر جريمة تستوجب قتله . وأنّه إن أفلت هذه المرّة فلن يُفْلِت مرّة أخرى تلى . وما فرَّ أبو الطيّب من حلب إلاَّ وهو يحسُّ أنَّ حوله خطرا عظيما والله تعالى أعلم .

١٤ — تمامه : « شَدِيدُ السُّكْرِ مِنْ غَيْرِ الْمُدَامِ . »

١٥ — تمامه : أبَعْدَما بَانَ عَنْكَ خُرَّدُهَا . وهو مطلع قصيدة .

١٦ — عينيّة مُتَمِّم بن نُوَيرة يرثى بها أخاه مالك بن نويرة فى المفضليّات مطلعها :

« لَعَمْرِى وَمَا دَهْرِى بتَأبينِ هالكٍ وَلاَ جَزِعٌ مِمَّا أصابَ فأوْجَعَا »

وهى من عيون المراثى فى الشِّعر العربى .

١٧ — وهانا : يستحسن فى اللغة أن يجىء اسم الاشارة بعد الضمير فيقال

هانذا وقد روى هانا وليس فى الذروة من الفصاحة والله أعلم .

١٨ – تمامه : « مِنِّي بِحِلْمِي الّذى أعْطَتْ وتَجْرِبِى . »
أبو الطيِّب منصف .. ونحن إذا تمنينا الصِّبا تمنينا أيضا معه أن تبقى معنا تجاربنا وحِلْمنا لكى نجمع بين قوّتى الشباب والنضج وذلك هو المستحيل. إلاّ عند أهل الجنَّـــة إذ كلّهم شباب ، وكما وصفهم الله تعالى : لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما إلاَّ قيلا سلاما سلاما .

١٩ – شواهد الحسد فى قوله : « ياناعِمَ الثوب » « ياراكب الخيل» وشاهد الغرور قوله« فَارَقَ فِيكَ الجَمَالَ أجْمَلُها »... ومن كان سمينا عند نفسه ولله در أبى الطيِّب إذ قال :

« أُعيــذُها نَظَرَاتٍ مِنْكَ صَــادِقَةً
أنْ تَحْسِبَ الشَّحْمَ فيمَن شَحْمُه وَرَمُ »

٢٠ – النبع ضرب شديد من الخشب ، والغَرَبُ ضعيف ، والصقر من أشد الطيور الجوارح ، والخَرَبُ من ضعاف الطير .

٢١ – « أبُنَيَّتِى لاتَجْزَعِى» : الأبيات ستأتى من بعد كاملة .
وابن خَالَوَيهِ كان من أعداء أبى الطيِّب وشَجَّهُ بمفتاح

الفصـــل الثـــالث

١ – قال أبو الطيِّب ، «وما أنا إلاَّ عاشقٌ» – هذا من قصيدته فى مدح سيف الدولة الّتى مطلعها :

« وَفَاؤُكُمَا كالرَّبْعِ أشْجَاهُ طَاسِمُهْ
بأنْ تُسعِدا والدَّمعُ أشفاهُ سَاجِمُهْ »

أى أنا عاشق . وكل عاشق فالّذى يلومه من بين أصدقائه قاس عليه .

٢ – الّذى يُرَجِّح أنَّها عينُ المحبوبة الّتى فى الداليَّة أو قل هى الّتى ألهمت نسيب الداليَّه كما ألهمت نسيب الميميَّة كما ألهمت نسيبا كثيرا عند أبى الطيِّب هو تكرار الصورة الدالَّة عليها وتشابهها.من ذلك، هذا الطيبُ والأرج وإحساس الانشراح والبهجة – الغالب على الظنِّ أنَّ ذلك لايتفق مجرَّد اتفاق إن لم يكن مبعثه فى الأ صل واحداً والله أعلم .

٣ – «وحال كإحْدَاهُنَّ رُمْتُ بُلُوغَها –»

تشبيه الحال باحداهن فيه نوع من العهد والخصوصيَّة والتجربة الذاتيَّة . أى رُبَّ حال أطلبها هى فى شدَّة رغبتى إليها وعسر منالها كفلانة العزيزة البعيدة المنال – ألا ترى أنَّ بعض ما نذهب إليه فى هذا الصدد عسى أن يكون له وجه قوى يبرره . والله أعلم .

٤ – هذا البيت من قصيدة طويلة لجِرَانِ العَوْدِ فى ديوانـــه المطبوع (دار الكتب) وقد استشهد بهذا البيت وآخر منها أبو العلاء المعرى فى رسالة الغفران وهما :

«وأمْسَكْن دونى كلَّ حُجْزَةِ مِئْزَرٍ لَهُنَّ وَطَاحَ النَّوْفَلِىُّ المُزَخْرَفُ
وَقُلْنَ تَمَتَّعْ لَيْلَةَ النَّأْى هَذِه فإنَّكَ مَرْجُومٌ غَداً أوَ مُسَيَّفُ»

أى ، قلن لى تمتع بالأنس معنا فى أخرى لياليك هذه . وكشفن عن أوجههن وطاح النوفلى أى الخمار النوفلىّ – وهو ضرب من الثياب الرقاق – الذى عليه الزخرف وأبحن القبل ولكنَّهُنَّ منَعْنَ ما وراء ذلك

وأمسكن حُجزات مآزرهِنّ أي معَاقِدَ مآزرهنّ وقلن في امتناع ومداعبة إيّاك وهذا فإنّه يجر عليك القتل أما رجما وأما بالسيف — ثم يشعر قولهن له : « فإنك مَرْجُومٌ غداً أوْ مُسَيَّفُ » أنّ هذا الّذى اختلسه من اللهو ربّما جرّ عليه الرّجم أو السيف إن فطن له بعض من يَغَــار عليهن . ولايخفى بعدُ مافى هذين البيتين من روح الأنس والمرح. وهذه الفائيّة نظر فيها جران العود إلى منهج الفرزدق في فائيّته :

« عزَفْتَ بِأعْشَاشٍ وَمَا كِدْتَ تَعْزِفُ
وَأنْكَرْتَ مِن حَدْرَاء مَا كُنْتَ تَألفُ »

وإلى منهج رائيّة عمر بن أبي ربيعة :

« أمِن آل نُعْمٍ أنتَ غادٍ فَمُبْكِرُ غَداةَ غدٍ أو رائح فمُهَجِّرُ »

ثم هي بعد نسيج وحدها في بابها والله أعلم .

٥ — مضغ الكلام : يستحسن القليل منه في مذهب الملاحة وعلى أوجه خاصّة . وهو في جملته متكلّف بغيض متى خرج عن هذا المذهب الّذى قدمنا .

٦ — مِمَّا ينظرون بعين الكشف : أي كثيرا ماينظرون أو ربما ينظرون ومما تستعمل في العربيّة لإفادة معنى التكثير .

٧ — موضع السؤال قول أبي الطيّب : وطُلْتَ حتىّ كلاكما واحد — فالإلحاح على ذكر الطول يشعر أنّ الّتي أوحت هذا الكلام عسى كانت ذات طول . وقد قال في لاميّته « مَالَنَا كلُّنا جَوٍ يارَسُولُ » :

« مِثْلُها أنتِ لوّحتِني وَأضْنَيْتِ وَزَادتْ أبْهَاكُمَا العُطبُول »

والعطبول هي الطويلة الحسنة .

وفي شعر أبي الطيِّب ما يُفيد أنّها كانت قصيرة وهذه يجوز أن تدلّ على قصر القامة أو على أنّها مقصورة . وهذا المعنى فصّلناه في موضعه . والفكرة ههنا أنّ بعد المسافة بين أبي الطيِّب وبينها جعــل شخصها تتضاعف أبعاده في مخيِّلَتِه فرأى طيفها البعيد كأنّه يملأ آفاق السماء.

ومثل هذا صنعه امرؤ القيس حينما تأمّل نار محبوبته البعيدة فخيّل إليه أنّه يراها وهو بأذرعات وهى بيثرب وتلك مسافة بعيدة. بل لعلّه رآها رؤية حقيقية بعين قلبه . وأحيانا إذا أبصرت عين القلب صحت الرؤيا لدى عين البصر لأن عين البصر إنّما ترى بضوء القلب — قال تعالى : « فإنهــا لاتَعْمَى الأبصَارُ ولَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِى فِى الصُّدُور.» ومن العجب قول امرىء القيس أنّه رأى النور — نور المحبوب وهو بالشام والمحبوب بيثرب . ولايصح مثل هذا المعنى إلاّ فى مَعْنىً صُوفِىٍّ مَدارِ النَّسيبِ فيه الذّاتُ الْمُحَمَّدِيَّة . ولعلّ امرأ القيس نظر بعين الكشف فأحسّ اقتراب عهد النبوة فانطقه الله بهذا القول الحسن البديع . والله تعالى أعلم .

٨ — كان جاهلا : ههنا الإشارة إلى قول العكبرى ينتقد تصريح أبى الطيّب باسم ضبّة فى قصيدته المقذعة

« ما أنصف القومُ ضَبَّة   وأمَّــهُ الطُّــرْطُبَّــة»

فقد قال العكبرى « كان جاهلا » — كأنه يشفق عليه ويعاتبه به من وراء الدهور .

٩ — أى يَدّعون حبًّا عذريّاً للغلمان والوصفاء، وينظمون الشعر فى ذلك ويضمون من المعــانى والتجارب ماهــو مراد به حقّاً غزل النساء . ولكن روح الغيرة والمحافظة على تكرمة النساء بالحجاب هى الّتى الزمتهم هذه الدعوى لا الانحراف الجنسى كما قد يتبادر للناقد أحيانا والله أعلم .

١٠ — أو يغارون على النساء فيقتلون الرجال غيرة عليهنّ أو طلبا لرضاهنّ . وانما أرادت هند بقولها :

« نَحْنُ بَنَاتُ طَارِقِ   الطِّيبُ فِى المَفَــارِقِ
وَالدُّرُّ فى المَخَانِق

تحريض فرسان قريش فإمّا منعوهن وإما أباحوهن . والقوم الذين صحبهم أبو الطيِّب من هذا الضرب . . ودعا إلى ذكر أبيات هند ما فيهن من ذكر الطيِّب والدّر وهى معان يُلح أبو الطيِّب عليها .

وقولنا : ويكون القنيص العاشق وذلك بقايا الطيب « أى أن الغوانى يقتلن قنيصهن وهو عاشقهن بفضلة الطيب الّذى كسرنه فى مفارقهن. كصنيع فرسان البدو الّذين صحبهم أبو الطيِّب حين يذبحون ما يصيدون بفضلة السيوف والرماح الّتى كسروها فى مفارق أعدائهم. هذا سلاحهم وقتالهم كما ذلك سلاحهن وقتالهن . والله أعلم .

١١ ــ والحديث المُخْفيه : أى الذى يخفيه ويغلب عليه

١٢ ــ أى ليست الثويّة هى الموضع الّذى قرب الكوفة وبه مات زياد ورثاه حارثة بن بدر الغدانى وقال الأبيات

« صلى الإله على قبرٍ وطهَّره عِنْدَ الثَّوِيَّةِ يُسْفَى فَوقَهُ الْمُورُ
زَفّت إليه قُريش نَعْش سيِّدها فَثَمَّ كُلُّ التُّقى والْبرّ مَقبُورُ
أبا المغيرةِ والدُّنيا مُفَجِّعَةٌ وإنَّ مَنْ غَرَّتْ الدُّنيا لَمَغْرُورُ
قَدْ كَانَ عِنْدَكَ للمَعْرُوفِ مَعْرِفَةٌ وكانَ عِنْدَكَ للنَّكْرَاء تَنْكيرُ »

وهى فى الكامل للمبرد .

ولكن الثويّة فى هذا الموضع الأرض الّتى نزل بها أبو الطيِّب فكان بها ضيفا عند البدو ذات ليلة . هذا تقريب للمعنى .

١٣ ــ إن كان الحزينَ بها أراد ــ أى إنْ كان مرادُه الشخص الحزين لفراقه الساكن بها وهو محبوبته .

١٤ ــ لها محبَّان من همزيّة أبى نواس :

دَعْ عَنْكَ لَوْمِى فإنَّ الْلَوْمَ إغْراءُ وَدَاوِنى بالّتى كانَتْ هِىَ الدَّاءُ
مِنْ كفِّ ذَاتِ حِرٍ فى زِىِّ ذِى ذَكَرٍ لَهَا مُحِبَّانِ لُوطِىٌّ وَزَنَّاءُ

والعياذ بالله !

١٥ ـــ زعم أبو الفرج الببغاء أنّه رأى عند أبى الطيّب غلاما. وكان أبو الطيّب منصرفا عنه يقرأ أو يكتب . ثم لمّا انتصف الليل صرف الغلام وأعطاه مالا جسيما فقال له أبو الفرج إنّه غلام مبتذل يرضى بما دون ذلك ـــ وهذا الخبر موضع شكٍّ عظيم ونظر . والله أعلم .

١٦ ـــ المراد هنا الترجيح أنَّ قول أبى الطيّب :

«ولاترد الغدران إلاّ وَماؤهـــا من الدَّمِ كالرَّيحَانِ تَحْتَ الشَّقَائِقِ»

صَـَدرَ عن تجربة حقيقية. ذلك بأنّ تشبيه المناظر الدامية بالوادعة جدّاً كالريحان تحـــت الشقائق بعيد جدّا لا يسوغ إلاّ فى حالة الزخرف البديعيّ المحض . والزخرف البديعيُّ يغلب عليه روح الذكاء والبادرة الذهنيَّة اللفظيَّة أو المعنويَّة ولكن لايخالطه انفعال وحيويَّة تنبىء عن تجربة . ولا أحسب القارىء ينكر أنَّ بيت أبى الطيِّب هذا فيه حيويَّة وانفعال ينبىء بوجود منظر ريحان وشقائق شاهده الشاعر فعلا وسجَّله ههنا . فأين شَهِدَه ولماذا علق بذهنه كلّ هذا العلوق ؟!

١٧ ـــ هذه الصورة دامية جدّاً، صورة الطعن فى حومة القتال الشديد كالّذى اشتّد حتّى قارب حيث الظعائن وجعل الدم يتطاير حتى سقط على نحور العواتق حين يتساقط حولهنّ الفرسان ممّن يعطفن عليهم مـــن بعولتِهنّ ومحارمِهنّ . ولعلَّ هذا المنظر قد شاهده أبو الطيِّب أيضا وعلق بذهنه . والشبه بين جمال العواتق ـــ إذ لم يقل العواتق إلا وهو يريد ان ينبه على جمالهن ـــ يتطاير دم القتال حولَهُنّ وبين الريحان تحت الشقائق لايخفى ، متى ذكرنا أنَّ الشاعر بنى صوره البيانيَّة ههنا كلّها على المزج الرهيب بين صور القتال والجمال .

١٨ ـــ راجع ١١ من قبل

١٩ ـــ بما كان قصيراً أحمقَ كذّاباً ـــ هذه صفات كثيرة فى الأغانى وسواه

مما ترجموا له فيه والمراد ههنا التنبيه إلى عنصر التحامل على كثير لا لشيء إلاّ لأنّه قد كان كيسانيَّ المذهب . كيف يكون من كان في مثل بلاغته وأدبه كيسانيّاً إلاّ أنْ يكون أحمق ممرورا . . . هذا هو الافتراض .

ومصدره كما لايخفى الرغبة فى الدفاع عن العقيدة الصحيحة ولاتحتاج إلى أن يدافع عنها بمثل هذا من ضروب التعصُّب والله تعالى أعلم .

٢٠ ــ أى الطول في المرأة الطويلة يُكْسِبُها نوعا من تَذْكِير فتحتاج إلى مزيد في الصِّناعة لتخفف من أثر ذلك . ومن أجل هذا ماقال كعب بن زهير :

«غَرَّاءُ فَرْعَاءُ مَصْقُولٌ عَوَارِضُها لاَ يُشْتَكَى قِصَرٌ مِنْها وَلاَ طُولُ»

٢١ ــ وازن بين الصُّوَر فى قول فتاة آل حمدان

« أجل عينيك فى عينى ... الأبيات »

والصورة الّتي فى شعر أبى الطيِّب. عسى أن يكون جميع هذا قد وقع اتفاقا . ولكن يغلب الظنُّ أنَّ الصورة الّتي يحــدِّثنا عنها أبو الطيِّب والّتي تحدثنا عنها الفتاة كان مصدرهما من التجربة واحد لشدّة التشابه : قول الفتاة « أجِلْ عَيْنَيكَ فى عَينى » يشبه جدّا فى معناه قول أبى الطيِّب «فَقَبَّلَتْ ناظِرى تُغَالِطُنى» وقدسبق شرحه فى الفصل الأوَّل وقولهــا « صافحنى » يسجل نفس التجربة التى فى « ياطفلة الكف عبلة الساعد » وقولها « خُذْ سَمْعِي إليك » فيه معنى « لا كل سمع عن سواها بعائق » على نحو ماهو مفصَّل فى النصِّ . والله أعلم .

٢٢ ــ قال الوليد . . . الخ؛ هذه جملة معترضة واستطراد ويقال قال ذلك يزيد بن عبد الملك ومن يشابه أبَهُ فما ظلم .

٢٣ ــ هذا من القصيدة الّتي مطلعها :

« نَسِيتُ وَمَا أنْسَى عِقابا عَلَى الصَّدِّ
ولاخَفَرا زَادَتْ بِهِ حُمْرَةَ الخَدِّ »

وهى فى مدح ابن العميد . والسِّبْتُ بكسر السين وسكون الباء جِلْدٌ»
رقيق كانت تصنع منه النِّعال الرقاق . وفيه قول عنترة :

«بَطَلٍ كأنَّ ثيابَه فِى سَرْحَةٍ يُحْذَى نِعالَ السِّبْتِ لَيْسَ بِتَوْأَمِ

أى هذه الإبل كرعن بمشافر كأنها من رقتها سِبت مياه نام حولها الورد .
لاحظ أنّ هذه هى نفس الصورة « الريحان تحت الشقائق » أو مقاربة
لها والله أعلم .

٢٤ ــ هذا البيت لجرير ،ومحل الاستشهاد قوله فى رواية من رواه « إذا ما
استحين الماء» بالياء . فان هذا يعطى الإبل لونا من الرمزيّة والكناية
لمعنى الحياء الّذى أسبغه الشاعر عليها . والشاعر قد يكنى بالإبل عن
نفسه وعن أحبابه . وإذ المقام مقام انصراف وتوديع جاز الاستشهاد
ببيت جرير الحلو :

« أَتَذْكُر إذ تُوَدِّعُنا سُلَيمَى بِفَرْعِ بَشَامَةٍ سُقِىَ الْبَشَامُ »

وإنَّما هذه الدنيا لحظات من السعادة تُختَلس وتُستَجَل ثمَّ سائرها
رَتيب والله أعلم .

٢٥ ــ أى فارس الحصان الأحمر الّذى تشرع إليه القَنَا من كلِّ جانب أو
فارس الطعينة ذات الهودج الأحمر الّذى تشرع القَنَا نحو حُمَاته من
كل جانب وهذه الصورة الثانية تكون مأخوذة من خبر غزوة الجمل
ومثلها يكون حيّاً فى مثل خيال أبى الطيِّب المتشيِّع .

وقول عنترة :

«يَدْعُونَ عَنْتَرَ والرِّمَاحُ كأنَّها أَشْطَانُ بِئر فِى لَبَانِ الأَدْهَمِ »

أى الرماح مشرعة نحوه وهو على حصانه الأدهم وقد وردته بالطعن
فصارت لطولها وكثرتها حوله مثل أشطان البئر .. أى حبال البئر؛ لأن
الغَرَبَ؛ أى الدلو الكبير تكون الحبال متصلة به فى شكل مخروطى
ويجوز أن يكون عنترة ههنا يصف بئرا لها واردون كثيرون .

ونظرُ أبى الطيِّب إلى هذه الصورة من بيان عنترة لايخفى .
وقول أبى الطيِّب «المشرع القنا قبله» فيه تسجيل دقيق لصورة تحفُّز الرماح بالحصان وانفعالة الحصان إزاءها مزورا مقدما — فمن أجل هذا زعمنا أنّه نظر أيضا إلى قول عنترة :

« فازْوَرَّ من وَقْعِ القَنَا بِلَبَانِه وَشَكَا إلىَّ بِعَبْرةٍ وتَحَمْحُمِ »

والله تعالى أعلم .

٢٦ — فِى المُلْتَقَى وَالْعَجَاجِ والْعَجَلَة —رَمَى الدَّرْبَ بالْجُرْدِ الجِيَادِ إلى الْعِدا — شَوائِلَ تَشْوَالَ العَقَارِبِ بِالقَنَا .

هذان الشطران من القصيدة اللاميَّة :

« لَيَالىَّ بَعْدَ الظَّاعِنِينَ شُكُولُ »

وتمامها :

« رَمَى الدَّرْبَ بالجُرْدِ الجِيَادِ إلى الْعِدا وَمَا عَلِمُوا أنَّ السِّهَامَ خُيُولُ »

« شَوَائِلَ تَشْوَالَ الْعَقَارب بالْقَنَا لها مَرَحٌ مِنْ تَحْتِهِ وَصَهِيلُ »

والّذى دعا إلى الاستشهاد والاستطراد بهما ههنا هو طلب الإيقاع فى ذهن القارىء وقوَّة التشابه بين روح المرح والنشاط عند قول أبى الطيِّب :

« وَدَرَاعٍ سِفْتُه فخرَّ لَقىً ... البيت »

وبين هذه الأبيات والجزء الذى هما منه فى قصيدتيهما والله أعلم .

٢٧ — « مَنْ نَفَرُوهُ وَأنْفَدوُا حِيلَه »

أى غلبوه والمنافرة كانت نوعا من المغالبة يعمد إليه المختصون فى الجاهليّة يفاخر أحدهما الآخر فى الشرف ويحتكمان إلى كاهن أو نحوه فيحكم لأحدهما على الآخر فيكون الغالب نافرا والمغلوب منفورا تقول نافرته أنافره فأنا أنفره أى أغلبه (باب نصر)

وكانت أم أبى فراس جارية رومية فهذا كان يجعله بلاريب دون أبى العشائر إذ لم يذكروا أنّ هذا هجين. فلايخلو قول أبى الطيّب « مَنْ نَفَرُوهُ وأنْفَدُوا حِيَله » من نوع تعريض، ولا يستبعد أن يكون أبو فراس داخلا فى هذا التعريض والله أعلم .

٢٨ — لايخفى أنّ ههنا تنبيها للقارىء لعلوق معنى الطيب بقلب أبى الطيّب وههنا أيضا إشارة إلى قوله :

« ما أَسْأَرَتْ فى يَدِى ذوائبُها　　جَعَلْتُه فى المُدَامِ أفْوَاهَا »

أى كان يلمس ذوائب شعرها فيعلق بيده الطيب فحرصا منه على هذا الطيب يجعله أفواها أى طيبا وبهارات يُطيّب به كئوس مدامته .

لاحظ قوله « ماأسأرت » أى ما أبقت . هو نفسه قوله :

« ما أسأرت فى القَعْبِ من لبنٍ　　تَرَكَتْهُ وَهْوَ المِسْكُ والعَسَلُ »

أى ماأبقت، لأن فمها زاكٍ وهى كلّها عَطِرة فإذا تناولت قعب لبن بالبادية تشرب منه علق طيبها به .

وأحسب أنّ أبا الطيّب اختار كلمة «أسأرت» ليرمز إلى أنّه (والله تعالى أعلم) قد شرب من سؤرها إذ سؤر المؤمن شفاء وكذلك سؤر المحبوب إذ الحب من الايمان — متى كان خالصا لله وقد كان أبو الطيّب متألها — هكذا قال أبو العلاء ولعلّه لعميق الحاده كان يحسده ذلك والله تعالى أعلم .

٢٩ — هذا افتراض وذهاب مع أبى الطيّب فى جوٍّ من أحلامه — هل هذه الصورة الّتى صوّرها لفناحسر وإنّما هى صورة حَلِم بِهَا لِنَفْسِه بعد أن يرجع ظافرا إلى الشام ويلقى بدويّته الّتى فُتنت بها الحِلَلُ وينشد روائعه كما كان يفعل أيّامه الأوَل ويخسأ أبو فراس ومن كانوا حزبه من الناس والنسناس ؟!

٣٠ — دَيْرُ العاقول الّذى أصِيبَ فيه أبو الطيّب كما حَقّقَ ابن خلّكان وكما ذكر الثعالبيُّ وهو كالمعاصر كان قريبا جِدّاً من بغداد ، وبعض

المعاصرين قد يَهِمُ فيحسب أنّه بعيدٌ جداً عن بغداد إذ لايستبعد أن كان اسم « العاقول » يطلق على أكثر من ديرٍ واحد . والله أعلم .

٣١ ــ أى إنّما ينبُتُ القنا الّذى تصنع منه الرماح من أجل أن يحملها الناس ليخوضوا الشدائد فيلقوا الممدوح إمّا ينصرونه فينالوا من جدواه أو يقاتلونه فينالوا من جدواه أو يمدحوه مجتازين بديار العدو واللصوص كما فعل أبو الطيّب .

٣٢ ــ لاحظ قوله حصى أرض وجعله هذا الحصى موضع تقبيل، وإعطاءك صوتا مشعرا بهذا التقبيل فى قوله يلل ــ ألا يقوّى هذا عندك معنى مارأيناه من الربط المعنوى بين صورة الحصى هنا وفى قوله :

وامّواهٌ يَصِلُّ بها حَصَاها صَليلَ الحَلْىِ فى أيدى الغَوَانى

وفى قوله :

« بلادٌ إذ ازَارَ الحِسَان بِغَيرِها حَصَى تُرْبِها ثقَّبْنَه للمَخانِقِ »

وفى قوله :

وَمَلْمُومَةٌ سيفيَّةٌ رَبَعيَّةٌ يَصِيحُ الحصَى فيها صِيَاح اللقالِق

يشعر بتجربة عميقة متصلة بالحصى فى نفس أبى الطيّب ؟ الله أعلم .

٣٣ ــ الّذى يميل بنا إلى الحدس أنّها لثغاء قول أبى الطيّب وسيأتى فى النصّ :

«تشير وبلعجلانُ فيها خفيّة كرَاءيْن فى ألفاظ ألثغَ نَاطِقِ »

فهذه تجربة وأشبه شىء أن تكون الصورة الّتى بقيت فى ذهن الشاعر وخياله صورة لثغاء تخلط بين الراءين .

ثم أنّ الشاعر فى اللاميّة أعطانا صورة مقاربة لإنسان محبوب مقاربة آنسةً، ولكنّها غيرُ ذات عِناق، قريبةً منه جدّاً مثل شَكْلَتَىْ نَصْبٍ :

«دَونَ التّعانُقِ نَاحِلَيْنِ كَشَكْلَتَى نَصْبٍ أدَقّهُا وَضَمّ الشّاكِلُ »

فمذهبه فى التصوير ههنا يشبهه جداً مذهبه فى تصوير الراءين فى ألفاظ

الألثغ — هل التجربة واحدة تشير إلى شخص واحد ؟ هذا مانرجّحه حدسا والله أعلم .

قوله بلعجلان أى بنو العجلان .

٣٤ — « ديار اللواتى » الأبيات من القصيدة الميميّة الّتى مطلعها :

«انا لائمِى إنْ كنتوَقْتَ اللوائم علمتُ بما بى بينَ تلكَ المَعالِم »

وقالها فى الإخشيد قبل اتصاله بأبى العشائر بزمان .

٣٥ — من قصيدة فى سيف الدولة مطلعها :

«أيدرى الربع أىَّ دَمٍ أراقــا وأىَّ قلوبِ هـذا الرَّكْبِ شاقا»

٣٦ — تَعْتَجِر به تَلُفُّه حول خَصْرِها . تقول : اعتجر بالعمامة إذا لفّها على رأسه .

٣٧ — هذه العبارة مقتبسة من لفظ أبى حيّان التوحيدى يصف أحد الأدباء المرتزقين من حاشية الصاحب بن عباد فليُرجع إليها هناك فى ترجمة ياقوت له وللصاحب. وفى كتاب مثالب الوزيرين وقد طبع منذ حين قريب .

٣٨ — نفرض أنها أخت أبى العشائر استنادا على البيت : « يا أختَ مُعْتَنِقِ الفَوارِسِ فى الوَغَى » وهو من القصيدة :

« لِهَوَى النُّفُوسِ سَرِيرَةٌ لاتُعْلَمُ »

راجع الفصل الأوّل (١) . ومعتنق الفوارس على هذا الفرض يكون أبا العشائر. ثم إن سياق الكلام من بعدُ يتخلّى عن هذا الفرض ليجعل المرأة المعينة زوجة أبى العشائر وراجع النص .

ههنا تنبيه على أن قول أبى الطيب : «فالشَّيْبُ مِنْ قَبْلِ الأوانَ تَلَثُّمُ» كأنّه وضّحه وبيّنه فى قوله : «وتكملة العيش الصبا وعقيبة.. البيت» إذ هذا يدلّ على أن عارِضَى أبى الطيّب قد خالط سوادهما بياض. فغالبُ لونهما السَّوادُ الخالصُ أيّامَ كان فى رونق الشباب . وقادم البياض

حـــين يصير شيخا . ولم يعش رحمه الله ليدرك تلك السنّ إذ قتلوه وهو ابن إحدى وخمسين .

٣٩ ـ هذا الاستطراد المراد منه أنّ بيت أبى الطيّب :

«وَعَرْفَ حَوَاشِي كُلِّ ثَوْبٍ موجه مِنَ الدُّرِّ سِمْطٌ لَمْ يُثَقِّبْهُ نَاظِمُهْ»

يجوز حمله على ظاهره وهو أنّه يصف صورة النساء اللاتى فى نقش الفازة (الخيمة) ووشيها . ويجوز أن يحمل على أنّه التفات إلى فتاة النسيب الّتى فى أوّل القصيدة :

«حَبِيبٌ كأنَّ الحُسْنَ كانَ يُحِبُّه فآثَرَه أوجَارَ فى الْحُسْنِ قَاسِمُه
يَظَلُّ غُبارُ الخَيْلِ أدْنَى سُتُورِهِ وآخرُها نَشْرُ الكِبَاءِ المُلازِمُه»

وصويحباتها فهن الحور المقصورات فى الخيام اللاتى لم يَطمِثْهُنّ إنس ولاجان ـ أو كما قال :

«تَحُولُ رِمَاحُ الخَطِّ دُونَ سِبَائِهِ وَتُسْبَى لَهُ مِن كُلِّ حَيٍّ كَرَائِمُه»

والله أعلم .

٤٠ ـ أى هذا الوصف المتقدّم للفارس أشبه بالّذى ذكره بدءا فى قوله :

«يَا أُخْتَ مُعْتَنِقِ الفَوَارِسِ فى الوَغَى»

فمثل هذا هو الّذى يعتنق الفوارس مقاتلا لهم. و قد صرّح هنا أنّ هذا فى وصف أبى العشائر، فيكون معتنق الفوارس إذن هو أبو العشائر. وأخته هى موضوع نسيب أبى الطيّب. ويَستمِرُّ تفريع الحدس وتفصيله على النحو الّذى ورد فى النصّ كما سبقت إلى ذلك الإشارة. والله أعلم.

٤١ ـ ههنا إشارة إلى قوله :

«راعَتْكِ رَائِعةُ البَيَاضِ بِمَفْرِقى وَلَوْ أنَّها الأولَى لَرَاعَ الأسْحَمُ»

ليس موضوع وقوفنا ههنا هو عَجُزُ البيت إذ لايخفى أنّ هذه فكرة ليس إلاّ . وقد كرّرها أبو الطيّب فى قوله :

«ومَا خَضَبَ النَّاسُ البَيَاضَ لإنّه قَبِيحٌ وَلَكِنْ أحْسَنُ الشَّعرِ فَاحِمُه

ولكنَّ موضع وقوفنا هنا قوله «رَاعَتْكِ رَائِعَةُ الْبَيَاضِ» فهذا يُسَجِّل انفعالةَ تجربةٍ . فمن الّتى ارتاعت للشيبة الّتى ظهرت بمفرق أبى الطيِّب؟ هل هى أختُ معتنق الفوارس ؟

ولم ير أبو الطيِّب أنْ يصبغ تلك الشيبة لأن البياض – بَيَاض الشَّيبِ – فى ذاتِ نفسه غَيرُ قبيح . ومن ههنا يظهر معنى الربط الّذى ربطناه بين هذه المعانى وبين قوله :

« وَمِن هَوَى كُلِّ مَن لَيْسَت مُمَوَّهَةٍ
تَرَكْتُ لَونَ مَشِيبِى غَيرَ مخضوب
وَمِن هَوَى الصِّدْقِ فى نَفْسِى وَعَادَته
رَغِبْتُ عَنْ شَعَرٍ فى الوجه مكذوب »

٤٢ – ههنا إشارة لقوله :

« يرنو إليكِ مَعَ الْعَفَافِ وَعنْدَه أنّ المجُوسَ تُصِيبُ فِيمَا تَحْكُمُ »

وههنا يجوز لنا أن نُؤَوِّل تأويلا آخر وهو الّذى استقر عليه سياق آخرِ هذا الفصل – وذلك أن معتنق الفوارس فى الوغى هو أبو الطيِّب نفسه وتكون هى أخته فى الوِدَادِ وهو يرنو إليها مع العفاف ، وإذ جعلها أختا جاز له أن يتظرف بهذا الّذى ذَكَر من أمرِ الْمَجُوس .

لايستبعد أن يكون معتنق الفوارس فى الوغى هو الشاعر وأبو العشائر معا ، لأن أخيلة الشعر أشبه شىء برؤى الأحلام تجتمع فيها الأضداد والأشباه ، ويكون المرئى جامدا ثمّ يطير ثمّ يصير شيئا آخر وهكذا وهلّم جرّا والله أعلم .

٤٣ – أى أبو الطيِّب فى قوله :

« وَأَنْكَرَ خَاتِمَاىَ الخِنْصَرا »

سَجّل تجربة خاصّة لعلّها شعور بجرح أو نحو ذلك . والله أعلم .

الفصـــل الرابــع

١ — كالصائح المحكى مثلا — أى كأبى الطيِّب لأنّه قال :

« وَدَعْ كلَّ صَوْتٍ غَيْرَ صَــوْتِى فإنَّنى
أنا الصَّائحِ الْمَحْكِىُّ والآخــرُ الصَّدَى »

٢ — قول أبى الطيِّب :

« فتىً ماسَرَيْنا فِى ظُهورِ جُدُودِنا
إلى عَصْرِهِ إلاَّ نُرَجِّى التَّلاَقِيا »

فيه إشارة الى عالم الذّرِّ ، وذلك حين جمع الله بنى آدم من ظهور آبائهم فدبوا كالذَّرِّ ؛ أى صغار النمل ثمَّ قال لهم ألست بربكم — قال تعالى (سورة الاعراف) : « وَإِذْ أَخَــذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِى آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهم عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالوُا بَلَى شَهِدْنَا أنْ تَقُولوُا يَومَ الْقِيَامَةِ إنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِين . »

٣ — « فربَّما شربت بماء ... الخ » أى فربما نلت العزيز النادر الّذى لايستطاع .

٤ — ابن حنزابة هذا هو ابن الفرات وزير كافور . والغرض ههنا أنَّ كافور الم يَعِدْ أبا الطيِّب ولاية ولكنَّ حاشية كافور زعموا ذلك لأبى الطيِّب وزيَّنوه له . والله أعلم .

٥ — أى وجد أنفع المال أنواع الجرى وأنواع التقريب الّتى عند الخيل . والتقريب نوع من عَدْوِ الخيل ذلك بأنّها وفت لى لمَّا رأيت أنَّ صروف الدهر جعلت تَغدْرِ بى ، ووفاؤها أنهَّا حملتنى وفاتت بى الأعداء الّذين كانوا يترصَّدوننى وحاولوا اللَحَاق بى لمّا خرجت من حلب ووفت لى أيضا الرماح ، وهى صُمُّ الأنابيب ؛ أى القنا الذى عليه أسنَّتُها ذو أنابيب صمٍّ · أى فصوص سالمة صمَّاء لاعيب فيها . الْجُرْدُ السَّراحيب أى

الخيل الحسان الطوال القليلات الشعر . وذلك من محاسنها فيما ذكروا .

٦ — ذكر ابن الأثير ذلك في كتاب المثل السائر اعتمادا على الأشياء الضعيفة التي لاتنكر مماً روى لأبي الطيِّب وثبت في ديوانه، ومنذ الذي لاتعدُّ معائبه لكنّ عبارته يستفاد منها أنّ متن أسلوب أبي الطيِّب كلّه فيه ضعف وليس فصيحافصاحة أبي تَمَّام والبحتريِّ. وفي هذا نظر . وهذه الأبيات الثلاثة ونحوها من الجزالة بمنزلة تتقطع دونها الأعناق — وبذا وهو كثير عنده بذَّ الشعراء وسبحان المانح .

«تَهْوِى بِمُنْجَرِد » يعنى نفسه لمَّا جعل خيله جردا — أي قليلات الشعر — جعل نفسه منجردا أي منكمشا مستمرا في أمره جادًّا لايلوى على شيء .

٧ — قوله : «يرمي النجوم... الخ» أي تسمو همَّته إلى النجم. وقد نظر المعرىُّ إلى صياغة أبي الطيِّب لأنّه أشبه النجوم بالسلب الذي ينتهبه صاحب الغارة . فزعم المعرىُّ في اللصوص الّذين وصفهم يذكر انتشارهم وشرَّهم في الطريق مابين العراق والشام أنهَّم ذئاب جائعة من ذئاب الإنس يبلغ بها الشره أن تطمع في جدى السماء لو وجدت إليه سبيلا . لمَّا جعلهم ذئابا جعل شدّة طموحهم تبلغ بهم إلى أن يظنوا جدى النجوم شيئا يؤكل . مسبوتا : أي نائما .

٨ — ذكر برتراند رسل في تاريخ الفلسفة أنّ طوما اكويناس اعتذر لإباحة الجماع (لاتصاله بمزاعم النصارى في الخطيئة) بأنَّه وسيلة النسل وعاب الإكثار منه لأنّه حينئذ يخرج إلى الاستئناس بالخطيئة . وقد ذهب مذهبا غير جد بعيد من هذا بعض من فسَّروا قوله تعالى : « وابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللهُ لَكُمْ » بالولد إلاّ أنّ طريقهم أقصدُ إذ جعلوا المراد ما أباحه الله تعالى ، ويدخل في ذلك ما كان حلالا من الرفث والله أعلم .

٩ — إلى تهزُّم الشجو البعيد — كصوت سواقي النيل . تقول تَهَزَّمَ الدُّفُ ،

وتَهَزَّمَت القِدْر وهى تغلى .

١٠ — وهل البحر إلاّ النيل — لايكاد أهل النيل عندنا يسمونه بغير البحر . وليس البحر ماكان مالحا ضربة لازب فالقرآن يفيد جواز إطلاقه على العذب .

١١ — «كليل توسَّدنا الثويَّة» إشارة إلى قوله :

وَلَيلٍ تَوَسَّدْنَا الثَّوِيَّة تَحْتَه كأنَّ ثَرَاها عَنْبَرٌ فى المَرَافق

فهذه الليلة كانت مما أحسن فيه الدهر إلى أبى الطيِّب .

١٢ — وان من الشعر لحكما . . . الخ ، كأنَّ هذا يقولونه لانفسهم .

١٣ — إشارة إلى قول «روميو» اطلعى أيَّتُهَا الشمس الجميلة واكسفى القمر الحاسد لك — الفصل الثانى — المنظر الثانى ، من روميو وجولييت

قال جرير :

«الشمس طالعة ليست بكاسفة تُبْكى عليك نجوُم الليلِ والقَمرُ»

١٤ — بمن استشار كافور : أى بمن استشاره كافور .

١٥ — عَيْر ، أى حمارالوحش . وهيق هو ذكر النعام. وخنساء هى البقرة الوحشية ، وذيَّال هو الثور الوحشى . والمراد أنَّ فاتكا صاحب صيد له من الوحش ماتختار أسنَّته لسبق خيله وحذقه وحذقهنَّ بالصيد .

١٦ — ممَّا يفسد إنشاده صفاء المجلس عند كافور متى أريد به حَاقُّ الكيد.. أى أنَّ أعداء أبى الطيِّب قد يكفيهم أن ينشدوا كافورا شعره أيَّام شبابه ويُعلِّقوا عليه بأصناف الإشارات يوحون بها إلى أطماعه وانطواء نفسه على طلب السلطان بايَّتما وسيلة تتهيأ له وأنهّ لايُؤْمَن من جانبه ، وأنَّ ضَبْطَه والتضييق عليه والحذر منه كل ذلك ممّا يقتضيه الحزم .

١٧ — الحبس وأكل الازواد — إشارة إلى قوله :

«جَوْعَانُ يَأكُلُ مِن زَادِى ويُمْسِكُنِى
لِكَىْ يقُالَ عَظِيمُ القَدْرِ مَقْصُودُ»

١٨ ـ وقلعت سخينة أم أبى فراس ـ ولامن ... الخ .
موضع الاستشهاد بالبيت أنّه ممّا يرُجّح عندنا أنّ أبا الطيّب إنمّا قاله يعرّض بأمّ أبى فراس، إذ كانت أمّه غير ذات شأن ـ لايمشى الأمراء حواليها حفاة على المرو ـ أى الحصى ـ فلايشكون لذعه ولارمضائه وكأنمّا يسيرون على ريش أولاد صغار النعام .

١٩ ـ ورميت جثته للكلاب ـ طَرْحُها فى العراء كإلقائها للكلاب بل هو إلقاء لها إلى الكلاب ، لاريب . والله أعلم .

٢٠ ـ « يستحل دم الحجاج فى الحرم » ـ أوّلُه :

« شَيْخٍ يَرَى الصَّلَواتِ الخمسَ نَافِلةً »

من قصيدته : « ضَيْفٌ ألمَّ برأسى غَيْرَ مُحْتَشِمِ ».
وقد استحل القرامطة الحرم وانتزعوا الحَجَرَ الأسْوَد من موضعه .

٢١ ـ « كالذى قام » ـ من لزوميّات المعرى .

٢٢ ـ « كان أسوَد بصّاصا » : هكذا نعت كافور فى ابن خَلِّكان .

٢٣ ـ وكأنّ أبا الطيِّب لم يكن يرى السواد .. الخ ـ والغالب عيب السواد والظنّ به النقص فما كان أبو الطيّب ليخرج من جملة أحكام بيئته . وقد كره الفقهاء السفر والاتّجار بأرض العَدُوّ وبأرض السودان . وإنمّا أردنا التنبيه على أنّ أبا الطيّب لم يكن صاحب عنصريّة لونيّة انفرد بها . ولعلّه كان أقل انصرافا فى خويصة أعماق نفسه عن سواد كافور ممّن كانوا يحيطون به من اضراب ابن حنزابة ورجال البلاط . والله أعلم .

٢٤ ـ إذ بلغ به كِراهُ السُّكاك الخ ـ إشارة إلى قوله

« وَمَنْ بلغ التُّرابَ به كِرَاه وإنْ بَلَغتْ به الحالُ السُّكَاكَا »

٢٥ ـ أرن الحماسة ، أى نشاط الحماسة بفتح الهمزة والراء من أرِنَ (باب فرح) يأرَنُ .

٢٦ – أصداء الكهنوت والعرافة – وقد كان الشعراء فى الزمان الماضى فى الجاهليّة بعض أصناف الكهّان. والمراد ههنا أنّ نعت أبى الطيّب لحال القتال والفتنة فيما بين الفرات وبرقْة مع أنّه صفة أمر واقع يخالطه نوع من النبوءة بفتنة وأحداث ستكون.

٢٧ – «وما التأنيث لاسم الشمس عيب» – الّذى عند كثير من الفقهاء أنّ الأنوثة نقص، يجعل منزلة الأنثى الحرة عند بعضهم دون منزلة العبد الذكر لان العبوديّة قد تفارقه فيصير حرّاً وكذلك الصغير قد يكبر وهو إن كان حرّاً متقدم على العبد – وقال صاحب الرسالة في الشهادة ومائة امرأة كامرأتين.. الخ واستدلّ أبو الوليـد الباجىُّ من الحديث «لاتمنعوا إماء الله مَسَاجِدَ الله» أنّ فيه رُخْصَةً للزوج فى منعهن. والغيرة من الإيمان متى كان الغيور من أهل الفضل، وإلاّ فالحيوانيّة المتصلة بعنصر التملُّك فيها وحب السيطرة لاتخفى، والله أعلم.

٢٨ – معنى «فعل» لدلالـة الباذل عليه.

المراد أنّ رواية من روى «الباذل» لاجدوى ولاطائل فيها ولازيادة معنى على مالو كان قد قال:

«وإنْ بَذَلَ الإنسانُ لِى جُودَ عَابِسٍ
جَزَيْتُ بِفِعْلِ الباذِلِ المُتَبَسِّمِ»

إذ كلمة جود ههنا لايزيد معناها على كلمة فعل بشىء والله أعلم.

٢٩ – «على لا حب لا يهتدى بناره» – هذا شعر امرىء القيس يذكر سفره إذ توجّه إلى القيصر، على لاحب، أى على طريق ليس فيه منار فيهتدى به، تنكره إبل الشام لإنه ليس بطريق إبل ولكن طريق وعر لخيل الروم وبراذينها. وقد انقطعت بين الشاعر وكيانه كلّه الأسباب بعد مجاورة شيزر وحماة والإيغال فى بلاد الروم.

٣٠ – أصواء المِتَان أى الأصواء، أى العلامات الّتى تكون فوق ماغَلُظَ من متون الأرض. والعلوب الآثار. أى تبدو آثار الطريق عند الأصواء

التي فوق المتان. ثمّ قال إنّه يريد ناقته على الشرب من الحياض المتكدرة.
ولاماء إلاّ الحياض المتكدرة. فإنْ عافت فانّ طعامها من بعد الرحلة
والركوب — هذا معنى « فإنّ المندّى رحلة فركوب » . والركوب
من الرحلة فالفاء لتدلّ على الاتصال وهو من شواهد سيبويه ؛ أحسبه
استشهد به فى باب حتّى. والله تعالى أعلم .

الفصل الخـــامس

١ — « فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ ...الخ » — للمفسرين وجوه في تأويل هذه الآية. ولا يستبعد أنَّه كان من عادة القوم إذا استحسنوا جَمَالا أن يحزُّوا الأيدى إشعارا بذلك . وليس في ظاهر لفظ الآية ماينفى هذا الوجه . وفى قول الطبرى « حزّاً حزّاً » فى بعض ماذكر من وجوه التأويل ماعسى أن يشعر بجواز معنى من هذا التأويل والله أعلم .

قيل حتَّى أبَنَّها — من أبان بمعنى أبعد وقطع قطعا فاصلا . وهذا القول فى خبر سيِّدنا يوسف عليه السلام فى تفسير الطبرى .

٢ — « لُقْيَان المَعَالى . . . » — قالوا رُوِىَ بضمِّ اللام ، وخطَّأ بعضهم أبا الطيِّب فى ذلك محتجّا بأنَّ اللقيان بكسر اللام — وانظر شرح العكبرى . . وهذه الأبيات « ذَرِيْنِي أَنَلْ مالا يُنَالُ من العُلَى . . . »من لاميّةٍ جيِّدة لأبى الطيِّب أراها من حسناته .

٣ — حُمَاةُ ربَّة الهودج — إشارة إلى قوله :

« يَبِيتُ غُبَارُ الخَيْلِ أدْنَى ستُورِه
وآخِرُهَا نَشْرُ الكِبَاءِ المُلازِمُـــه »

فالخيل تحمى الهودج الّذى هى فيه — وربّة الهودج هى محبوبة أبى الطيِّب إن صح أمرها . وقولنا من وراء التِّيه ، فهو الصحراء . . وقد كان هو بمصر لمّا قال الأبيات النونيّة ، فتيه سيناء وأرض الشام كلٌّ ذلك كان بينه وبينها .

٤ — « تحملو . . . البيت » — أى اذهبوا ليت الإبل تذهب بكم .

٥ — قوله : « إلاَّ بكيت ولا ودٌّ بلا سَبَبَ » عجيب فى بابه ، ولابدَّ للبكاء من سبب وإنّما أخفاه كما ترى . ولسبب هو الودُّ بلا ريب ، لا العشق ، فإن كانت تجمع بينه وبين محبوبته فقد كانت تودُّه والله أعلم .

٦ — قال العكبرى . يعرض بسيف الدولة . قلت هذا ظاهر الكلام وباطنه أسىً على أنّه لا يستطيع لقاء الأحباب الأحياء .

٧ — وكالّذى ذهب إليه الخ — هكذا جاء فى قصّة «مادنجو» ينسبه إلى روايةٍ ونصوص محققة وما أشبه ذلك أن يكون . والله أعلم .

٨ — « تَعثّرت به . . . » يُرْوَى أحيانا : « تَعثّرت بك . . . » والكاف خطاب للخبر ، والهاء أحبُّ الىَّ . والعرب ممّا تختصر حركة أمثال هذه الهاء أحيانا كثيرة . ومن ذلك فى القرآن « يَرْضَهُ لكم » فى سورة تنزيل فى رواية حفص عن عاصم ، وغيره يقرأها بإشباع ضمّة الهاء .

وتَعَثُّرُ أفواه من يحب — إشارة إلى البيت «تعثّرت به فى الأفواه» — أى لمّا وصف أبو الطيّب حاله إذ جاءه الخبر فاضطرب له وعبَّر عن ذلك بقوله :

« شَرِقْتُ بالدّمعِ حتّى كادَ يَشْرَقُ بِى »

ذكر محبوبته ومن حولها وأنّها لاشك يكون قد ساءها خبرُ موت خولة إذ سمعت به ولعلّها كانت بأنطاكية فسمعت نعيها هناك فهذا تَعَثُّرُ خيل البريد به فى الطريق . وتعثّر افواه الناعين إذ ذكروا الخبر المؤسف لها ، وتَعَثُّرُ لسانها هى وحزنها وشرقها بالدمع كما شرق أبو الطيّب .

قولنا من يحب إذ نعينها إليه — االضمير المذكَّر يعود إلى لفظ من على إفراده وتذكيره اللفظىِّ ولك أن تقول : إذ نعينها إليها وعَيبُ هذا تكرارُ ضمير المؤنث ثم هو ينصُّ على المحبوبة والضمير المذكر بحكم عودته على من يدل عليها وعلى من يكون معها كأبى العشائر وكجواريها وهلمَّ جرًّا والله أعلمَ .

٩ — « دموع تذيب . . . » صدره :

« تركتَ دموعَ الْغَانِيَاتِ وفَــوقهـــا »

وهو من قصيدة رثى بها ابنا لسيف الدولة ، هو أبو أبو الهيجاء عبد الله .

ثمّ يخالطها سواده وسواد المسك ... الخ – الأرب ههنا إشعار القارىء الكـــريم أنّ قول أبى الطيّب :

« تَبُلُّ الثّرَى سُوداً من المسْك وَحْدَه
وَقَدْ قَطَرَتْ حُمْراً عَلَى الشّعَرِ الْجَثْلِ »

فيه صورحيّة منبثة عن مشاهدة . ولعلّها صورة المرأة التّى كان يُحِبُّها بحمص وخناصرة وحلب . وهى الموصوفة فى الأبيات الهائية :

« شَاميّة طالمَا خلوت بِهَـــا تُبْصِر فِي نَاظِرِي مُحَيّاها
مَا أَسْأَرَتْ في يَدِي غَدَائِرهُا جَعَلْتُه فى المُدَام أفْوَاها

أى ماأبقته غدائرها فى يدى من الطيب فأنا أطيّبُ به المدام–والإشارة بعدُ فى سائر الجملة لاتخفى إن شاء الله .

١٠ – أى كأنه كانت لخولة مشابه من صفات عهدها أبو الطيّب فى أمّه -- من خولة أى لخولة . قال ابن أبى ربيعة :

« عوجا نحيّ الطلل المُحْوِلا والرّسْم من أسماءَ والمنزلا »

أى رسم أسماء وآثار منزلها . واستشهدنا بهذا البيت لبيان معنى« مِنْ » التّى للاضافة كاللام .

١١ – لرأسك والصدر اللذَىْ – أى اللذين . والعرب تقول : اللذان واللذا بدون نون ، واللذيْن واللذَىْ كما ههنا .

١٢ –الغراب الأعصم الذى فى رجليه بياض وهو مما يتشاءم به . وفى البيتَ تضمينُ رمزٍ وتشبيهٌ حسن . ذلك بأن الحبر أسود كالغراب وهذا الغراب أعصم بلون الورق . ثم كلٌ ما كتبه الى جدّته شاهد بالبين . والغراب والبين أخوان .

١٣ – فما ذكروا أنّه دعى– أراد أنْ يتّهمه بهذا الدكتورطه فى أوائل كتابه « مع المتنبى » حدسا بلاسابقة من دليل مَرْوِىٍّ وهذا قد لايستقيم .

١٤ – وقد دلت أشياء فى ديوانه أنه كان متألها أى مؤمنا بالله .

١٥ – إذ يهيىء نفسه للخروج فى مثل سنّ مسلم بن عقيل – هو ابن عقيل بن أبى طالب ، قتله عبيد الله بن زياد وكان قد أوفده سيّدنا الحسين ليروز له أمر الكوفة . فاتبعه جماعات من الناس ثم تفرقوا عنه وخادعه محمد بن الأشعث حتى استأسر ، فما كان من ابن زياد إلاّ أن أمر به فضربت عنقه من أعلى القصر ، يظهر أمر ذلك للناس جبروتا وعتوّاً فتعالى الله الملك القادر . وكان مسلم بن عقيل لم يبلغ العشرين ولعلّه لم يبلغ الثامنة عشرة .

١٦ – عهد البيضاء : أى عهد المحبوبة .

١٧ – النّبْع شجر قوى والغَرَبُ ضعيف . والصقر شجاع والخرب جبان .

١٨ – أول سَنَتَيْه مع سيف الدولة – هذا مجرد فرض وترجيح منّا ، لأن الفارابى مات بعد سنتين من اتصال أبى الطيّب بسيف الدولة .

١٩ – وكانت سخينة وابنتها من حولها . . . الخ – هذا كلّه من الحدس لقرب أحوال هؤلاء بعضهم من بعض .

٢٠ – وكل نجاة بجاوية – أى ناقة شديدة النجاء من أرض البجاة . والبجاة جيل من السودان يسكنون من حيث جبال البحر الأحمر غربىّ حلايب إلى شمالىّ أرتريا من أرض الحبشة .

٢١ – وهو الّذى قيل رواه . إن يكن أبو منصور روى هذا الخبر فعدم إثباته له فى خبر أبى الطيّب يدل على إنكار منه له . ويجوز أن تكون الرواية كلها قد ادعيت على أبى منصور كذبا والله أعلم .

٢٢ – سدكوا بأبى فراس – لازموه ولصقوا به . .

٢٣ – بقوله « الغطارفة الغرّا » فهذا هو العِىُّ والْحَصَرُ . ثم يضاف إلى هذا مايداخل المعنى من تفضيل عبدى الروم على كافور ، كأنّهم لبياضهم

أكرم وأنفس من أن يقتنيهم أسود مثله . ومثل هذا المعنى قد يخطر لأبى فراس ومن على شاكلته ، ولكنّ أبا الطيِّب كُلُّ العبيد لديه صنف واحد من شواهد ذلك مثلا قوله :

« يَسْتَخْشِنُ الخزَّ حينَ يَلْمَسُه وكانَ يُبْرَى بِظُفْرِه القَلَمُ »

٢٤ ــ الصَّحِلُ بالصاد المهملة والحاء المهملة بفتح الصاد وكسر الحاء من صَحِلَ صوته يَصْحَلُ إذ اعترته خشونه وصار أبحَّ .

٢٥ ــ ولعلّه كان طرفا فى هذا الكيد أمر الجارية ــ هذا مجرد حدس لإكمال صورة حال ما كان عليه بلاط سيف الدولة ولم تكن المؤامرة بحاجة إلى مشاركة سالبة أو موجبة من هذه الجارية الرومية على الأرجح والله أعلم .

٢٦ ــ بيتا سيف الدولة : « راقبتنى العيون فيك . . . » كان سيف الدولة ينظم الشعر ، وذكر شيئا من ذلك أبو منصور فى أخباره فى الجزء الاوّل من يتيمة الدهر فليرجع إليه .

وقولنا ولعلّ العذول كانت أخت أبى فراس لأنّ هذه كانت زوجة لسيف الدولة ، وينبغى أن تكون تتعصب وتتحزب لأخيها . وإذا كانت فتاة آل أبى العشائر تحب أبا الطيِّب وهذه الجارية تحبها ، فمكان العذل من أخت أبى فراس لسيف الدولة لايخفى .

٢٧ ــ أبو القاسم الوزير من رجالات القرن الرابع . كان داهية سياسيًّا أديبا شاعرا داعيا وله أخبار . ورثاه أبو العلاء فى اللزوميّات بكلمته الّتى يقول فيها :

« لَيْسَ يَبقَى الضّرْب الطويل عَلَى الدَّهْـ ـرِ وَلاَ ذو العَبَالة الدِّرْحايهَ »

الدرحاية القصير . أى لايبقى النوع الطويل من الناس ولا الغليظ القصير منهم

يا أبا القاسم الوزير تــرحّلْــ ـتَ وخلّفْتَنى ثِفال رحاية »

أي تركتني لزيم أحداث رحى الدهر .

« وتَرَكْتَ الكُتُبَ الثّمينَه للنّا س وما رُحْتَ عَنْهُمُ لسحاية
إن نحتلك المَنُونُ قبلي فإنّي مُنْتَحَاهَا وإنّها مُنْتَحايَه »

٢٨ — قوله : «وكم طرِب المسامع ...» يوحي بالتفكّر في حبيب يسمع شعره فيعجب من عبقريّته هو ومن عبقريّة الممدوح الّذى ألهمه . وقوله : « إذا اشتهيت دموع . . . » كان ينعي به نفسه ، فعندما يتسامع النّاس بموته فمنهم مظهر للحزن ومنهم حزين حقا .

٢٩ — قوله : « سوى ضرب المثالث والمثانى » يشير إلى حال أقوام بأعيانهم عهد منهم الإقبال على الملاهى والغناء — وقد تكرر هذا المعنى فى شعره كثيرا مثلا :

«ألْهَى المَمَالِكَ عن فَخْرٍ قَفَلْتَ به شُربُ المُدَامةِ والأوتارُ والنغمُ»

وقوله :

« ماالّذى عِنْدَه تُدارُ المَنَايَا كالّذى عِنْدَه تُدارُ الشَّمُولُ »

٣٠ — قوله :

« أتى الطعن حتى ما تَطيرُ رشاشةٌ من الدَّمِ إلاّ فى نحورِ العواتِق »

يوشك أن يشعرنا أنّ بنى كلاب ومن إليهم داهموا سُرادَق سيف الدولة حتى ريعت النساء معه ، وتناثرت الدماء قريبا منهن . مما ينبىء ببعض هذا قوله فى هذه القافيّة :

« تَوَهّمَهَا الأعرَابُ سَوْرَةَ مُتْرَفٍ تُذَكِّرُه البَيْداء ظِلَّ السُّرَادق »

والله أعلم .

٣١ — إلى حلب من طريق دَيْر العاقول — هذه رحلة أبى الطيِّب . فارق فارس وجنانها وكان أرَبُه أن يبلغ الشام حيث أعداؤه وأحبّاؤه فانعرج به طريقه إلى دير العاقول حيث لقى حمامه — وإلى الله تصير الأمور .

٣٢ ــ قوله :

« لا أَقْبلَوا سِرّاً ولا ظَفِرِوا غدراً ولا نَصَرَتْهُمُ الغِيَلُ »

فيه تعريض بما صنع بنو حمدان به إذ أرسلوا من يروم رمية فى الظلام .

٣٣ ــ إلى الذّى رَخَّص فى دمه فيخلص . . . الخ ــ أى إلى سيف الدولة إذ هو قد كان رخَّص فى دمه كما مر بلك فى خبر السامرّائى .

٣٤ ــ إذ كان ابن خالويه ضِلْعهُ مع أبى فراس ــ كما لايخفى ــ وهو الذّى شَجَّ أبا الطيِّب بالمفتاح . ضلعه مع أبى فراس : أى ميله وانحيازه بفتح الضّادِ وسُكُونِ اللام .

٣٥ ــ اللائى يضعن النِّقْسَ أمكنة الغوالى ، إشارة إلى قوله :

« وأبرَزَتِ الخدُورُ مُخبّـآتٍ يَضَعْنَ النِّقْسَ أمكنة الغَوَالى

والغوالى جمع الغالية وهى ضرب من طيب النساء .

٣٦ ــ « تمتع من سهاد . . . » ــ مثل هذا عند أبى الطيِّب من التأمُّل كثير . وقد كان واسع الاطلاع . ومن أجل هذا وأمثاله ماظنَّ الحاتمىُّ أنَّه كان يأخذ من أرسططاليس . وما يُضيره إن يك قد نظر فى كتبه وأخذ عنه . قُوتِلَ الظلمُ ولُعِنَتْ قُلُوبُ الحَسَدِ والبَغضاء .

قال ابن جنى أرجو ألاَّ يكون أراد بذلك أنَّ ضجعة الموت لا انتباه لها ... الخ ــ هذا قاله ابن جِنِّى من شدَّة إشفاقه على مصير أبى الطيِّب ولما كان يطعن به عليه بعض أعدائه من ادعاء رقة فى الدين عليه . وقد كان أبو الطيِّب متألها كما قال أبو العلاء ــ هذا وقد كان رحمه الله من أفطن الخلق إلى التأله عند من يكون متألها .

رحمهم الله جميعا ــ والحمد لله أوّلا وأخيراً وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليما .

الغيث المنهمر

مهداة إلى أبي الطيّب

الغيث المنهمر

هَمَى عَلَيْكَ بِشَطّىْ دِجْلَةَ المَطَرُ
وفى المَدَائِن رَاحَ الغَيْثُ يَنْهَمِرُ

إنَّ الّتى ودَّعتنا بابْتِسَامتها
لازَالَ فِي خَدِّهَا من لَمْسِنَا أثَرُ

حتّى كأنَّ سُوَيْدْاءَ الفؤاد بِهِ
نُوَّارة تجتليها رَوْضُهَا العمُرُ

لمّا لمسنا بِرِفْقِ الكَفِّ نُونتَهَا
وَلَمْ نُحاذِر رَقِيْباً رَاعها الْخَطَرُ

وَغُضَّ عنّا من الأبْصَارِ خائِنُها
لمّا تَغَشّى الْهَوَى فِي وَجْهِهَا الحَذَرُ

يَاحَبّذَا حِيْنَ نَاجَتْنَا بأُنْمُلَةٍ
تُشِيرُ حَيْثُ حَدِيثُ الْحُبِّ مُسْتَطَرُ

إنَّ الّذى زَوَّدَتْنا من بشَاشَتِها
زادٌ لعمرُكَ للأيّامِ مُدَّخَرُ

والحُبُّ يَفْضَحُ أقْواماً كأنّهمو
مِنَ الْحَيَاءِ الْعَذارَى طَالَما صَبَرُوا

والغَانِيَاتُ تَرَائيها مُغَالَبَةٌ
لِلْمَوتِ إنَّ الْهَوَى فَوْقَ الرَّدَى ظَفَرُ(١)

والْجِنْسُ مُخْتَلِطٌ بالحُبِّ شَهْوَتُهُ
تَغَشْى النُّفُوسَ فَلاَ تُبْقِي وَلاَتَذَرُ

---

(١) التراثى هو اظهار المحاسن .

وَالْجِسْمُ تَحْظَى بَنُو الدُّنْيَا بِمَنْظَرِهِ
عَصْرَ الشَّبَابِ وَمَاءُ الْحُسْنِ يَنْحَسِر

وَقَدْ يَلَذُّكَ قُرْبُ المستريح لَهَا
مِنْكَ الفُؤَادُ وَمِنْ لَذَّاتِكَ النَّظَرُ (١)

وللشَّبِيبَةِ فِي جَنْبَيْكَ أَرْوِقَةٌ
فَسِيحَةٌ وَمَدَىً كَالْبَحْرِ مُنْتَشِرُ

وَقَدْ تَصَرَّمَتِ الأَعْوَامُ وَاقْتَرَبَتْ
مِنَ المنية بَعْدَ القُوَّةِ المِرَرُ

وَمَا جَنَيْنَا جَنَاةً مِنْ سَفَرْجَلَةٍ
بِهَا نَتِيهُ عَلَى الدُّنْيَا وَنَنْتَصِرُ (٢)

هَلْ تَذْكُرَنَّ أَخِي حِينَ الشِّرَاعَ سَمَا
عَلَيْكَ بِالمَوْجِ فِي تَيَّارِهِ النَّهَرُ

وَالْبَابِلِيَّةُ أَجْفَانًا لِصَاحِبِهَا
سُوءُ الخليقة بِئْسَ اللُّؤْمُ وَالضَّجَرُ (٣)

يُجَاذِبُ الْحَبْلَ مَمْقُوتاً وَيَغْلِبُهُ
ضِيقُ المِزَاجِ فَكَادَ الْعِلْجُ يَنْتَحِرُ

صَابَرْتَهُ تَبْتَغِي مَرْضَاتَهَا شَغَفاً
بِهَا وَأَنْتَ لَهُ بِالصَّبْرِ مُحْتَقِرُ

تَبَسَّمَتْ بِشَفاً مِنْ ثَغْرِهَا وَأَسىً
وَفِي مَحَاجِرِهَا مِنْ جَفْنِهَا سُكُرُ (٤)

---

(١) الفؤاد فاعل المستريح أى التى يستريح فؤادك لقربها .

(٢) اشارة الى قوله امرىء القيس : « وهاتى اذيقينا جناة السفرجل . » والسفرجل من الفواكه شبيه بالتفاح الا أنه اصغر منه وأخضر اللون .

(٣) أجفانا تمييز أى التى جفونها كالبابلية أى الخمر .

(٤) بشفتا : يطرف .

تَمُــدُّ مِن ساعِدَيْها غَيْرَ نَــاشِطَــةٍ
وَفَعْمَةٌ حيثُ يَغْشَى سَاقَهَــا الأُزُرُ (١)

طَوِيلَةٌ هُدْبُ عَيْنَيها بَــرهْــرَهَـــةٌ
أَسِيْلَةُ الخَدِّ مِنْهَــا اللِّــينُ والصَّعَرُ (٢)

بِانَتْ وَفِي الْقَلْـــبِ طَيْفٌ مِنْ تَذَكُّرِها
وَحَسْرَةٌ لَذْعُهَــا قَدْ كَادَ يَنْــدَثِــرُ

وَالْعَيْشُ أَطْلالَه تَعْفُــو وَخُلْتُنَــــا
كَأنَّما وَصْلَهَا الأعمَــاقُ تَنْتَظِــرُ (٣)

أَمَا تَرَانِيَ فِي بَغْــدَادَ مُغْتَـــرِبــاً
وَنَهــرُ دِجْلَـــةَ سَــاجٍ مَــاؤُه كَدِرُ

أَرْنــو إلى المنحنــى مِنْهُ ، وشَاطِئُــــه
لِلنَّخْلِ بِالْكَــرْخِ عَنْ زُوَّارِه زَوَرُ (٤)

وَبَائِعُــو الْحُوتِ طَافَ الْمُشْتَرُوهُ بِهِــمْ
وأَنْـــتَ وَحْدَكَ إذ تُمسِي وتَبْتَكِــــرُ

نَاءٍ عَنِ المنْزِلِ الخَصْبِ الْجَنَــابِ بِــه
رِيــفُ الْخَمِيلَـــةِ فِيها القَطْــفُ والزَّهَرُ

حَيِّ المَدَائِنَ حَيَّاها الوَلِيــدُ وَقَـــدْ
أَوْحَـــتْ إليه بِهــا السِّينِيَّةَ الذِّكَرُ (٥)

لَمْ يَبْقَ مِنْها سِوَى الآجُرِّ قَدْ دَرَسَتْ
أَطلالُها وامَّحَـــتْ مِنْ نَقْشِها الصُّوَرُ

---

(١) فعمة ممتلئة والا زر جمع ازار أي ساقها خدلة .
(٢) برهرهة : ناعمة بضة .
(٣) تعفو : تذهب .
(٤) الكرخ هو شاطىء دجلة الشرقى من بغداد . زور بفتحتين ميل وابتعاد .
(٥) سينية البحترى مشهورة وفيها يقول :
حضرت رحلى الهموم فوجهت الى أبيض المدائن عنسى . والوليد هو البحترى .

إذ المَقَاصِيرُ لا تُوحِي الْقِيَانَ ولا
مِنْ رَسْمِ صُورَةِ أنْطَاكِيَّةٍ خَبَرُ (١)

وَلاَ الدِّرَفْسُ أَنُو شُرْوانُ يَحْفِزُه
وَلاَ أَبو الْغَوْثِ فى كَأساتِه وَطَرُ (٢)

لَكِنَّ كَأساتِ سامِرًّا يُشَعْشِعُها
عِنْدَ الخَلاءِ لَدَى الملْوِيّةِ السّمَرُ (٣)

والجَعْفَرِىُّ خَرَابٌ حَوْلَه جِدَلٌ
مِنْ الرُّكَامِ خَرَابٌ وسْطَهَا الْجُدُرُ

والمسجِدُ الْجَامِعُ العَافِي مَنَارَتُه
تَخَالُها جَبَلاً طَابُوقُه حَجَرُ (٤)

وَقَدْ قَرَتْكَ الّتِى صِيغَ القَرِيضُ لَهَا
قِرَىً مِنَ الوُدِّ والإحْسَانُ يُخْتَبَرُ

والنّهْرَوَانُ فَقِيدُ النّهْرِ خَاوِيَةٌ
أَرْجَاؤه مَاؤُه الأدْحَالُ وَالحُفَرُ (٥)

---

(١) اشارة الى قول البحترى :
وكأن القيان بين المقاصير يرجعن بين حو ولمس .
وقال : واذا ما رأيت صورة انطاكية ارتعت بين روم وفرس

(٢) الدرفس العلم وهنا اشارة لقول البحترى « وأنو شروان يزجى الصفوف تحت الدرفس »
وأبو الغوث ولد البحترى وقال :
قد سقانى ولم يصرد ابو الغوث على العسكرين شربة خلس

(٣) سامرا هى المدينة التى بناها المعتصم للجند وبنى فيها مسجدا عظيم الا بعاد ليس فى العالم مسجد اوسع منه وجعل منارة ملوية الدرج . وبنى المتوكل قريبا منها جامعا دونه فى السعة الا أنه أوسع المساجد كلها بعده وجعل له منارة ملوية والجعفرى المذكور بعد هو قصر المتوكل والملوية المذكورة هنا هى منارة مسجده .

(٤) هو مسجد المعتصم والطابوق هو الآجر بلهجة العراق

(٥) النهروان احتفره الأكاسرة وأهمل أمره بعد سقوط بغداد بزمان فصار مستنقعات وحفرا والأدحال جمع دحل وهو هنا حفرة المستنقع .

والدُّورُ فيه قُبُورٌ لا أنيس بها
وشطُّه مُشْرِفٌ مِنْ تحتِه الجُزُرُ (١)

والرِّيفُ شابَ جمالَ الباسِقاتِ به
مِنَ الدُّخانِ سَوادٌ فيه مُعْتَكِرُ

إذا دجا الليلُ أبدى للّهيبِ سَناً
مِنْ فوقِ أسْنِمَةِ التّنُّورِ يَسْتَعِرُ (٢)

والبَصُّ مُنْخَرِطٌ سَيْرَ الظّلامُ به
لِتَطْمَئِنَّ على أطْفالِها الأُسَرُ

والجِسْمُ نَاءَ بِعِبْءِ اليومِ يَحْمِلُهُ
وقَدْ يَكُونُ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ سَهَرُ

وقَدْ حَنَنْتُ إلى الخُرْطُومِ إنَّ بِها
تِلْكَ الفَتاةُ التي في ثَغْرِها أشُرُ (٣)

والنِّيلُ مِنْ جَوِّ مِصرَ قَدْ نَظَرْتُ إلى
أصِيلِه وأثِيثٌ نَبْتُه الخَضِرُ

فَرْعاهُ لاحا مَعَ الأنْهارِ بَيْنَهُما
تَحْتَ الجِنانِ يَرَى لألاءَها البَصَرُ

والضَّوءُ في الجَدْوَلِ المُسْتَنِّ تُبْصِرُه
بِهِ أتَمَّ عَطاءَ الخالِقِ البَشَرُ

إنَّ العِراقِيَّةَ الحَسْناءَ قَدْ عَلِمت
أنِّي مُبِينٌ بِلَحْنِ القَوْلِ مُقْتَدِرُ

---

(١) الدور : موضع .

(٢) التنور هو تنور معمل الآجر .

(٣) الأشر : تحزيز في الأسنان من الضوء والجمال .

تبسمت في سواد من عباءتها
كأن حاجبها في وجهها قمر
مثل الهلال تبدى من غمامتها
تحت الجبين الذي من فوقه الشعر
كأن عارضها تجاوبه أممًا
خلت فأنت على الآثار تعتبر
كأن حاجبها ليل برابية
فيها القلاع التي قد حفها الشجر
أهدت إلينا كتابا من رسالتها
عن الكتاب ونعم الآي والسور
كأن دهرك هذا لا يلين إذا
لانت صفاتك فاصبر فالعدا دحروا(1)
إن التي ودعتنا بابتسامتها
تذكرتنا وعهد الحل يدكر
أم أنت شاقك من لبنان رونقها
لما استحثاك عن تفاحها السفر

عبد الله الطيب

(1) صفاتك : صخرتك .

رقم الإيداع: ٢٧٣ / ٢٠٠٤



بروفسير عبدالله الطيب

- ولد غرب الدامر سنة ٢٥ رمضان ١٣٣٩ هـ الموافق ٢ يونيو١٩٢١ م
- والداه الطيب عبد الله الطيب وعائشة جلال الدين الطيب وهو ابن محمد بن أحمد بن محمد المجذوب.
- تعلم بمدارس كسلا والدامر وبربر وكلية غردون بالخرطوم والمدارس العليا ومعهد التربية ببخت الرضا وجامعة لندن كلية التربية ومعهد الدراسات الشرقية والإفريقية.
- نال الدكتورة من جامعة لندن SOAS سنة ١٩٥٠ م.
- عمل بالتدريس بأمدرمان الأهلية وكلية غردون وبخت الرضا وكلية الخرطوم الجامعية وجامعة الخرطوم وغيرها.
- تولى عمادة كلية الآداب ١٩٦١ ـ ١٩٧٤ م.
- عين عضواً عاملا بالمجمع اللغوي بالقاهرة ١٩٦١ م.
- تولى تأسيس كلية عبد الله بابيرو بكانو نيجيريا ١٩٦٦ م.
- عين مديراً لجامعة الخرطوم سنة ١٩٧٤ ـ ١٩٧٥ م.
- تولى إدارة تأسيس جامعة جوبا ١٩٧٥ ـ ١٩٧٦ م.
- عمل أستاذاًممتازاً مدى الحياة (PROFESSOR EMARITEF) بجامعة الخرطوم ١٩٧٩ م
- له عدة مؤلفات ودواوين شعر.
- منح الدكتوراة الفخرية من جامعة الخرطوم سنة ١٩٨١ م وجامعة بابيرو سنة ١٩٨٠ م وجامعة الجزيرة سنة ١٩٨٩ م.
- شارك في عدة مؤتمرات في السودان وخارجه.
- أول رئيس لمجمع اللغة العربية بالسودان منذ تأسيسه سنة ١٩٩٠م وحتى وفاته.
- له مساهمات في الإذاعة والتلفزيون، فسر القرآن الكريم كله في إذاعة أمدرمان سنة ١٩٥٨ ـ ١٩٦٩ م مع قراءة الشيخ صديق أحمد حمدون.
- له تفسير جزء عمّ ١٩٧٠ م وجزء تبارك ١٩٩٠ م وأعد جزء قد سمع.
- عمل أستاذاً للغة العربية في جامعة سيدي محمد بن عبد الله بفاس المغرب ١٩٧٧ـ ١٩٨٦ م.
- توفي ٢٢ يونيو٢٠٠٣ م